الإبداع الفكري

رواية

ثلاثية المسيح

الجزء الأول

عيسى ابن مريم

د.أيمن العتوم



تم تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أنمار

https://t.me/osn_osn

Scan me!

ثلاثية المسيح

الجزء الأول: عيسى ابن مريم

أيمن العتوم

مكتبة إيلينا

Elena book

رواية

ثُلاثِيّة المَسِيح

الجزء الأوّل

عيسى ابن مريم

أيمن العتوم

٢٠٢٣م

تأليف
أيمــن العتـــوم

تصميم وإخراج
خديجة عصمت العتريس
khadija@gulfinnovation.com

الناشر

الإبـــداع الفكري

شركة الإبداع الفكري
للنشر والتوزيع - الكويت

الرقم المعياري الدولي « ردمك »
2543-2023

رقم الإيداع : 3-75-714-9921-978

للشراء عبر الانترنت www.ebdaafekry.com

هاتف: 22675321 965+
فاكس: 22675365 965+
العنوان: ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

2023

ebdaafekry.com info@ebdaafekry.com ebdaafekry

تمت الطباعة في المطبعة الألمانية للطباعة والتغليف

إهداء ..

(٠)

وِلادة

لم يكـنْ مـن شرّ قبـل ظهـوره العَلَنّـي؛ كلُّ هـذا الوبـاء المُسـتفحِل جـاء مـن ذلـك الظّـلام. وقبـل ملايـين السّـنين كان بإمكانـه أن يقـول كُلّ مـا يشـعر بـه في أعماقـه دون أيّ تـردّد. وَحدَهـا قناعتُـه بـما يفعـلُ، وإرداتُـه الّتـي لا تنكسـر صَنَعَـا منـه أكـبرَ قـوّةٍ قـادرةٍ على التّغيـير في الوجـود. لم تَـرَ المخلوقـاتُ في حياتهـا أَجْرأَ منـه ولا أَفْصـحَ ولا أشَـدَّ جنونًـا. أقسـمَ أن يجعـل الظّـلام - الّـذي جـاء منـه ثُـمّ كانَـه - يَعُـمَّ العـالَمَ، ومـع أنّ ذلـك كان ضـدّ المشيئة الإلهيّـة إلاّ أنّـه اسـتطاع أن ينجـح، وأنْ يَـبَرَّ بقَسَـمِه ولـو في الفانِيـة.

تهامَستِ الكائنـات النّورانيّـة فيـما بينهـا: «ويلٌ لهـذا الهالِـك؛ واحسرتَـى على مَصيره المَحتوم، كيف لـه أنْ يقـف في وجـه الحقّ الأعظـم». رَمَقَهـا شَـزْرًا بطـرف عينَيـه المُلتَهِبتَـين، وصـاح في وجههـا صيحـةً كُتِبَـتْ في دسـاتير الخَلْـق بـماء الأبديّـة: «خـيرٌ لي أن أعيـشَ في الجحيـم بـإرادتي عـلى أن أعيـشَ في النّعيـم مَسـلوبَ الإرادة».

تحاشـتِ المخلوقـات النّورانيّـة مـا انبعـثَ مِـنَ الدُّخـان مِـنْ بـين شِـدقَي ذلـك الظّـلام المُخيـف، وتراجعـتْ إلى الـوراء مثـل انطفـاءٍ تدريجـيّ لأشـعّة شـمسٍ تَهُـمُّ بالغُـروب، شـعرتْ بالإهانـة فحاولـتْ أن تقـول شـيئًا، لكنّهـا انصرفـتْ دون أن تنبـسَ ببنـتِ شـفةٍ مُطمئنّـةً إلى عَدالـة القَـدَر، وإلى غريـزة التّسـليم بـكلّ شيءٍ الّتـي فُطِـرَتْ عليهـا.

أقسمَ الظّلام في وَجهِ خالقِه وهو يختار هُبوطه إلى العالَم السّفليّ: «أيّها الحقُّ الأزليّ؛ بعزّتك العالية لأجُرَّنَّ إلى الجحيم الّذي أهبطْتَني إليه كُلَّ البشريّة الّتي تباهَيتَ بها».

وانقطع الصّوتُ في الأعالي، ليبدأ الرّحلةَ هناك... هناك في العالَم البِكر، العالَم الخفيّ، الغامض، السّاحر، وربّما المُؤقّت. ومَنْ يدري: ربّما تسنح الفرصةُ يومًا من الأيّام لأولئك الهابِطين مرّةً للعودة من جديد!! قال الظّلامُ للجسد الطّينيّ: أنا رميتُ مِفتاح عودتي في بئرٍ ذاتِ قرارٍ بعيد، أمّا أنتَ؛ فالعودة مُمكنةٌ لكنّها تحتاج إلى تضحيات كبيرة!!

في الهبوط تَحدَّثا طويلاً كعدُوَّيْن، وكصديقَيْن أحيانًا... جَمَعَهما مصيرٌ مُشترَك، ومعيشةٌ واحِدة. وعرفَ كلّ واحِدٌ منهما أنّ له عملاً يُؤدّيه. أمّا الطّينيّ فكان قليلَ العِلم، ضئيلَ المعرفة، عَديمَ الخبرة؛ فتخبّطَ يمينًا وشِمالاً، وارتجفَ كطفلٍ شريدٍ وهو يُواجه مُستقبلاً غامِضًا وحياةً مجهولة، ثمّ جرّب كُلَّ شيءٍ قبل أن يهتدي إلى ذلك الّذي ربّما ينفعه.. أمّا الظّلام فكان واسعَ المعرفة عميقَ الخِبرة؛ فمضى في الدّروب، يزرع أشجارًا من نار، ويدعو الباحثين عن الظّلّ إليها..!!

اختار الطّينيّ أن يُقيم بعيدًا عن الظّلام، أوى إلى كهوفٍ تُذكّره بخطيئته، لكنّ الظّلام لم يتركْه وحده، ولم يَرُقْ له أنْ يَدَعه ليعيش بأمانٍ حتّى في شَظَفه؛ فراح يتحرّشُ به، ويُقسم له من جديدٍ أنّه لا يُريد له إلاّ الخير؛ وخاصّة أنّهما الآن حتّى وإنْ كانا مُختلفَي الطّباع فلا غِنَى لأحدهما عن الآخر في ظلّ هذه الظّروف القاسية الّتي ألجأهما إليها العالي. وعليهما أن يَتعايَشا بعيدًا عن أُكذوبة العداوة الّتي تشتعل في أعماقهما.

كان طعم الهزيمة ما يزال مُرًّا على لسان الطّينيّ فأعرض عن الظّلام، وأدار وجهه إلى الجهةِ الأخرى، لكنّ الظّلام كان قادِرًا على أن يظهر

في كلّ جهةٍ يُولّي إليها الطّينيُّ وَجهَه؛ إنّه ليس مادّة؛ إنّه روحٌ تسري؛ بل هو أبعد من ذلك؛ إنّه ذرّات سابِحة تأخذ هيئة المحلّ الّتي هي فيه. مكّنه ذلك من حياةٍ أطول، وظهورٍ أوسع، وانتشارٍ أسرع.

تعاقبتْ دهورٌ طويلة لا يعلم إلاّ الله طُولَها الفاحِش... نَسِيَ الطّينيّ من أينَ هبط، أمّا الظّلام فظلّ ذاكِرًا... استطاع أن يدعو كلّ النّاسين إلى مَملكته، أطاعه طينيّون كثيرون... مشوَا خلفَه مُغمَضي العُيون مَسلوبي الإرادة... كان نِداءٌ ما في داخلهم يدعوهم إلى اتّباع بوصلة الظّلام، والطّرق الّتي يعبرها... في بعض المُنعرَجات كان الصّوت يخفُت قليلاً فيُصابون بالهلع مِمّا يفعلون، وفي لحظات العودة إلى الوعي كان الصّوت يرتفع مرّة أخرى وبلحنٍ أجمل، وموسيقى أشدّ عذوبةً؛ فيتبعون الظّلام من جديد وهم يترنّمون على إيقاع خطواتهم نحو الهاوية.

أدرك الطّينيّ أنّ السّقوط من الأعالي، يتّخذ مسارًا جديدًا؛ إنّه السّقوط من السّقوط نفسه إلى الجحيم، لكنّ هذا الإدراك لم يمنعه من مُتابعة صوتِ الظّلام القويّ في داخله... في السّديم المُوغِل في الغياهب المُتراكِمة كان يظهر بعض النّور من بين الدّياجِي، يقترب شيئًا فشيئًا حتّى يبدو واضِحًا فينكشفُ الخِداع، وتَتَبدّى الحُجُب... فيُحاول الطّينيّ أن يتدارك هذا الإيغال في الدّروب النّافِذة إلى الجحيم، غير أنّ صوتَ الظّلام يعلو من جديد، فيتبعه الطّينيُّ اتّباعَ الفريسة للضّبع.

تكاثرتِ الضّباعُ وريشةُ الظّلام بعد ذلك كثيرًا، وفاقَ أعدادُها أعدادَ الطّينيّين، ولربّما كان لكلّ طينيّ عشراتُ الضّباع إنْ لم تكن المئات منها لكي تُحافِظ على تَقهقُرِه المُتتابِع... انهارتْ كلّ المبادِئ الّتي مُزِجَ بها جسدُ الطّينيّ في الأعالي، ورويدًا رويدًا بدأ يحلّ محلّها الوَخَم والقذارات والرّذائل الّتي زرعها الظّلام فيه!

بعد عهودٍ مُتتابِعة تفاقمَ النّسيان أكثر... ونُسِيَ العهد الّذي أُخِذ في ملكوت السّماء على الطّينيّ... وانطفأتْ ممالك النّور... واعتلى الظّلامُ العرشَ سيّدًا على كلّ المخلوقات، وعُبِدَ من دون الله، وانتشرت الأفاعي الّتي وَلَدَها في كلّ جُحر؛ حتّى إنّكَ لو رفعتَ حَجَرًا لوجدتَ تحته أفعى تُقدّم لكَ العِظات، وتدعوك إلى اتّباعها!! وكان لا بُدّ من ميلادٍ جديدٍ... كان لا بُدّ لطينيّ آخر أن يحمل الرّسالة، ويُخلّص كلّ هذه الحُشودِ المنتشرة انتشارَ السّحاب الكثيف في السّماء الغائمة من ذلك الظّلام المُستكِنّ في أعماقهم!!

بدا العالَم ضائعًا، تائهًا، يتأرجحُ مثلَ عَصفٍ يابس... شريدًا في الطّرقات... حزينًا يكاد يَهلِك من أساه... يتخبّط، ويهذي، ويشتُمُ، ويتصنّع القُوّة، يهدُرُ مثل الرّعد ثمّ يهوي مثلَ حجرٍ من أعلى قمّةٍ جرداء. وكلّما ازدادَ ضَنَكُ العالَمَ وتفاقمتْ مآسيه امتلأ قلبُ الظّلام بالسّرور، وضجّتْ ضَحِكته حتى جلجلَ صداها في أعماق الوديان المهجورة المنتشرة في مجاهل الأرض الثّكلى.

لكنّ المريضَ لا بُدّ له أن يشفَى ولو طال مَرَضُه، **ولكلّ داءٍ دواء**، فما دواء هذا العالَمَ المُتعَب، المُمدّد في الطّين يكادُ يلفظُ آخرَ **أنفاسِه؟!**

والغائبُ لا بُدّ له أن يعودَ ولو طال غِيابه؛ فمتى يعود النّور **الغائب ليهزمَ** الظّلام المتجذّر في كلّ نَسَمة.

والعالَمَ ينتظر؛ ينتظرُ فارسًا، أو ينتظر مُخلّصًا، أو ينتظرُ قائدًا، **أو ينتظر شيئًا**، أو ينتظرُ كُلّ شيء... وكُلُّ الطّينيّين مُجمِعون على أنّهم ينتظرون **قادِمًا ما؛ فمن** تُراه يكون؟!

أتمّ الزّمانُ دورته على الأرض.. نسلَ من الجسد **الطينيّ الأوّل** نورانيّون قبَسوا النّور من الرّسول الأعظم. امتلأ بهذا النّور **قلبُ ثلاثة**

إخوة جاؤوا من رَحِمٍ واحدة، تنازعَهم المُحِبّون فيها بعد، وادّعى كُلُّ فريقٍ حَقَّه في حَبيبِه. المُدّعون بالحُبّ كانوا الأشدَّ حرصًا على قتْلهم؛ لِمَ؟! هل لأنّه من الحُبّ ما قتل!! أمْ لأنّ الظّلام حينَ يَستحوذُ على القلوب والنّفوس يجعل للقُبلة الحرّى أنيابًا، وللّمسةِ الحانيةِ مخالبَ!!!

تمتّعَ الظّلام بصفةٍ لم يتمتّع بها أيُّ طينيّ، ففي حينَ حملَ الطّينيُّ كلّ أنواع الأسلحة ليقهرَ أخاه ويُرغِمه على ما يُريد، ويَبطِشَ به، ويُريقَ دَمَه بداعٍ أو بدونه؛ لم يكنْ يحمل الظّلام من سلاحٍ سِوى الكلمة؛ كان ذكيًّا، قادرًا على الإقناع، ومُحاوِرًا من طِرازٍ فريد، والأغرب من ذلك أنّه لم يكنْ لِيكلَّ أو يملَّ من حِواراته ومُحاولاته، حتّى إنّه تعرّض بهذه الحِوارات العجيبة لأولئك الّذين أيّدهم النّورانيّ الأعظم، وعَصَمَهم من فِتنته؛ فلم يكنْ ذلك ليمنعه من المحاولة معهم؛ كأنّهم أغرار!!

ذاتَ مرّة همسَتْ أفعى من بناتِ الظّلام لأختها الرّاقدة إلى جانبها في انتظار مَهمّتها: «ليتَ الطّينيّين يتعلّمون من أَبينا الأوّل إصراره على تحقيق أهدافه، وعدم اعترافه بالعجز والنّكوص مع أنّه يعرف النّهايةَ مُسبقًا». نهرتْها أختُها قائلةً: «يا حمقاء؛ لو فَعَلوا ذلك لَعادوا إلى عَليائهم»!!

انتظر كُلُّ الهالِكين مُخلِّصَهم الموعود، **كُلُّ طائفةٍ كانتْ تَحلُمُ بمخلّصها بمعزِلٍ عن الأخرى؛ أمّا الإخوة الثّلاثة فانتظروا الحقّ لِيَبدؤوا عملهم. عرفوه وآمَنوا به واتّبعوا النّور الّذي جاء به، وظلّوا على أمانتهم، لا يضرُّهم كيدٌ، ولا يَفُتُّ في عَضُدِهم أذى. فالأكبر حُوربَ كعدوّ، وصُدّ عن سبيله كشيطان، وظلّ مُتمسّكًا بحبل الحقّ حتّى ارتقى. وأمّا الأوسط فلم يُمهِلوه أكثر من ثلاث سنوات ليُسلِموه إلى القَتَلة؛ لكنّه لم يُنهِ العهدَ بأتباعه فبشّرهم بأخيه الأصغر؛ وواعدهم جانبَ النّعيم الأيمن. وأمّا الأصغر فعرفوا أنّه يحمل مِشعلَ أخويه السّابِقَين، فلم يتركوا وسيلةً بمساعدة**

الظّلام لكي يُطفِئوا النّور الّذي جاء به إلاّ وفعلوها. نَجَحوا قليلاً... لكنّه لم يَتخلَّ عن المِشعل الّذي بينَ يديه حتّى ارتقى هو الآخر.

اليوم أنا سأقصّ عليكم حكايةَ أَخَوَيّ وحكايتي؛ حكايتي بالذّات - لأنّها جاءتْ وسطًا بينهما - ستكون مثل العِقد الّذي يَنظِم هذه اللآلئ جَميعَها. اليوم آتيكم لكي أتبعَ الأصغرَ وأُصدِّقَ الأكبر. اليوم جِئتُ لأقولَ لكم إنّني لم أمتْ، بقيتُ حيًّا إلى اليوم، رأيتُ كلّ ما حدثَ من بعدُ ومن قبلُ؛ أمّا ما كان قبلَ ولادتي فمن الحقّ؛ أَعْلَمَنِيهُ بِعلمهِ الأزليّ، وَأَرانِيهُ كما يرى أَحدُكم يدَه تحت ضوء الشّمس في رابعة النّهار. وأنا... أنا الأَصْدقُ فيمنْ سيُخبركم بما حَدَثَ... أعطاني الحقُّ مِيزةً على أَخَوَيّ، هما لن يَرجِعا حتّى تقوم السّاعة... أمّا أنا فأعود... ها أنذا بينَ أيديكم... وسأقصُّ الحكايةَ على مسامعكم؛ الحكايةَ كُلَّها...!!

(١)

هذا الدّمُ دمُ الشّهادة

في الأعالي لا تُوجد بداية ولا نهاية، يبدو الزّمن مثلَ كُرةٍ دُفِعتْ في اتّجاه اللانهاية، لا تعترضُ طريقَها أيّةُ قُوّة، فهي تسبح دون أيّ توقّف. أمّا في الأسفل فإنّ الزّمن هو بداية الألفيّة الرّابعة لِمولِدي!! والمكان هو الأرضُ ذاتُها الّتي أُهبِطَ عليها آدم وقد حافظتْ على شيءٍ من عهدها الأوّل مع كثيرٍ من التّغيّرات اللاّحقة.

أمر الله الملائكةَ أن تسجد أربعين عامًا قبلَ نزولي، وأنْ تُسبّح بحمده وهي ساجدة طَوال هذه الفترة. عددٌ لا أستطيع أن أُحصيَه امتثل لذلك، كنتُ أراهم وقد اصطفّوا مثل أقمارٍ مُتراصّة على هيئةٍ واحدة كأنّما شُكّلوا عليها لطول مُكوثهم. لم يجرؤْ أحدٌ منهم أن يرفعَ رأسه... وكنتُ أسمعُ صوتَ دعائهم واستغفارهم كأنّه أزيزُ النّحْل؛ فيرتجفُ لذلك قلبي.

كانت الأرضُ آنذاك قد فاضت بالشّرّ حتّى لُوّثتْ عن بَكرة أبيها، وكنتُ أعرفُ أنّ ما تبقّى من عمرها قليلٌ، وقليلٌ جِدًّا، وإنْ كنتُ لا أُحصيه تمامًا. وكنتُ أعرف مَهمّتي جيّدًا من أوّل يومٍ رفعتُ فيه إلى بارئنا جميعًا. وكان إخوتي يُشفِقون عليّ مِمّا سيحُلّ بي بعد نزولي، وإنْ كنتُ أثبتَهم جَنانًا وَأرسخَهم إيمانًا، لِمَا أوحى به الله إليّ مِمّا سيحدث؛ وإنْ طلبَ منّي ألاّ أُحدّثَ به أحدًا في الأعالي.

قالوا سيُؤيّدك (جبريل)؛ يريدون أن يُطَمْئِنوني لاعتِقادهم أنّ بعض الخوف يُمكِنُ أنْ يتسرّب إليّ من هولِ ما هو قادمٌ، أبتسمُ في داخلي؛ لم يكنِ

الأمر جديدًا عليّ؛ فأنا أعرف جبريل من آلاف السّنين، لقد كانَ نَفختي الّتي جِئتُ بها بقدَر الله إلى الكون في ذلك الزّمن السّحيق!!

أربعون عامًا في عوالمَ لم ينكشفْ لي ولإخوتي إلاّ قليلٌ منها وهذه الملائكة لا تفترُ من التّسبيح والصّلاةِ عليّ؛ إنّ دأبَهم على الدُّعاء لَأمرٌ يبعثُ على العَجَب؛ أنا موقنٌ تمامًا أنّ عناية الله ستُرافقني في كلّ لحظةٍ، لكنّه أراد أن يُعلّمنا جميعًا: أنّ الدّعاءَ بينَ يديه أقدرُ على تَغيير ما كان وأثبتُ على تَحقيق ما سيكون!!

أخي (موسى) فَرِحَ فرحًا شديدًا أوّلَ ما رُفِعتُ إليه، كان في الطّبقة العالية المُقدّمة عند الله، لم أكنْ لأعرفَ له صورةً من قبل، ولم أفعل. كنتُ أراه بقلبي، وقصّ الله عليّ في الفانيةِ بعضَ قَصَصه لأجدَ في تلك القَصَص عزاءً جرّاء تكذيب بني إسرائيل لي وله من قبلُ. حَبَسَ أنفاسَه طويلاً وهو يستعدّ لاستقبالِي، ثمّ فتح ذراعَيه أوّل ما رآني وقد بدا الإجهاد والتّعبُ على ملامحي، احتضنني طويلاً، وأرخى رأسَه الحَنون على صدري، شَدَّ على شفتَيه وكادَ يبكي متأثّرًا بقدومي ونَجاتي. كان قد عَلِمَ بما عزم عليه العَشّارون والفريسيّون فظلّ يدعو الله أن يُخلّصني من مكائدهم الّتي خَبِرَها قبلي حتّى استجاب الله دُعاءَه. بدا لي وجهُه رغم سُمرته يفيضُ حيويّةً تَشوبُه حُمرةٌ لا أدري فيما إنْ كانَ مصدرُها انعكاسَ الدّمع في مقلتيه وهو يُجاهِدُ في إخفائه لحظةَ رآني أم لا؛ هو الآخر نجا من مكائدَ كثيرةٍ سابقة... دعونِيْ أخبِرْكم بأنّنا جميعًا نحن الإخوة قد تعرّضْنا لهذه المكائد مِرارًا وتكرارًا.

وَفَدَ عليّ يومَ النّجاةِ كثيرون من إخوتي، أوّلهم كان ابنَ خالتي (يحيى) كان لا يزال بعضُ الدّم يقطرُ من رأسه، بكيتُ حينَ وقعتْ عيناي عليه، هدّأَ من رَوْعي وقال لي: لا تبكِ عينُكَ، هذا الدّمُ دمُ الشّهادة ما ظلّ

طريًّا إلى الآن إلاّ ليكون دليلاً على رفعة المنزلة. ثمّ راح يمسح بعضه ويقرّبه من أنفي ويقول: أفرأيتَ أزكى من رائحة الخلود يا أخي... نحنُ عشنا من أجل هذه اللّحظة؟! انحدرت الدّمعات من عينَيّ مرّة أخرى بعد أن شممتُ الرّائحة الطّيّبة، اقتربتُ منه أكثر وأرحتُ رأسي على كتفه فسقطَ ما تناثر من الدّمع على جسده الطّاهر، ارتجفَ صدري مرّة واحِدةً؛ علا قليلاً ثمّ قبل أن يهبطَ من علوّه؛ ربّتَ على ظهري مُواسِيًا: هنا لا وَصَبَ يا أخي ولا نَصَب؛ لقد انتهَى العذابُ يا حبيبي، أتذكر يومَ النّهر، كان اليومَ الّذي جَرّ عليّ من بعده الويلات؟! ولكنْ ما قيمة ذلك الموتِ الّذي أذاقونيه بجانبِ هذا النّعيم العميم؟! انظرْ يا أخي: إنّ ساعةً واحِدةً في الخلود سوفَ تُنسيكَ قرونًا من العذاب الدّنيويّ البائد؛ أفنسيتَ؛ وأنتَ أبلغْتنا موعظةً حين كنتَ تقول: «لأَنْ تُفني نفسكَ طمعًا في ما عند الله خيرٌ لكَ من أن تُحييها في حلاوة الدُّنيا ولو عشتَ مُخلَّدًا...». تراجع خُطوةً إلى الوراء ثُمّ أخلى مكانه لآخرين استطالوا وقوفه بينَ يديّ، وأشاروا إليه أن يبتعدَ ليتقدّموا هم... بعضُهم بسطَ لي رداءَه، وبعضُهم قدّم لي الماء؛ ماءً لا كالماء، وبعضُهم ألبسني جُبّته، وعشراتٌ من إخوتي الّذين عاشوا معي في الأولى ولاقَوا فيها من الأذى ما لاقَوا اصطفُّوا في أدبٍ بالغٍ وراح كلُّ واحدٍ يطبع قبلةً عميقةً على جبيني ويُخلي مكانه لِمَن خلفه. عددٌ سَديميّ لا يظهر إلاّ حواشيه من الملائكة وقفوا يَحُفّون بنا وقد أشاعوا جَوًّا من الطمأنينة والحُبور... فريقٌ من الإخوة الآباء جلسوا في حلقةٍ خاشِعين وراحوا يستطلعون ما حَدَث... طلبتُ منهم أن ينتظروا قليلاً حتّى يكتمل عِقدُنا جميعًا فأُخبرهم مرّة واحدة. كم أسعدني هذا الاحتفاءُ الملائكيّ الأخويّ المَهيب... تعالَتْ هَمَساتُ الإخوة وهم يُحاوِلون أن يعرفوا أنباء الغيب فيما دار هناك، وفيما سيدور... أخي إدريس كان في الطّبقة الرّابعة، حينَ سمع هَمَساتِهم رجاني أن أنتظر بضع سُويعات لأنّ أخانا الأصغر ما زال في

الطّريق، ولَحَاقُه بنا عمّا قريب، ولأنّ الجلوسَ معه سيكتسب بُعدًا آخر من الجَمال والفَرح. فاستجبتُ لطلبه.

كنتُ لا أزال أتعرّف حكايا بعض الإخوة الّذين لم تصلْني أخبارهم وأنا في الفانِية، حينَذاك انشقّ المكان عن نورٍ يحيطُ به، لقد صدقوا؛ جاءَ أصغرنا وأثيرُنا عند ربّنا... وبه اكتمل العِقد وخُتِمَت الجلسة. حَقًّا إنّها ليستْ أكثر من سُويعات تلك الّتي فصلتْ بين زمنَينا حتّى إنّني لم أتمكّن من إنهاء تَجوالي بين الآخرين والتّعرّف إليهم!!

المسافة بين السّماوات والأرض تبدو هائلة يعجز العقل البشريّ عن تخيّلها، وهي لا تُقطَع خلال أعمار البشر ولو جُمِعتْ أعمارُهم جميعًا، لكنّ هذه المسافة تبدو عند الله لا تزيد عن كلمةٍ واحدة!!

ما بين نَجاتي وهبوطي عهودٌ غائرة، وأزمنةٌ عَصِيبة، ودهورٌ خَلَفَ بعضُها بعضًا في حياةِ أممٍ كثيرةٍ عاشتْ ثمّ ماتت، ودولٍ عديدةٍ سادتْ ثمّ بادتْ، وممالك مُتطاوِلة ارتقتْ ثمّ انهارتْ، وحضاراتٍ عاليةٍ نشأتْ ثمّ هَلَكتْ... وهذا الزّمن ما بين العيش والموت، والسّيادة والإبادة، والارتقاء والانهيار، والنّشوء والهلاك الّذي يبدو طويلاً عندَ الآدميّين هو عند الله ليسَ أطول من لَمحِ البصر، وليسَ أبعدَ مِنْ رَدِّ الطّرْفِ!!

بعد النّجاةِ أُجلِستِ في رَبَضاتِ العَرش، وأراني الله من هناك كلّ ما فعل أتباعي من بعدي، لقد غيّروا وبدّلوا كثيرًا، إنّهم إنْ كانوا في حياتي لم يستجيبوا لي تمام الاستِجابة؛ فهل سيفعلون ذلك في وفاتي؟!! وأنا شهيدٌ عليهم في الدّنيا حينَ كنتُ بينهم، وشهيدٌ عليهم حين سأعود إليهم، وشهيدٌ عليهم يومَ ألتقي مَنْ رآني ومَنْ لم يَرَني في الآخرة...

أأقول إنّ آلاف السّنين هي الّتي تفصل بين الزَّمنَين؟! قد تكون، ولكنّ هذه الآلاف آلافٌ عندَ مَنْ؟! وفي أعمار مَنْ؟! وفي عُرْفِ أيّ المخلوقات؟! حَلُّ مُعضِلة الزّمن ما بين الغياب والعودة سيبدو لكم أبسط مِمّا تظنّون؛ في الحقيقة هو ذات المسافة بين حرفٍ وآخر في (كُنْ)، وهو ذات المسافة بين الوجود والعدم في الدُّنيا، وهو كذلك المسافة ذاتها بين صعودي وهبوطي!!

هبطتُ بعد أربعين عامًا من سجودِ الملائكة تمهيدًا لحادثة العودة في ذلك المشهد الجَليل. رافقَني في الرّحلة جبريل، وعددٌ آخر من الطّوّافين يصعبُ عليّ أن أُسمّيهم لكثرتهم وإنْ كنتُ أعرفهم واحِدًا واحِدًا لطولِ عهدي بهم. بدوتُ بين هذا الوفد السّماويّ مَلاكًا آخر ينضمّ إلى هذا الرّتل المُتقاطِر، ولم يكنْ من فرقٍ بيننا إلاّ في ذلك الّذي لو كانوا يملكونه مثلي لَمَا أهبطني الله وَلَدَعَا واحِدًا منهم أن يفعل ما وُكِّلتُ بِفِعلهِ بدلاً منّي؛ دلّ ذلك على عَظَمة الصّانع، وعلى تكريمه لنا نحن الطينيّين منذ ذلك الصّراع الّذي ما زال قائمًا في الأرض، ولم يكنْ نزولي لحاجةٍ أكثرَ من أُنهيه، وأعيدَ إلى البشريّ روحه الّتي سُلِبتْ منه، وقلبه الّذي اختُطِف، ونفسه الّتي دُنِّسَتْ.

همس جبريلُ في أُذني حينَ رأى استئثاري بهذه المَهمّة ‏[مهمّة الإصلاح] دونه: «تشابهتِ القلوب واختلفت القُدُرات»، شعرتُ أنّه يَغبِطنا نحن البشرَ على ما وهبنا الله من القدرة على الاختِيار، فرددتُ همستَه بمثلها: «اتّفقتِ الغايات وتنوّعت الأساليب، ونحن في الهمّ سواء». ابتسم، ولم يردّ..

واصلْنا نزولنا؛ بِمَ؟! تودّون أن تعرفوا؟! ما أسهلَ ذلك!! وما أيسر أن أُخبِركم!! أعني أنتم بشرَ اليوم. كان يُمكن ألاّ يُصدّق ما سأقول بشر الألفيّة الأولى أو الثّانية أو الثّالثة، أمّا بشر الألفيّة الرّابعة فسيعرفون لأنّهم سيرونني، وسيرونَ ما أفعل.

كنتُ أتّكِئُ على جناحَي ملكَين عن يميني وشِمالي، إذا خَفضتُ رأسي لأرى الكوكبَ الهاوينَ إليه تساقطَ الماء من فوقِ رأسي قَطَراتٍ من النّدى، وإذا رفعتُه تحدّر ذلك الماء شفيفًا كالجُمان. كان الملكان يترفّقان بي كأنّني ابنهما البارّ، ويَحدِبان عليّ حَدْبَ الأمّ على وحيدها، ويُشفِقان من أنْ يمسّني أيُّ سُوء. لم يكنْ من المَعقول في المفهوم البشريّ أنْ أقطعَ كلّ تلك المسافات من وراء بلايين المجرّات والكواكب في زمنٍ محدودٍ كالّذي قَطَعْناه، واللهُ لم يُقرّبْ لنا الأرضُ حيثُ تتيه فوقَها المجاميع البشريّة في سَعيها نحو الفناء، بل كُلُّ ما فَعَلَهُ هو أنْ غيّرَ معادلة الزّمن، فلم يعد زمنًا من ذلك الّذي يحكمُ به البشريّون الضّارِبون في الأرض تَعامُلهم. نعم كان الزّمن بيد خالقه، وكان يستطيع أن يقبضه فيقصُر، أو يَبسطه فيطول؛ ومَنْ غيره قادرٌ على ذلك!!

نزلتُ في الأردنّ عند النّهر؛ أعرف المكان جيّدًا، لقد طُفتُه في شبابي في وجودي الأوّل، وَتَنَقَّلْتُ بين سُهوله وجِباله، ويدي تلَمّستْ زهوره وخمائله، وتعمّدْتُ فيهِ أوّلَ النُّبُوّة، وأويتُ إليه ضارِعًا إلى الله قبلَ صُعودي. وسأعرّج على المكان الذي ولدتْني فيه أمي، قبل أن أتابع السّير إلى المسجد الأقصى.

النّهرُ أحبُّ البِقاعِ إليّ، وهو كذلك لابن خالتي يحيى، ولي معه ومعه ذكرياتٌ لا تُنسَى، حتّى إنّني في العالية كنتُ أستخبر الله عن أحواله، وأعرفُ أنّ هذا النّهر الّذي استعصَى على الجَفاف والنّسيان سيشهد الملحمة القادمة، وسأخبركم خبرَه وخبَرَها في حينه.

قلتُ في نفسي وأنا أهمُّ بدخول المسجد الأقصى: «ما أشبهَ اللّيلةَ بالبارحة؛ الكَذَبة كانوا يَملؤونه بالأمس، وها هم اليوم يعيثون فيه كذلك فسادًا». تسلّلتُ كغمامةٍ شفيفةٍ إلى باحاته، كنتُ مأخوذًا بسحره الطّاغي،

ظلّ مُحافِظًا على روحه الملائكيّة مُذ بنائه، ولم يغيّرْ تَدنيسُ الضّالّين من طهارته شيئًا. أحسستُ أنّ كلّ حجرٍ مرصوفٍ في الطّرقات المُؤدّية إليه يبتسمُ في وجهي ويَبدؤني بالتّحيّة: السّلامُ عليكَ يا رَسولَ الله... السّلامُ عليكَ يا رَسُول الله... تبسّم جبريل وهو يسمعهم يُدثّرونني بالتّحايا على لغةٍ لم يكنْ ليفهمها أحدٌ سوانا. طَرِبَ الشّجر، وغنّى الطّير، ولانَ الحجر، وأزهرتِ الجُذوعُ اليابسة، ومالتْ من الشّوق الصّخور...

مضيتُ في طريقي قاصِدًا الموضع الّذي ابتدأت الملائكةُ بناءَه، كان جبريل لا يزال يمشي إلى جِواري، استَبقيتُه لأعرفَ مكان أوّل حجرٍ رُكِزَ في السّاحةِ بيده، حينَ أعلمني بمكانه عادَ إلى السّماء من حيثُ أتى وتَبِعه من خلفه الطّوّافون، وقال لي وهو يصعد كلمته الأخيرة: «إذا كان الله معك فَمَنْ يَكون عليك؟! وإنّها أمانةٌ ولا تُؤدّى إلاّ بحبلٍ منه». جلستُ على الحجر، فأعادَ اللهُ إليّ وُجودي، تمثّلتُ للرّائحين والغادينَ هُناكَ بشرًا سَوِيًّا بعدَ أنْ كنتُ قبلَ قليلٍ كالملائكة لا أُرى... ناديتُ في النّاس بكلمة الله، فالتفّوا حولي، جاؤوا من كلّ زاوية، ونَهَضوا إليّ من كلّ ناحية، واجتمع لديَّ عشراتٌ من الأطهار الّذين سأبدأ معهم الحكايةَ كاملة. كان أوَّل العارفين بحقيقتي أشدَّ النّاس إيمانًا بي؛ رجلٌ وهبَ نفسه لخدمة المسجد كما فعلتْ أمّي من قبلُ؛ حينَ وقعتْ عيناهُ عليَّ ملأَ البِشْرُ وجهَه، وتقلّصتْ عضلاتُ وجهه لبرهة ثمّ ما لبثَ أنِ انفرجتْ أساريره من جديدٍ... شهقَ شهقةً عالية وهو مُتسمِّرٌ في مكانه قبلَ أن تنحلّ عُقدةُ رِجلَيه، ثمّ ركض باتّجاهي وأنا جالسٌ على الصّخرة حتّى إذا صار قريبًا جدًّا منّي هوى على قدَمَيّ فقبّلهما ومَسَّحَ خدَّيه بهما، وهو يهتف: «إذًا ها أنتَ يا حبيبَ الله... ها أنتَ... ها هي صُورتُكَ المنطبعةُ في قلبي منذُ عشرينَ عامًا». حتّى إذا هَمّ بالبُكاء لفرطِ فرحته أنهضتُه للحال، وقلتُ له: لا عليكَ يا (ذَكْوان). عقدتِ الدّهشةُ لسانه وجحظتْ عيناه حينَ

ناديتُه باسمه، لاذ بالصمتِ عاجِزًا، فأردفتُ: أنا أعرفُ أسماءَ حَوارِيَّ الجُدُد جميعَهم، أُخبِرْتُهم في الأعالي، ستكونُ أوَّلَهم في الثّانية. هبطَ من جديدٍ على قدميّ فقبّلهما، ثمّ نهض وعيناه تتأرجح فيهما دمعتانِ فَرِحتان، ثمّ جلسَ قُبالتي، وكان أوعى السّامعين... ثمّ تقاطر أحدَ عشرَ كوكبًا إلى جانب ذَكْوان، جاءَ الأوّل فوقفَ بُرهةً؛ أرسلَ إليَّ نَظرَةٍ حانيةً عميقةً وجلسَ، جاءَ الثّاني والثّالث إلى الحادي عشر فَعلوا مثلَ الأوّل، ملؤوني بالمحبّة. جَلَسُوا على الحجارة في حلقةٍ مفتوحةٍ في مقدّمة المُحتشِدين، عرفتُهم وعرفوني، كانتْ وجوهُهم طافِحةً بالنّور، لم تُفارقْهم بالبسمةِ وهم يُرسلون نَظَراتِهم الواهِجَة إليّ دون أنْ يَفُوهوا بكلمةٍ واحدة، بدا أنّ الأرواح تتلاقى من جديدٍ وتتآلف؛ أتريدون أن تعرفوهم!! هم: عُبادة، وشَدّاد، وثابِت، وسُوَيد، وبَكّاء، وحَكِيم، وبِشْر، وقُرّة، وقادِش، ومَعبَد، وهِلال... حتّى إذا استوفَى المكانُ قاصِديه، ولم يعُدْ من راغبٍ في المجيء إلاّ وجاء، جلس الحاضِرون كأنّ على رؤوسهم الطّير، ثمّ راحوا يفتحون قلوبهم لِما أقول؛ آنذاك بدأتُ الحكاية... أنا عيسى بنُ مريم!!

(٢)

غريزة البَقاء

وقفَ على الشُّرفة ينظر إلى المسجد من قصره العالي، رأى هناك في السّاحة أعدادًا كبيرةً من اليهود يذرعونها جيئةً وذهابًا، انتحى بعضُهم جانِبًا وفتحَ بينَ يديه لُفافاتٍ وراح يقرأ منها وهو يهزّ جذعه في حركةٍ بندوليّة سريعة، ندّتْ من (هيرودس) ضحكةٌ عالية، وهتفَ بصوتٍ سمعه الحُرّاس الواقِفون في الرّواق وعلى حدود الشّرفات: «مجانين، هؤلاء اليهود مجانين... إذا كان إلهُهم موجودًا في تلك الشّقوق فلماذا يرقصون أمامه بهذا الشّكل الهستيريّ!!!»... خفتَتْ ضحكته قليلاً، وعبَّ من الكأسِ الّتي في يديه، ثمّ شدّ على طرفِ أسنانه، وهمس بينه وبين نفسه: «ما الورطة الّتي أوقعتْني فيها الإمبراطوريّة الرّومانيّة؛ أنا أحكم مجموعة من المجانين والحمقى». سكتَ قليلاً قبل أن يُتابع: «وَلْيَكُنْ؛ أنْ تحكم مجانين ومُغفّلين خيرٌ لكَ من أن تحكم المُتنوّرين؛ فإنّ الآخرين سرعان ما يسألونك سؤالاً وَقِحًا: مَنْ نَصَّبَكَ علينا مَلِكًا؟! ويُتبِعونه بسؤالٍ أشدَّ وقاحةً: مِنْ أينَ لك هذا؟!». أخذ نَفَسًا عميقًا قبل أن يُعيدَ السّؤال الأخير على نفسه: مِنْ أينَ لك هذا؟! ويُجيب عنه بصوتٍ غاضبٍ مُجلجِل، رافِعًا يديه والكأس في يُمناه إلى الأعلى: مِنْ أينَ لي هذا يا سَفَلَة!! أنا صنعتُه بنفسي، أنا أقمتُه بسيفي، أنا وطّدْتُه بحِكْمتي، ليس من فضل لا لقيصر ولا للآلهة في ملكي المُمتدّ هذا، أنا بَنَيْتُه بإيماني؛ إيماني بأنّه إذا بطَشْتَ فابطِشْ بأقرب النّاسِ إليك، فما الفضلُ في أن تقتل الأفاعي الّتي تعيشُ في الحقول البعيدة، وبعضُها ينامُ في سريرك ويتسرّب إلى سروالك؟! ثمّ صرخَ صرخةً عظيمةً فَزِعَ لها حَرَسُه، ورمى الكأسَ على جدار الشّرفةِ الممتدّ، فانكسرتْ، وسال نبيذُها الأحمر

على الجدار، ضَحِكَ وهو يُتابِعُ تقاطر النّبيذ سائِحًا: بمثل هذا الدّم تقوم الممالك، ليسَ مِنْ مَلِكٍ حقيقيّ ذلك الّذي يجعل في قلبه مكانًا ولو ضئيلاً للرّحمة!! سأستعدي الكلابَ على الثّعالب فأتخلّص منها، والذّئابَ على الشّياه فأقضي عليها، و... ولن أموتَ... نعم لن أموت؛ فأبنائي سيرثون مملكتي، وسأعيشُ إلى الأبد، في آيةٍ صنعتُها أنا بجبروتي، وفي كلمةٍ سطّرتُها أنا بِعَظَمتي!!

وضع كلتا يديه على حافّة الشّرفة، تنهّد طويلاً، ثمّ أرسلَ بَصَره في الجموع البعيدة المُتزاحِمة عند الجدار، هتف وهو يهزّ كَتِفَيه ساخرًا: «لهؤلاء الحمقى ميزةٌ غير موجودةٍ في سواهم تجعلني أحتمل حماقتهم؛ إنّهم كَنْزُ مملكتي؛ لولا الضّرائب الّتي يدفعونها من الأموال الّتي يجمعها كهنتهم باسم الدّين لتعرّضتِ المملكة لزعزعةِ أهمّ شروطِ قِيامها: القِطَع الذّهبيّة!!».

رفع رأسه إلى أعلى، عبّ هواءً عميقًا، خفضَ رأسه ثانِيةً، ثمّ أدار ظهره بحركةٍ عنيفةٍ للمسجد الّذي ظلّ مُحافِظًا على هيئته، وهيئة الغادين فيه، ودخل قصره يجرّ رداءه خلفه وهو يُزبِد بكلماتٍ غير مفهومة.

كانت الإمبراطوريّة الرّومانيّة يومَها تُحكِمُ نفوذَها على أجزاءٍ واسعة من العالَم، بلادٌ لا يعرفُ إلاّ الله مُنتهاها، بسطَ عليها النّسرُ الرّومانيُّ أجنحتَه، ورفعَ فوقَ ترابِها رايتَه، وحَكَمها بقوّة رادِعةٍ لا تعرف الهَوادة.

قال هيرودس: أفضلُ شيءٍ لتُسيطرَ على شعبٍ يتمسّك بخُرافة الدّين، أن تبنيَ له معابدَ لإلهه، ولا تحشُرْ أنفكَ فيما يفعل؛ ولِمَ سأحشر أنفي فيما يَعبدون، إذا كانت روما تعبد أكثر من خمسينَ إلهًا؟!! دَعْهم يسجدوا لربّهم الّذي يخُصُّهم وليَدَعُوكَ أنتَ وشأنَكَ في الحُكم والنّفوذ، إذا كانوا يعطُونكَ الولاءَ كلّه في مُلكِك؛ فَلِمَ لا تبني لمعابدهم قِبابًا من ذهب!! لقد

عبدتْ هذه الطّائفةُ العجلَ الذّهبيَّ من قبلُ، وأورثوه مالَهم، وحُليَّ نِسائِهم؛ فَلِمَ لا أفعل ذلك لهم؟! بالطّبع ليس من مالي ولا مال مَملكتي؛ إنّ كَهَنَتَهُم أقدر على استِلال المال من جيوب رعاياهم بِقُوىً سحريّة خفيّة؛ سأرضيهم من أنفسهم، وسأبني لهم من حجارتهم، وسأجعلهم يعملون بالسُّخرة لديّ ثمّ لا يملكون إلا أنْ يشكروني؛ لأنّني أوقفتُ لهم إلههم على بابِ معابِدهم، ولم أقتربْ من ناره الّتي تُصيبُ بالاحتراق كلّ من يُفكّر فيه بسوء!!

هذا الشّاب النّاشِئ فيهم (قَيَافا) الأوّل قادِرٌ على أنْ يسلبَ عقولهم بمجرّد كلمةٍ أو نظرة؛ سأتّخذ منه صديقًا؛، لكنْ على حَذَر، لأنّه كما يقولون هم عن أنفسهم: إنّهم أبناء الأفاعي، فما بالك بهذه الأفعى الكبيرة الّتي تأمُر فَتُطاع، وتدعو فيُستَجابُ لها، وتقضي فلا يُعقّب لحكمها أحدٌ!! نعم، يُمكنك أن تطمئنّ لجِلدِ الأفعى اللّيّن؛ لكنِ ابقَ مُتذكّرًا أنّ نابَها يقطُرُ سُمًّا!

ولمّا بنى هيرودس لنفسه القُصُورَ الشّامخة، والدّور العاليّة، وفعل قريبًا من ذلك لأبناء جِلدته، كانَ شعبُ إسرائيل يومَها يسكُنُ في البيوتِ الطّينيّة، والدّور القديمة، والزّواريب الضّيّقة المنتشرةِ حول (أورشليم)، وكان هذا الشّعبُ البائس يروح ويجيء في أعماله شاعِرًا بالرّضى رغم ضيق العيش، وقلّة ذات اليد، وتحكُّم الكهنةِ والرّومان فيهم، إلاّ أنّ ما تقوله التّوارة لهم تجعلهم يصبرون ولو سِيمُوا أشدّ أنواع العذاب والأذى؛ كانت التّوراة تقول إنَّ (مَسِيًّا) ينتظره العالَمُ بأجمعه قد اقترب زَمانُه، وإنّه حينَ يأتي سيُخلّص كلّ هذه الشّعوب المسكينة مِمّا تعاني على الأصعدة كلّها، وكانت النّجاة فيما يراه أكثرهم، بالهروب الرّوحيّ؛ الهروب إلى المعبد، وإقامة الصّلوات في انتظار المُخلِّص. فكُنتَ ترى المسجد يمتلئ خصوصًا في أيام الأعياد عن بكرةِ أبيه بالتّائقين إلى الخلاص... بالمُتشوّفين إلى النّور، والمُتطلّعين إلى الفرج من الكُربِ الشّديدة الّتي تنغرز في الأفئدة.

ومـا بـين القـصر الّـذي يربـض عـلى الجبـل في مواجهـة المسـجد أو المعبد كانـت تهبطُ بعـضُ الوديـان الّتـي تهـوي فيهـا النّفس البشريّـة إلى أحـطّ مراتبهـا مـن الظّلـم والطّغيـان.

كان شـعبُ هـيرودس تحرّكـه غريـزة البقـاء انطِلاقًـا مـن أمـرٍ ملكـيّ، وكان شـعبُ إسرائيـل تُحرّكـه غريـزةُ البقـاء انطِلاقًـا مـن أمـرٍ كهنـوتيّ، ومـا بـين الملكيّـة والكهنوتيّـة كانـتْ شُـعوبُ تُبـاد، وأعـراضٌ تُنتَهـك، ومُـدُنٌ تُدمَّـر، وأرواحٌ تُزهَـق، و... وألسـنة تَلهَـج إلى الـرّبّ العـالي ترقّبًـا ليـوم الخَـلاص الكبـير... وظلّـوا ينتظـرون!!

أُولِـعَ هـيرودس مثلـه مثـل أيّ ملـك بتوسـيع مملكتـه، وكانـتْ ذاكرتـه عـن رومـا وأبنيتهـا الأسـطوريّة قـد حرّكـتِ الخيـال لديـه، فبثّ جنـوده وفرسـانه ليجمعـوا الضّرائـب مـن النّـاس، لأنّ مدنًـا كثـيرة رسـمها في خيالهـا، ثـمّ عـلى الـورق، تنتظـر أن تُرسَـمَ عـلى الواقـع، وهـو لا يعـرف الانتِظـار، وليـس مُسـتعدًّا لفضيلـة الصّـبر.

في السّـنة السّادسـة مـن حُكمـه بعـثَ هـيرودس الأكـبر إلى (أوغسـطس) العظيـم في رومـا رسـالةً يُخبره فيهـا أنـه يَنـوي بِنـاءَ مُدُنٍ في فلسـطين تشـهد بعظمـة الإمبراطوريّـة الرّومانيّـة، وتكـون دليـلاً عـلى تفوّقهـا العالمَـي. قـال فيهـا: إنّ المُدن روحُ الإنسـان؛ فـإذا بَلِيَ جَسَـدُهُ بقيـتْ هـذه الـرّوح شـاهدةً على خلـوده». وصلتْه الرّسـالة وهـو يُقاتِـلُ حلفـاءه الّذيـن أسّـس معهـم الإمبراطوريّـة الرّومانيّـة، كان الكـرسيُّ آنـذاك شـاهِدًا أكـثر مـن أيّ عـصرٍ مَـضى أنّـه أثمـنُ مـن أرواحِ البـشر مُجتمعـين، وكان ثمـنُ الجلـوسِ عليـه أن تتطايـرَ أعنـاق مئـاتِ الألـوف مـن الّذيـن يحملـون السّـيوف ولا يـدرون لِمَ يحملونهـا، ولا مـع مَـنْ يُقاتِلـون ولا ضِـدَّ مَـنْ يَقِفـون!!

اجتمع الثّلاثة (أغسطس) و (أنطونيوس) و (ليبيديوس) في البداية على هدفٍ مُشتَرك كان أغسطس قد أحكم صياغته، قال لحليفَيه: لن يذهبَ دمُ (يوليوس) قيصر هباءً، لقد اغتيل من أجلنا نحن الّذين بقينا ثكالى مِنْ بعده، ولئنْ لم نتّحدْ لَنُرفَعنّ على الرّماح مثل فزّاعاتٍ جوفاء، أو لَتَجُرّنّا الخيول مثلَ أكياسٍ من العلف، ولا نصرَ لواحدٍ دونَ آخر، وإنّه إنْ بقينا نتفاخر بأمجاد روما دون أن نعمل من أجلها لتسقطنّ روما تحتَ أقدامنا ونحن ننظر إليه مَرجوفين!!

قال له منْ ظنّ نفسه أكثر ذكاء (ليبيديوس):

- وماذا ترى؟!
- نضمّ جيوشَنا كلّها جيشًا واحِدًا، ونقفُ صفًّا متراصًّا ونثأر ليوليوس من قَتَلَتِه.
- وإنِ انتصرنا؟!
- اِقْسم الإمبراطوريّةَ بينَكَ وبينَ أنطونيوس، أنا لا مطمع لي في الملك، هدفي استعادة دستور الجمهوريّة العظيم، وأن أرى قتلةَ خالي (يوليوس) يُبادون كالدّوابّ السّائمة.
- هل تظنّني سأصدّق ما قُلتَه لمجرّد أنّكَ قُلتَه؟!
- بالطّبع لا، أنا أحثّك على تعاليم (يوليوس) أستاذِنا معًا: «لا تُصدّق ما قاله لك شُيُوخُك بل صَدِّقْ قلبَك، ولا تُصدّقْ كلّ ما جاءَ به قلبُك، بل أبقِ شيئًا لعقلِك».
- وهل قلتَ ما قلتَ لي بلسان قلبك أم عقلك؟!
- لستُ في موضع اختبار، روما مُهدّدة بالحريق، وتعرفُ أنّني نشأتُ في مدرسة العظيم (يوليوس)، فلا أنطِقُ إلاّ بما شَهِدتُ وتعلّمت.

تدخلّ (أنطونيوس)، ليقول:

- الحقيقةُ أنّ التّلميذ كثيرًا ما يخونُ أستاذه.

صرخ (أغسطس) غاضِبًا:

- أتتّهمني يا أنطونيوس.
- كلاّ؛ التّاريخ يفعل.

وفيما كان الطّمع يتحرّك في قلب (ليبيديوس) كانَ الخوف من الخيانة يملأ قلبَ (أنطونيوس)، لكنّ الخوف مهما عَظُم فإنّه لا يصمدُ أمام الطّمع طويلاً، أفتصمدُ كومةٌ من الشّوك في الطّريق المَشاع أمام عصف الرّياح!!

(٣)

ميثاق الشّرف والدّم

صعد (يوليوس) كرسيّ الجُمهوريّة بأسلوبٍ أفلاطونيّ؛ تربّى فارِسًا، وتعلّم في اليونان علمَ النّفسِ والفلسفةِ والمنطق، وحملَ أخلاق النُّبلاء، وجرى في عروقه دمُ الكِبرياء. وحافظَ – بذكائه المُفرِط – على علاقةٍ طيّبة حتّى مع أعدائه؛ كانتْ سياستُه مع هؤلاء الأعداء الّذين يُحيطون به من كلّ جانب: بدلاً مِنْ أن تُطفِئَ النّارَ بالماء حاوِلْ ألاّ تُلقِي في جَوْفها الحطب؛ إنّ نزع الأسباب المؤدّية إلى المُشكلة خيرٌ من معالجتها، وللعداوة والشّرّ معًا جذورٌ لا يُمكن استِئصالها تمامًا؛ لأنّها ضاربةٌ في أعماق النّفس البشريّة إلى الحدّ الّذي يصعب معه الوصول إليها لاقتِلاعها، اِسْقِها بماء الوُدّ؛ لأنّها إنْ لم تَنتهِ فلن تطرحَ ثمرًا جديدًا!!

أنفقَ (يوليوس) ما استطاع من المال على رفاهية شعبه، حتّى إنّه وقع في الدّيون من أجل ذلك، وكان لطريقةِ تعلّمه الدّافع الأوّل لهذه المُعامَلة، فأظهرَ أحسنَ ما فيه وفيهم، فرصفَ لهم الطُّرُقات، وبنى لهم المعاهد، واعتنى بالثّقافة حتّى جعل لكلّ رومانيّ كِتابًا، وقرّب المسافة بينه وبينهم، وردمَ الهُوّة بينه وبين أعدائه اتّقاءَ شَرّهم ولِيُجنّب جمهوريّته الحروب، وظهر أثر ذلك على شعبِ روما فأحبّه، وهم الّذين كانوا من قبلُ يرون فيه رَجُلَ روما القادم!!

كان ميثاق الشّرف الّذي أخذه على نفسه يساوي ميثاق الدّم، ولأجله كان من السّهل عليه أن يبذل روحَه في سبيل ألاّ يُنقَض هذا الميثاق؛ شرف الخصومة، شرف الأمانة، شرفُ الصّداقة، وشرفُ الوفاء إلى أبعد الحدود.

ولكنّ حياةَ الملوك تسير في اتّجاه مُعاكِسٍ لحياةِ الوَداعة والرّحمة الّتي تهفو إليها الفِطرةُ الإنسانيّةُ غالِبًا؛ والشّعوب إمّا أن تُقادَ بالسّيف أو لا تُقاد؛ وإمّا أنْ تَرَعَاها بالسّلطان وإلاّ فإنّ الفوضى ستعمّ كلّ شيء، وفي حينَ يبدأ الحاكم ولايته مَلاكًا ينتهي به الأمر إلى أن يُصبِحَ شيطانًا دون أن يدري لماذا!! حتّى هو تذهبُ محاولاته سُدًى في فهم التّحوّل الّذي طرأ عليه إلى الحدّ الّذي اغتربَ فيه عن نفسه؛ لكنّه في أعماقِ أعماقه يُدرك: أنّ الجلوسَ على الكرسيّ له تَبِعاتٌ مُرعِبة عليه أن يرضخَ لها وإلاّ فإنّ الهاوية ستبتلعُه وستبتلعُ كرسيّه معه!!

أنْ تخوضَ حربًا يعني أن تتخلّى عن الإنسان الّذي فيك لصالح الشّيطان الّذي ينمو بينَ جنبَيك؛ وسيسمح لكَ الشّيطانُ أن تكسبَ المعركة مرّتين وثلاثًا من أجل أن يجرّك إلى الجحيم الّذي يُعِدّه لك، وما دام النّصر يقودُ إلى نصرٍ فَلِمَ لا يخوضُ الموقعة القادِمة، وما دامتِ الأهداف جاهزةً سلفًا، والشّيطان استطاع أن يصوغها أفضلَ منكَ فَلِمَ لا تُصرّح بها أمام مجلس الشّعب: حمايةُ الأمّة، والحِفاظُ على الحدود، ورفاهية الرّعايا، وزيادة المُكتَسبات، وإطلاق النّسر الرّوماني ليحطّ على كلّ أرضٍ يُمكنُ أنْ يصلَ إليها... ومجلس الشّعب بالطّبع جاهِزٌ لإعطائكَ الشّرعيّةَ في مُغامَرَاتِكَ القادمة؛ فأنتَ كنتَ في نَظَرِهِ - ولا تزال القائد المُلهَم الّذي سيوطّد ركائز الأمن والأمان، وعارٌ على مجلسٍ ألاّ يصطفّ بكلّ ما يملك إلى جانبِ سيّده!!

عادَ (يوليوس) من انتصاراته المُتتالية إلى روما في منتصف العَقد الخامس قبل الميلاد؛ ليكون حاكِمَها المُطلَق؛ صارَ له وجهٌ آخر؛ لم يعد بالإمكان الاحتِفاظ بالوجوه طويلاً؛ إذا كان الزّمنُ يتغيّر، والنّفوس تتحوّل، والقلوب تتبدّل؛ فَلِمَ يبقَى هو على حاله!! وكانتْ روما آنذاك وبقيتْ

لألـف سنةٍ مِنْ قبلُ ومـن بعـدُ لا تعـترف إلاّ بالحاكـم المُطلَـق الّـذي لا يقلّ في مَرْتبتـه عـن إلـه!!

للملـوك زوجـاتٌ لا تعرفهـنّ إلاّ الجُـدُر الّتـي تضـمّ الأسرّة الّتـي يأويـنَ إليهـا؛ وليـسَ يوليـوس بِبِـدع مـن هـؤلاء، عـشرات الزّوجـات ومِئـات المَحظيّات؛ ولم يكـن أحدٌ في الجمهوريّـة بأكملها يَـرَى أنّـه على خطأ مـا دامـت الشّريعـة الّتـي يَدِينـون بهـا لا تـرى بأسًـا في ذلـك، كان كلّ مـا يفعلـه طبيعـيٌّ ومؤيّـد مـن العامّـة والخاصّـة، ولم يكـنْ من نبيّ ولا صالـحٍ يردعـه عـن فعلتـه؛ لأنّها كانـتْ بعـدُ لا تُعـدّ سوأة؛ فهـل يـأتي مـن بعـدُ مـن ينهـى عـن ذلـك بشريعةٍ إلهيّـة؟!!

تَعَـوَّدَ (يوليـوس) في مشـوار حُكمـه الطّويـل أن يصطفـي الخُلَصـاء لكـي يُصبِحـوا جُلَسـاءَه، ولم يُكـن لِيُعيقـه أن يصطعنهـم هـو بنفسـه لنفسـه؛ فقـد كان شـاعِرًا، وخطيبًـا مُفوّهـا، ومُثقّفًـا كبـيرًا، وكاتِبًـا نوعيًّـا، وهـو لا يريـد أن يكـون مَـنْ هـو في دائرتـه الضّيّقـة أقـلَّ مـن ذلـك، فاصطفَـى فُرسـان طاولتـه المُستديرة عـلى هـواه، وكانَ أقربُهـم إلى هـواه ثلاثـةً مـن الصّفـوة همـا: (ديشـيوس) و(أنطونيـوس) و(بروتـوس)، أمّـا الأوّل فعيّنـه مُستشـاره، وأمّـا الثّـاني فعيّنـه قائـدًا عسكريًّا عنـده، وأمّـا الثّالـث فـكانَ أقربهـم إليـه، وأحبّهـم إلى قلبـه، فملّكـه دُولاً عديـدةً، وخلـعَ عليـه ألقابًـا وأوسـمةً كثيرة، وجعلـه ابنًـا لـه، وكان مـن عـادة (يوليـوس) أن يتبنّـى مَـنْ يـرى فيـه نجابـةً وفِطنـةً ويـسري فيـه دمٌ مـن دَمِـه. غـير أنّ هـذا الأبَ الرّوحـي لهـذا الابـن البـارّ بـدأ يمـدّ يـده إلى الخـاصِرة المحرّمـة، ويعبـثُ في الجسـد المُقـدَّس، فلـم تكـنْ علاقـات (يوليـوس) بزوجـاتِ أعضـاء مجلـس الشّـعب لتكفيـه، فامتـدّتْ إلى أمّ (بروتـوس)، وحـينَ ولدتْـهُ؛ لم يكـنْ أحـدٌ ليعـرف مَـنْ أبـوه، إلاّ حـينَ أُعلِـنَ في القـصر عـلى أنّـه ابـنُ (يوليـوس) لينـال بركـةَ الـرّبّ آنئِـذٍ.

كان نجم (أغسطس) قد بدأ يسطع، مُظهِرًا قدرةً في الحرب، وذكاءً في المُراوغة أحبّها (يوليوس) كثيرًا لأنّها تُشبه أساليبه في كسب الحرب؛ فقد كانا يُؤمنان أنّ الانتِصار لا يعتمد على عدد الّذين يحملون الأسلحة، بل على العقول الّتي تضربُ بها. فالسّيفُ في يد الأخرق ليسَ أكثرَ من حديدةً يُطوّح بها في الهواء لا تُصيبُ مَقتلاً!!

ولولا أنّ الموتَ يقضي على الأخيار والأشرار؛ لكان الطّاعون يتربّص بكلّ البشر جرّاء بطش الأشرار، وقلّةِ حِيلة الأخيار... وبدلَ أن تُطامِنُ الّروح من كبريائها مع تقدّم العمر، راحتْ روح (يوليوس) تتضخّم وهو يدبّ نحو الشّيخوخة، فلم يعُدْ حاكِمًا مُطلَقًا فحسب، ولا إلهًا متفرّدًا فقط، بل أعلنَ في الجَمْع قائلاً: «أنا ربُّكُمْ الأعلى».

أمّا الشّباب المُتشوّفون إلى السّلطة، والمُنتفخون بالأحلام فقد بدؤوا يَضجرون من تصرّفات (يوليوس) ورأوا أنّ هذا الجاثم على الكرسيّ مُستأثِرًا بالسّيادة دونهم قد أصبحَ كذلك جاثِمًا على صدورهم؛ وإذا كان النّبع يجري من تحتِ قدميه وحده ويشربُ منه وحده؛ فَلِمَ لا يكون لهم منه ولو غَرْفةً من يدٍ يَبُلُّون بها ظَمَأهم إلى السّلطةِ الّذي طال؛ أفحلالٌ له أن يشربَ من الكأسِ ويَعُبَّ منها مُرتَوِيًا، ثمّ لا يتركُ لهم في آخرها ولو فضلةً منها؟!!!

ظلّ (بروتوس) يركع أمام سيّده كلّما رآه، ويرافقه كظلّه، ويُظهر له الولاء في كلّ مُناسَبة، وكان كما يشتهيه يوليوس: ذَكِيًّا لمّاحًا مُطيعًا، وخبيثًا أحيانًا. ولم يُقدّم على حُبّه لقيصره غير روما، وأظهر ليوليوس أنّه خادمٌ للعرشِ الرّومانيّ عامِلٌ بكلّ ما أوتي من قوّة وموهبةٍ لرفعته. ولكنّ شرفَ أمّه ظلّ معلّقًا في جلده كنُشّاب كلّما تحرّكَ انتزعَ شيئًا من لحمه، وتبادُلَه نَظَراتِ الاحتِقار معها ظلّتْ سكاكين تفقأ عينيه كلّما التقاها أو نظرَ في

وجهها، إنّها أمّه ولكنّها ليستْ أمّه، وإنّه أبوه ولكنّه ليس أباه، وهو بين أبوَين لا يبدو أنّه يمُتُّ لهما بصلةٍ إلاّ بصلة الحقد المُستتر العتيق، وإذا كان مَعِيبًا على فارسٍ رومانيّ أن يقتلَ امرأةً فإنّه من الشّرف ربّما أن يقتل رجلاً؛ وأيَّ رجل، ولكنّ هذا الشّرف سيتلطّخ لو لم يكنْ وجهًا لوجه في ساحة النّزال؛ فماذا يفعل؟! هل يتغلّب الحقدُ على الشّرف أم الشّرف على الحِقد؟! لكنّ الحِقدَ كان ينمو في أحشائه بصورةٍ سريعةٍ ومُذهِلة، وكان الشّرف يتصاغر ويتضاءل في تلك الأعماق تدريجيًّا؛ ثمّ كان ما كان.

كانَ يومَ الزّينة، والإله سيُلقِي خِطابَ العرش في مجلسِ الشّعب، فَلَبِسَ أبهى حُلَلِه، ووقفَ أمام المرآة يُصلِحُ الثّوب الأحمر الفضفاض الّذي انسدل على جسده كامِلاً، ويركزُ التّاجَ على رأسه... مَدّ يده فمسحَ بها ذقنه الحليقةَ، كانتْ تبضُّ وتَلمَع، مال بيده إلى عنقِه وتحسّسها، خطر في باله أنّ عُنُقَ الإله لا يُمكن أن يمسَّها السّوءُ أبدًا، اعتدل بعد أن كان ظهره قد انحنى قليلاً وهو يتفحّص هيئته، في اللّحظةِ الّتي هزّ بها كَتِفَيه ببطء لِيَهُمّ بالخروج ارتمتْ عند أقدامه زوجتُه ذات السّتّةَ عشرَ عامًا، كانتْ حسناءَ انتقاها بين مِئات المَحظيّات لتنامَ في مخدعه قبلَ أكثر من ستّة أشهر... فاجأتْهُ حركتها الغريبة، نظرَ إليها وابتسم؛ لو كان للجمال تعريفٌ فلن يكون لهذا التّعريف أفضلَ من هذا الكائن القابِعِ كقِطّةٍ بين قدمَيه... قَطّبَ جبينَه وهو يرى دمعةً حائرة تكادُ تسقُطُ من عينَيها، سألها بنظرةٍ عميقة دون أن يقول كلمةً واحدة عمّا أصابها، فتحتْ فَمَها بهلع، وهتفتْ: أرجوك لا تخرجْ إلى المجلس... زالَ تقطيبُ جبينه، واتّسعتْ حدقتا عينَيه، وابتسمَ مُجدَّدًا ليقول: ما الأمر يا (كالبورنيا)؟! تشبّثتْ بساقيه مثل وردةٍ تتشبّث بجدارِ سورٍ شاهق: أرجوك لا تخرج وكفى.. ظَنّ أنّها تَستبْقيه لتُمتّعَه؛ هبطَ بجسمه الإلهيّ إليها: وأمسكَ بوجهها بين كَفّيْه، وقال لها مُحَذِّرًا: كُفّي عن هذا؛ لديّ ما هو أهمّ. هتفتْ في وجهه على عَجَلٍ قبل أن يُتِمّ: سيقتلونَك...

وحبستْ نَفَسَها بعد هذه الكلمة كأنّما ابتعلتْ صوتَها. أبعدَ وجهها المُخمليّ من بين كَفَّيه، ونهضَ مُغضبًا، وهو يلفّ بيُمناه رداءَه خلف سيفه: «ألمْ تجدي أردأ من هذه الطّريقة لتستبقيني يا (كالبورنيا)». «يا سيّدي إنّهم يأتمرون بكَ». «أنا ربُّ هذه الجمهوريّة؛ مَنْ يجرُؤ على أن يمسّ الرّبَّ بسوء». صرخَ غاضِبًا. زحفتْ نحوه وقبّلتْ قدمَيه: «أتوسّل إليك، أنتَ كلّ شيءٍ بالنّسبة لي، إذا قُتِلتَ فسيمزّقون جسدي ويرمونه إلى الكِلاب». هدّأ من روعه قليلاً، خفضَ صوته وقال مُطمئِنًا: «لا تخافي، لن يستطيعوا أنْ يمسّوا شعرةً منكِ ما دمتُ إلى جانِبك». «تلك هي المشكلة؛ أنْ تَبقى إلى جانبي». «وما الّذي يمنع أن أفعل». «إنّكَ إنْ خرجتَ من هذا الباب فلن تعودَ أبدًا». «يا امرأة ألا تكفّين عن المُحاولة». «إنّ أخبارًا وصلتْ إليّ أنبأتْني أنّ جسدَكَ تأكله الطّيور». «عُدتِ إلى الأحلام أيّتها الصّغيرة؟!». «وسيشربُ الأبناء من دماءِ الآباء». «هذا ليسَ حُلُمًا؛ بل كابوسًا». «وستتصدّع الأعمدة الّتي ترتفع فوقها تماثيلُ الآلهة «. «لِتأخُذْكِ الآلهةُ معها إنْ لم تصمتي». وخرجَ بخطُواتٍ سريعةٍ كأنّ داعِيًا ناداه لا يستطيع الإبطاءَ في إجابته.

كان المجلسُ في القاعة المَهيبة ذات الأقواس نصف الدّائريّة، بكراسيّه الفاخرة قد التأم. جلسَ الأعضاء بحسب رُتبِهم العسكريّة، ومراتبهم في الشّرف، الأمراء، فالقادة، فالعُلماء، فالوزراء، فالمُحافِظون، فسائر الأعضاء... أمّا النّبلاء فكانتْ لهم مقاعد منفصلة. حينَ دخل كان يمشي وراءه حارِسان عن يمينه وشِماله يتأخّران عنه مسافةً كافِيةً، لكنّهما بَدَوَا مربوطَين إلى يدٍ واحدةٍ تُحرّكهما من الأعلى في انضِباط، وفي خُطواتٍ شبه آليّة، وقد لَبِسَا لِباسَ الحرب. ما إنْ بَدا من الباب العالي الّذي يفتح على المجلس من منتصفه العُلويّ، حتى وقفَ كلّ أعضاء المجلس في صورةٍ أخّاذة، وبدؤوا يُصفّقون له. أمّا هو فكتمَ خُطواته، وانتظر بِضع لحظاتٍ ناصِبًا جِذعه كشجرةٍ راسِخة، وحده رأسُهُ كان يدور بحركةٍ بطيئة ذات

اليمين ثمّ ذات الشّمال وهو يبتسم ابتسامةً تليق بملك، أو بإله!!

في المَقصورة الملكيّة الّتي تقدّمَ إليها ليُلقِي خطابه، كان هناك في انتظاره أصفياؤه، ديشيوس وبورتوس وكاسيوس. جلس على عرشه، قبل أنْ يُعلِنَ رئيس المجلس عن كلمته. قام من مكانه بعد المُقدّمات التّوشيحيّة وعبارات المدح والتّأليه، كانت منصّة الخِطاب تبعدُ سبعَ خُطوات عن مكان جُلوسه، لم يكد يأخذ منها ثلاثًا، حتّى اعترضه أحبُّ القادة إليه (بروتوس)، انحنى مثل قوسٍ طريّ أمامه، وخاطبه بأدبٍ بالغ:

- مولاي.

توقّف يوليوس، أدار رأسه شمالاً قليلاً، ثمّ ضَيّق عينيه، دون أن ينظر إلى المنحني أمامه:

- ليسَ هذا وقتُ مطالبك يا بروتوس.
- مولاي، لم أجدْ أفضل من هذا الوقتِ أمام الشّهود.
- وماذا تريد؟!
- أن تَعفُوَ عن (بوبليوس)؛ إنّه لا يستحقّ النّفي.
- عجبًا؛ أتطلب منّي أن أعفوَ عنه؛ كنتُ أظنّ أنّك تتمنّى حَرْقَه.
- إنني أجثو أمامكَ طالِبًا الصّفح عنه!!
- أوّاه، لو كان غيرُكَ قد طلبَ ذلك منّي، أو لو كان غيري الّذي طلبْتَ منه.
- إنّه...
- أنا لستُ كأيّ قائدٍ يا بروتوس، إذا قلتُ فلا أتراجعُ عن قولتي ولو تناهشتْني الذّئابُ في البرّيّة، ألم تتعلّمْ منّي بعد؟!!

- مو لاي...
- أرأيتني أتوسّلُ أحدًا يومًا؟! ظننتُك وعيتَ ذلك عنّي؛ لا تتوسّل أحدًا ولو كان إلهًا.
- إلهي... أأسجُدُ لكَ حتّى تسمعني.
- لقدْ تمادَيْتَ يا بروتوس، لا تكنْ ميّتًا يصعبُ عليه أن يقومَ من قبره.
- أيّها الإله الأعظم، مَنْ يستحقّ الشّفقة فينا؟!!
- المسافة بيني وبينَ المنصّة يجب أن تكون خالية، وأنتَ تعرفُ ذلك أكثرَ من أيّ شخصٍ آخر؛ لديّ ما أقوله لهذا الشّعبِ المُنتظِر كلماتي.

يُخلي (بروتوس) الطّريق، أخذ (يوليوس) من الخُطواتِ السّبع خُطوتَين أُخرَيَين، فاعترضه (ديشيوس) قائلاً وهو يهزّ جسده متمايِلاً باستهزاء:

- قيصر العظيم.
- ألمْ تسمعْ ما قلتُه لبروتوس؟
- سمعتُ ولكنّني لستُ مثله. أنا أطلبُ الرّحمةَ لـ (بوبليوس) من جديدٍ.
- أرأيتَ جبلاً شاهِقًا تحرّك من مكانه، قراري أرسخ من جِبال العالَمِ كلّه.
- الرّحمةُ تُطلَبُ مرّةً واحِدة؛ لا أدري إنْ كنتَ ستفعل.

كان (كاسيوس) قد قامَ من مكانه، وسارَ بخطواتٍ واثقة باتجاه (يوليوس) حتى إذا صار خلفه لصيقًا به، تناول خنجره وغرسه في رقبة (يوليوس)، غاصَ الخنجر عميقًا في الرّقبة، حرّكه كاسيوس بقوّة ساعده حركةً دائريّة وهو مغروس في الرّقبة، فبدأ الدّم يثعبُ بشكلٍ

قنـواتٍ مُتفجّـرة، هتـفَ بـه (كاسـيوس):

- فلتطلبِ الرّحمةَ أيّها الإله المُتعجرف.
- أنـتَ لا تسـتحقّ أن أديـر عنـكَ ظهـري؛ الخيانـةُ تبـدأ بصاحبهـا.
- لـو كنـتَ تفهـم معنـى الخيانـة لما كان هـذا الخنجـر الآنَ في رقبتـك.
- سـأموتُ مُدافِعًـا عـن شرفِ رومـا، أمّـا أنـت فسـتعيش غائِصًـا في خِزيـك وعـارك.

يتقـدّم بعدهـا(ديشـيوس) ويطعنـه هـو الآخـر، ويتـوالَى عـددُ الطّاعنـين لـه، حتّى يبلغـوا أربعةَ عشرَ قائدًا، كانـوا قد اتّفقـوا على فَعلتهـم حتّى يتفـرّق دمه بـين القبائـل... خـار (يوليـوس) أمـام الطّعنـات لكنّـه لم يسـترحم أحـدًا، حتّى تقـدّم إليـه أعزّ قادتـه، ومَـنْ كان؟! كانَ ابنـه، فطعنـه في قلبـه وهـو ينظـر في عينيـه، فقـال لـه (يوليـوس) وهـو يشـدُّ عـل يـده الّتـي طعنـه بهـا، ويبتسـم:

- لروما إلهٌ يحميها...
- ألمْ تكنْ إلهَها... فلماذا تركتَها وحيدةً؟!
- حتّى أنتَ يا بروتوس... حتّى أنتَ يا بروتوس...!!!

وسادَ الهرجُ والمرجُ في القاعـة... نـزَعَ (بروتـوس) خنجره مـن قلـبِ (يوليوس) ورفعـه إلى أعلى فنزلـتْ قطَراتُ الـدمِ على وجهـه، صـاح هـو يبكي:

- لقـد كنـتُ أحـبّ (يوليـوس)، أقسـم بالآلهـة جميعهـا أنّنـي كنـتُ أحبّـه، ولكـنّ حُبّـي لرومـا كان أكـبر، وكان علـيّ أنْ أُضحّـي بأحدهمـا!!

ثُـمّ شُـهِرتْ سـيوف، وتطايـرتْ رِقـاب، وعلـتْ صَرَخـاتٌ مـن كلّ جهـة، ودخلـتْ إلى المجلـسِ أعـدادٌ غفـيرةٌ مـن النّـاس، وحصلـتْ مَقتلـةٌ كبـيرةٌ، أمّـا القَتَلـة فَحُمُـوا بحُرّاسـهم... وابتـدأ عهـدٌ جديـدٌ مـن الحـروب الأهليّـة المُهلِكـة، و...

وكنتُ أنا في العالَمِ الغيبيّ.

(٤)

العُروش لا تُساوي نظرةً واحدةً صادقة من حبيبَين

آلَ الأمـر إلى ثلاثـةٍ هـم: (أنطونيـوس) و(ليبيديـوس) و(أغسـطس)، طالـبَ الأخير بـدمِ خاله الّـذي اغتيـلَ غـدْرًا، وبأبشع الطّرق، وطالـبَ كذلك باستعادة دستور الجمهوريّة وميثاق الشّرف اللّذَيـن أفنى (يوليـوس) حياته في سبيلهما، بـل وضحّى بروحـه مـن أجلهـما.

أقنـع (أغسـطس) صاحِبَيـه بضـمّ جيوشـهم تحت جيشٍ واحـد لإخماد الحرب الأهليّة، والقضاء على الخونـة، واستعادة السّيطرة على رومـا، ثـمّ اقتِسـامها بعـد النّـصر. انتهـتِ المعركـة الّتي خاضَهـا القـادة الثّلاثـةُ معًـا لصالحهـم؛ وكانـتْ تتويجًـا لإرادة الوَحـدة ولـو إلى حيـنٍ.

غـيرَ أنّ الكرسيّ منذ أنْ أوجده العقل الشّيطانيّ لا يتّسع لاثنين؛ فما بالك بثلاثـة؟! بعـد فـترةٍ قصيرة، نُقِـضَ كلّ شيء؛ دسـتور الجمهوريّـة الّـذي كان مِـنَ المُفـتَرَض أن تكـون الكلمـةُ الحاسِـمةُ فيه لمجلس الشّـعب، صـار لعبةٍ بيـدِ كلّ قائـدٍ مـن الثّلاثـة، نَصّبـوا مَـنْ شـاؤوا، وعزلـوا مَـنْ شـاؤوا، وخلعـوا ألقابًـا عـلى هواهـم لـكلّ مُنافِـق، واسـتعطفوا بعـضَ الـكلابِ العاويـة بعظمـةٍ مـن سـلطةٍ أو رتبـة أو مـال، وصـار الدّسـتور بـلا ضوابـط، وافتقـر إلى الشّرعيـة الّتـي تجعـل لـه هيبـة، ولم يكـنْ مـن أحـدٍ في القـصر تحـت القانـون، بـل كان القانـون تحـت أصغرهـم شـأنًا وأقلّهـم رتبـةً.

وَرِثَ (أغسطس) ذكاء (يوليوس) ودهاءَه؛ وهو يُدرك تمامًا أنّ الحرب الأهليّة الّتي أخّرتْ روما قرنَين من الزّمان، ما زالتْ جذوتها مُستكنّة؛ وكلّ الحوادث مرشّحة لبعثها من جديد، وأنّ سبب استقواء بعض الرّعايا وشغبهم هو قِلّة خوفهم، وهم يرون أنّ الدّولة تُقاد بثلاثةٍ؛ وهل يُمكن أن يكونَ للإنسان ثلاثة رؤوس ويكونُ سَوِيًّا؟! إذًا لا بُدّ من إطارة رأسَين حتّى تستوي حياة روما!!

نظرَ (أغسطس) إلى حالَي رفيقَيه بعينٍ ثاقِبة، (ليبيديوس) ضعيف، وجيشُه يُمكن هزيمته بسهولة، غيرَ أنّ الجِراح ما زالتْ عميقة، وإذا كان يُمكن الوصول إلى الهدف دون إراقة الدّماء فتلك مهارةٌ لا يُتقنها إلاّ القليلون. وأمّا (أنطونيوس) فغارقٌ في الحبّ إلى سويداء قلبه؛ ومَعَ مَنْ؟! مع (كليوباترة)؛ عشيقة خاله (يوليوس) والّذي أنجبَ منها على الأقلّ ابنًا غيرَ شرعيّ، وهذه الأفعى الّتي نامتْ في سرير الكثيرين من القادة والقياصرة، لم تكتفِ بذلك؛ بل استعدَتْ كلّ مَنْ تستطيع لقَتْلِ أخيها وإزاحته عن حُكم مصر!!

الخُطّة جاهِزةٌ إذًا سأتخلّص من (ليبيديوس) فهو أضعفُ منّي بكثير، وستخلّصني (كليوباترا) من (أنطونيوس) وهي لا تدري، وستُصبح روما كلّها تحت سيطرتي، وسأحولّها إلى إمبراطوريّة.

غرقَ (ليبديوس) في خَمرة العنب حتّى أذنيه، وغرق (أنطونيوس) في خَمرة الحُبّ حتّى أذنيه، وإمبراطوريّة عُظمى مثل روما لا تحتمل الأمرين معًا، وقائِدها عليه أن يبقَى صاحِيًا؛ حتّى وإنْ توغّل قليلاً في الخَمرتَين فيجب أن يعودَ إلى رُشده، فيُقيمُ أمرَ مَملكته.

ظلّ اللّهو ينخر الكرسيّ الّذي يجلسُ عليه (ليبديوس) حتّى أتاه جُند (أغسطس) بالأمر الحاسِم: «سيّدي الرّئيس؛ لم تَعُدْ رئيسًا بعد الآن»، جُرّد من منصبه وامتيازاته كافّة، ونُفِيَ بقرارٍ دستوريّ اشتراه (أغسطس) من البائعين، وما أكثرهم!! غَضِبَ (انطونيوس) لما فعله (أغسطس) بـ (ليبديوس) فثارَتْ ثائرته غير أنّه رجع إلى نفسه فأدركَ الورطة الّتي وقع فيها؛ لقد أصبحَ شبهَ منبوذ، ثُلُثا الدّولة تحت سيطرةِ غريمه الّذي استغلّ انشغاله المُفرِط بالأفعى البشريّة، وماذا يفعل؟! إنّه أمام ثلاثة خيارات على الأرجح: إمّا أن يُنفَى كشريدٍ، وإمّا أن يُقاتِل كشريف، وإمّا أن يُقتَل كشهيد. واختار ميثاق الشّرف الّذي نقضه (أغسطس) الخائن كما سمّاه، فجهّز جيشه ليواجه الخصم الألدّ، وشجّعتْه على ذلك (كليوباترا) قائلةً له: «كما ضممتُ قلبي إلى قلبِك، سأضمّ كذلك جيشي إلى جيشِك».

كان يُمكن تجنّب الحرب، لكنْ لم يكنْ ممكنًا تجنّب العار!! كان يُمكن أن نعيشَ كإخوة لكنْ ليس تحت سقف القصر!! وكان يُمكن أن أتركَ السّلطة لكنْ ليس لخائنٍ مثلك؛ بهذا حدّث (أنطونيوس) نفسه كأنّما يُخاطِب (أغسطس) وهو يدخل حربًا يعرفُ نتيجتها مُسبقًا.

وقتَها كان شعبُ روما قد ازدادَ غضبه على (أنطونيوس) الّذي باع قلبه لفتاةٍ لَعوب لا يجري في عروقها دمُ الرّومان، هذه الفتاة الّتي لم يُملّكْها قلبَه وعقلَه فقط، بل هجر روما العظيمة ومجدها الأعظم ليعيشَ معها في مصر؛ بلدِ النّوبيّين والبَدو الّذين لا يرقَون لا في الثقافة ولا العسكريّة ولا المجد إلى عَظَمة روما!!

وجرت الأمور على ما يشتهي (أغسطس)، فغريماه أحدهما منفيّ والآخر منبوذ. وأقسمَ أمامَ جيشه أنّه سيُمزّق جسدَ (أنطونيوس) الّذي

سعى إلى إضعافِ الدّولة إلى مئة قِطعة، وأنْ يُرغِمَ عشيقته الفاجرة (كليوباترا) على أن تسير في موكب انتصاره حاسِرةَ الرّأسِ مكشوفةَ الصّدر... وتعالتْ صيحاتُ الجندِ بعد هذا القَسَمِ الحماسيّ. والتقى الجيشان في (أكتيوم) في معركةٍ بحريّة غربَ اليونان، ودارتْ رحى المعركة، فطحنتْ تحت حَجَريها آلافًا من الجانِبَين، لكنّ سُفنَ (أنطونيوس) أُبيدتْ عن بَكرةِ أبيها. وزحفَ جيشُ (أغسطس) نحو الإسكندريّة معقل خصمه، وضرب حولها حِصارًا مَكِينًا، فلمْ يستسلمْ، وحاول أن يفكَّ الحِصار، فعمد (أغسطس) إلى الحيلة؛ فبعثَ أحدَ حُرّاس (أنطونيوس) الّذين اشتراهم إليه يُخبره بأنّ عشيقته السّاحرة (كليوباترا) قد ماتتْ، فوقعَ الخبر على (أنطونيوس) وقوع الصّاعقة، ولم يكترث قلبُه لآلافٍ من جُنوده الّذين هلكوا في المعركة اكتراثَه لخبر وفاة حبيبته المُلفّق هذا، فأصابَتْه غمّاء، واسودّ الكونُ في عينيه، فلم يجدْ في الحياةِ طعمًا بعدها، وأيقنَ أنّها النّهاية؛ ففضّل الموتَ على الأسر والحياة وحيدًا بعد فقدان قلبه، فانتحر. طلبَ من أحدِ حرسه الأشدّاء أن يقفَ خلفه فيضرب عنقه بالسّيف ضربةً واحدةً يطير لها رأسُه لكنْ بعد أن يُتمّ هو عمله؛ أحضرَ رُمحًا ثمّ عرّى جسده، وركزه في بطنه ودفعَ جسده بكلّ ما يملك من قُوّة، ثمّ صاح بحارسه: الآن... الآنَ... لم يكدْ يُتمّ الكلمةَ الثانية حتى كان رأسهُ يتدحرجُ أمامَه.

ثمّ بعث (أغسطس) إلى كليوباترا مَنْ يُخبرها خبر (أنطونيوس) ويطلب منها أنْ تستسلم وتجيئه صاغرة، فلمّا وصلها الرّسول، كانتْ قد أعدّت كلّ شيء مُسبقًا...

جلستْ بهدوء على كرسيّ عرشها عاريةَ الكتف الأيسر والصّدر، وجاءها خادِمها الأمين بثُعبانَين من ثعابين (الكوبرا) السّامّة، وضعَ أحدهما

على كتفها العاري والثّاني على صدرها، نهشَ الأوّل الكتف فسرى السّم بطيئًا، ونهشَ الثّاني الثّديَ فسرى القاتلُ الخفيُّ سريعًا، نظرتْ أمامها فرأتْ (أنطونيوس)، كان بلا رأس، لم تفزع ممّا تخيّلتْهُ؛ فقد كانت تراه هكذا في أحلامها في اللّيالي الأخيرة، ابتسما؛ هتفتْ:

- الحبُّ مملكتُنا.

أجابها:

- العُروش لا تُساوي نظرةً واحدةً صادقة من حبيبَين.
- لم أحبَّ سِواك، كانوا عابرين في حياتي، وكنتَ أنتَ الحياة.
- الحياةُ والموتُ خُدعتان، أنا أموتُ مثلاً لكي أحيا، وآخرون يحيون أمواتًا.
- هل تعتقد أنّ هناك حياة أخرى سنحياها مرّةً أخرى؟!
- لا أظنّ، ولكنْ لماذا؟! لقد عشتُ معك الحياة كلّها، أليس ذلك كافِيًا!!
- أريد أن أظفر بكَ من جديد.

وسقطتْ جُثّةً هامِدَة...

كان (أغسطس) يقف عندَ جسدها المُنتفِخ سُمًّا، بكى؛ لا لأنّها قضتْ بهذه الطّريقة؛ بل لأنّه كان يأمُل أن تُزيّن موكبَ انتصاره!!

(٥)

انظُرْ إلى قلبكَ لتعرف مَنْ يسكُنُ فيه

وصلتْ رِسالة (هيرودس) إلى (أغسطس) في العام ٣٠ قبل الميلاد، أمرَ حاجِبَه أن يفُضّ خاتَمها، ويقرأها هو بدلاً منه خوفًا من أن تكون مَسمومة فيسري السُّمُّ في جسده بمجرّد ملامستها!! عالَمُ المُلُوك يُشبِه عالَمَ الذّئاب، ما مِنْ ملكٍ يُحبّ الآخَر أو يأمن له، وكُلٌّ ينتظر سَقطَةَ الآخر ليستلّ خنجره ويبدأ الطّعن لتفريغ خلطةٍ عجيبةٍ من الخوف والحقد والحسد تشكّلتْ كُلّها في القلب وحانتْ فرصةُ ظهورها. وللملوك مستشارون لتدبير المكائد للآخرين أكبر من عدد مستشاريهم لأمور الطّبّ أو الهندسة أو الثّقافة أو العُلوم؛ إنْ كانَ لهم مُستَشارون في الثّانية!!

ارتجفَ الحاجب وتنحنحَ وهو يمدّ الرّسالة أمامه، غامتْ عيناه قليلاً وهو يجرّب اختِبارًا سريعًا لسَرَيان السُّمُّ فيها إذا كانت الرّسالة حقًّا مسمومة... صمتَ، فحثّه أحدُ المستشارين، تنحنح من جديد، وقرأ بصوتٍ مسموع: «أيّها الإمبراطور العظيم: خادِمكم في فلسطين يعمل كما تحبّون لمجدِ روما... لقد نويتُ أنْ أبنيَ عددًا من المُدُن في البلاد الخاضعةِ لسُلطاني وأجعل (سَهْ بِسْتَه) عاصمتهنّ...»

استوقف (أغسطس) بِرَفْعِ يده الحاجبَ الّذي يقرأ، ومال على أحد مستشاريه:

- تبدو لي كلمة (سَه بِستَة) غريبةً عليّ!!

- إنّها اللّفظ اليوناني لاسمكَ يا مولاي، فهي تعني (أغسطس)، واليهود يلفظونها سَبِسطية. (قال ذلك باسِمًا).

أشارَ الإمبراطور إلى الحاجب ليُكمِل:

«وقد أعددتُ العُدّة من ضرائب البُيوع والتّجارة والمساكن، ولدينا ما يكفي للبدء، ولا ننتظر غير الإذن منكم يا مولاي... خادمكم الأمين: هيرودس الأوّل».

❊❊❊❊❊❊❊❊

في المدينة المُقدّسة، جاء حاجبُ (هيرودس) إلى (قَيافا) كبيرُ الكَهَنة، قال له إنّ الملك يدعوه إلى قصره، تبرّم (قَيافا) بما سمع؛ كان يعرف أنّ الملك لا يُكُفُّ عن أَخْذِ الأموال من خزينة الهيكل لإنفاقه على رغباته الجُنونيّة، «ماذا يظنّ نفسه» هتفَ بصوتٍ خفيض، وأردف: «هذا الّذي يدفعه المُصلّون للهيكل هو مال الله، وليسَ مالَ الشّيطان حتّى يمدّ الشّيطانُ إليه يده». لكنّه نفضَ الجُبّةَ الّتي يلبسها، وركزَ العِمامة العالية الّتي يعتمرها، وخرج مع الحاجب، دخل على هيرودس:

- بيننا عهدٌ طويل، نحن كما تري جيرانٌ، وللجيران حقوق. (قال له هيرودس أوّل ما رآه).
- حقًّا؛ إنّ مِنْ حقّ الجار ألاّ يُسيءَ إلى جاره.
- أنا لا أطلبُ الكثير.
- لم يَعُدْ هناك من مال في صُندُوق العُبّاد.

وقف (هيرودس) مُغضَبًا حينَ سَمِعَ ذلك:

- لا تُحاوِلْ خِداعي، أنا أعرفُ كلّ شيءٍ... الأموال الطّائلة الّتي لا تُعلِن عنها...
- أيّها الملك... قاطَعه (قيافا)
- هِيَ لي؛ أعرف أنّكَ لم تُدخِلها في حساب خزينة الهيكل؛ لأنّني أنا صاحِبها. (يصمت قليلاً)... ولكنْ لا تَخَفْ، أنا لستُ أنانيًّا؛ من هذا المال سأبني لكم أيضًا معبدكم، وسأزيّنه بالذّهب... هه ما رأيك؟!

خرجَ (قَيافا) ممتلئًا غضبًا، وصلَ المسجد، رأى الأمم تغصّ بها السّاحات؛ إنّه عيد الفصح، والمُصلّون جاؤوا من كلّ أنحاء فلسطين ليشهدوا كلامَ الرّبّ، وليُقدّموا له القرابين... فكّر بينه وبينَ نفسه: فرصةٌ جيّدة للحصول على مزيدٍ من الأموال من أجل التّخلّص من هذا الأفّاك المُسمّى (هيرودس)... دخل رواق سليمان، رأى حُشودًا ضَخمة، تجاوزهم إلى الجِدار، بعدَ ساعةٍ سيكون كلّ الوافدِين إلى المعبد قد وقفوا أمامه... انتظر هناك برهة، تقاطرَ إليه عددٌ من الكهنة، حفُّوا به مُبجّلين، وجلسوا عن يمينه وشِماله.. من بعيد في طرف المعبد كانتْ أصواتُ الشّياه تَصِلهم واضِحة وهي تُطلِق آخرَ ثُغاءِها دون أن تنجح في استبقاء الحياةِ الهاربةِ منها...

حانتْ ساعة الصّلاة الكُبرَى، وسيقفُ (قَيافَا) أمام العُبّاد ليُلقي كَلِمَته، اعتلَى حجرًا ليُشرِفَ على الجموع، لم يعد في السّاحةِ موطئُ قدم، كان الآلافُ قد غطُّوا كلّ مساحةٍ خالية، اشرأبّتِ الأعناق إلى الكاهن الأكبر لتسمع ما يقول:

يا شعبَ الله: «تَلِفَ الحقلُ، ناحتِ الأرضُ لأنّه قد تَلِفَ القمحُ، جَفَّ المِسْطارُ، ذَبُلَ الزّيتُ. خَجِلَ الفلاّحُون، ولولَ الكرّامونَ على الحِنطةِ وعلى الشّعير، لأنّه قد تَلِفَ حَصِيدُ الحقل. الجَفْنةُ يَبِسَتْ، والتّينةُ ذَبُلَتْ. الرُّمّانةُ والنّخلةُ والتُّفّاحة، كُلُّ أشجارِ الحقلِ يَبِسَتْ. إنّهُ قَدْ يَبِسَتِ البَهجةُ من بَنِي البشر»[1].

فسرتْ في الجُموعِ صيحةُ حُزنٍ عالية، فتابعَ قَيافا مُوقِنًا أنّ اللحظةَ أصبحتْ مناسبة ليحصلَ على ما يُريد: إنّكم إنْ خرجتم من هنا ولم تبذلوا كُلَّ ما تملكون من مالٍ وذهبٍ أو حِنطةٍ أو متاعٍ فأنّى يغفر الله لكم؟!

فسرتْ صيحةُ يأسٍ عاليةٍ عمّتْ أرجاء المعبدِ كلّه، فهمَّ قَيافا أن يطلبَ منهم المال صراحةً، فوقفَ له شيخٌ جليل، نهضَ من بينِ الجُموع قد ابيضّتْ لِحيته، ورَفَعَ عَصاهُ في وجهه، ألم تَقرأْ في كُتُبِنا يا قَيافا: «إنْ أصلحتُمْ إصلاحًا طُرُقَكُم وأعمالَكم، إنْ أجريتُمْ عدلاً بين الإنسانِ وصاحِبه، إنْ لم تَظلِموا الغريبَ واليتيمَ والأرملة، ولم تَسفِكوا دمًا زَكِيًّا في هذا الموضع، ولم تَسيروا وراء آلهةٍ أُخرى لأذائِكم فإنّي أُسكِنُكمْ في هذا الموضع، في الأرضِ الّتي أعطيتُ لآبائِكم من الأزلِ وإلى الأبد. ها إنّكم مُتّكِلون على كلامِ الكَذِب الّذي لا يَنفَع. أتَسرِقُون وتقتلونَ وتَزنونَ وتَحْلِفون كَذِبًا وتُبَخِّرونَ للبَعْلِ، وتسيرون وراءَ آلهةٍ أُخرَى لم تعرفوها، ثمّ تأتون وتَقِفُونَ أمامي في هذا البيتِ الّذي دُعِيَ باسمي عليه وتقولون: قد أُنقِذْنا. حتّى تعملوا كُلّ هذه الرّجاسات؟! هل صارَ هذا البيتُ الّذي دُعِيَ باسمِي عليه مَغارةَ لُصُوصٍ في أعيُنِكم؟!»[2].

---

١ يونيل : (١: ١٠ – ١٢)
٢ إرميا (٧ : ٥ – ١١)

يا (قَيافا) خيرٌ لكَ أن تدعوهم وتدعو نفسكَ وبقيّةَ الكهنة إلى ترك كلّ هذه الرّجاسات، إنّكم تُنجّسون بيتَ الله. أكلتُمْ أموالَ النّاسِ بالباطِل، وألجأتموهم إلى الذّلّ باسم الدّين، والله لا يُريد من عِباده إلاّ أنْ يكنوا أعِزّاء به.

سرتْ في الجُموع صيحات استنكار وصيحات تأييد، رفَعَ (قَيافا) كلتا يدَيه مُهدِّئًا الجُموع، وصاح بغضبٍ واضح:

- أُقْعُدْ يا زكريّا... اُقْعد أيّها العجوز إنّك لا تفقه ما أقول، ولا تعلم العلمَ الّذي أعلمه... اُقعد ودعني أُتمّ كلامي.
- إنّك تُضِلّ النّاسَ بهذا الكلامِ يا قَيافا، وإنّ النّاسَ لا يتبعون ما تقول حُبًّا بك، بل حُبًّا بالله، فلا تُجْرِ ما في قلبِكَ على لسانِ الله لِتَخدَعهم.
- وهل تعرفُ الله أكثرَ مِنّي أيّها العجوز؟! يبدو أنّك خَرِفت.
- الله لا يُعرَف بالكلام؛ انظُرْ إلى قلبكَ لتعرف مَنْ يسكُنُ فيه.

انسلّ زكريّا من بينِ الجُموع، وتَبِعَهُ عددٌ قليلٌ من الّذين رأوا الحقّ فيما قاله، وتَبِعوه إلى الحجرة الدّاخليّة الواسعة في المعبد، وبدؤوا صلاتَهم. تاركينَ الحُشودَ في الخارجِ يغرقونَ في صياحهم وهياجهم. كان الصّوتُ يأتيهم يُشوّشُ عليهم عبادتهم رَغمَ الجُدران السّميكة الّتي كانت تفصلُ بينهم.

بدأتِ الأصواتُ تخفتُ تدريجيًّا، وبدأ الحجيجُ يعودون إلى ديارهم في الجليل والنّاصرة وكفر ناحوم وبيت لحم والسّامرة والكرمل. فرغِت السّاحة من المُصلّين عدا بعضُهم مِمّنْ تأخر عن قافلته ففاتَتْه، فقرّر المَبيت في المَعبد. أو مَنْ كان فقيرًا لا يملك راحلةً، ولا يجدُ ما يُقِلُّه مقابل قِطَعٍ نقديّة زهيدة.

مـن بعيـدٍ فـوق التّـلال المُحيطـة بأورشـليم، بـدتِ الشّـمسُ تطبـعُ آخـر قبلـةٍ لهـا لِتُـودِّع الأرضَ مـن تلـك الجهـة. خشـعتِ الأصـواتُ، وركـنَ إلى الهُـدوء مَـنْ تَبقّـى في السّـاحة، ولجـأ إلى زوايـا ليبيـتَ فيهـا مُعَـدّةٍ سـلفًا لمـن تنقطـعُ بهـم الطّـريـق.

أمّـا زكريّـا وكان اللّيـلُ قـد أتـمّ هُبُوطـه الـكُلّي عـلى المـكان، فانـزوى في ناحيـة المسـجد، وأضـاءَ الـسّراج المُعَلَّـقَ هنـاك، وجلـسَ يُناجِـي رَبّـه... كان الهُـدُوء قـد لـفّ المـكانَ بأكملـه، فلـم تَعُـدْ تُسـمَعُ همسـةٌ واحِـدة، حتّـى إنّـه كاد يسـمع دقّـات قلبِـه وهـو يرفـع يديـه إلى الله مُتضَرِّعًـا. تسـاءَل زكريّـا مُتعجّبًـا: أينَ ذهـبَ الصّخـبُ الّـذي كان يـؤذي الآذان قبـل سُـويعاتٍ؛ ليـتَ هـذا الضّجيـج الّـذي ارتجّـتْ لـه أركان البيـت كان تَضَرُّعًـا إلى صاحبـه... انقطعـتِ الأصـواتُ إلاّ صـوتُ مَـنْ يـأوي إلى رحابِـك... ونامـتِ القلـوب إلاّ قلـبُ مـن هـو مُتعلّـقٌ بجلالـك... واضطجعـتِ الأجسـادُ إلاّ جسـدُ مَـنْ أفنـاه في حُبِّـك...

كان اللّيـلُ في المسـجد عالمًـا آخـر، عَتْمَتُـهُ تزيـدُ أعـماق النّفـسِ التّائقـةِ نـورًا، وزاويـاه تنبعـثُ منهـا روائـح مِسـكيّة لا يُمكـن لأحـدٍ أن يستنشـقَ عبيرَهـا إلاّ مَـنْ سكـنَ إلى تلـك الزّوايـا بخضـوع، ولا يُمكـنْ أن يُحسّ بهـا تمـلأ جوارحـه فتزيـدُ سكينـةً إلاّ مَـنْ رفـعَ أكُـفَّ المُناجـاة بتذَلُّـل... كـم كان يَجِـدُ زكريّـا في ذلـك لذّتَـه... كـم كان يشـعر أنّـه وُلِـدَ مـن جديـدٍ بـينَ يـدي رحمـةِ الله...

(٦)

هَذِي الحَيَاةُ هِيَ السَّلام

فِيْ الفَجْرِ، فِي نَهْرِ الضِّيَاءِ الثَّرِّ، فِي شَرَفِ المَقَامْ... واللّيلُ يَأْذَنُ بِالرَّحِيلِ يُبَعثِرُ الخُطُواتِ يَتْرُكُ خَلْفَهُ خَيْطَ الظّلامْ... حَطَّتْ عَلَى الشُّرُفاتِ أَسْرابُ الحَمَامْ... اللهُ يَأْذَنُ بِالحَياةِ لَنَا عَلَى دَرَجِ الخِيَامْ... وَاللَّيْلُ حِيْنَ تَحُطُّ يَأْخُذُ نَفْسَهُ وَيَكُفُّ عَنْ بَعْضِ المَلامْ... وَالفَجْرُ يَبْدَأُ بِالكَلامْ... هَذِي الحَيَاةُ جَمِيْلَةٌ رَقْرَاقَةٌ لَوْ أَنَّهَا سَلِمَتْ مِنَ الشَّرِّ الّذي يَكْتَظُّ فِي رُوْحِ الأَنامْ... هَذِي الحَيَاةُ تَكَوَّنتْ مِنْ سِرِّ خَالِقِها وَمِنْ طُهْرِ الغَمَامْ... هَذِي الحَيَاةُ هِيَ السَّلامْ...!!

وفي شرفة البيتِ الطّينيّ البسيط المُطلّ على بيوتات (النّاصرة) القارّةِ عَبْرَ زواريبَ ضَيّقة وقف (عِمْران) يُصلّي. هبّتْ نسماتٌ لطيفةٌ على وجهه فأشعرتْه بالرّضا. أتمَّ صلاتَه، وجلسَ يقرأ في صُحُفِ موسى، كانتِ النّسخة الّتي بينَ يديه مُهترئة؛ حنا عليها وهو يُقلّب صفحاتها جاهِدًا أن يقرأ ما خُطَّ فيها؛ كانَ بَصَرُه قد ضَعُفَ، وعيناه لم تعودا كما كانتا في السّابق، إنّه بالكاد يستطيع القراءة مُحاوِلاً الاعتِمادَ على محفوظه لإكمال ما شَكُلَ عليه.

كانتِ النّاصرة آنذاك فتاةً وادعةً تنامُ في كفِّ سهلٍ تتخلّله بعض الهِضاب الصّغيرة، وتُحيطُ به في البعيد جِبالٌ لا تشمخُ كثيرًا. وتتكوّن من بيوتٍ طينيّة يسكُنُها أصحابُ المِهن البسيطة من نَجّارين، وحدّادين، ومُزارعين، وخَزّافين. وعددٌ غيرُ قليلٍ من نسلِ (هارون) يتقاسمون البلدةَ ذاتَها.

لم تكـدِ الشّـمسُ تُرسِـلَ أشـعّتها مُبتدِئـةً بالقمـم البعيـدة ومنتهيـةً بالأزقّـةِ والحـواري حتّـى جاءتْـه (حَنّـة) حاملـةً صَحْفـةً ليـأكُلا... وحدهمـا في هـذا العُمـر، ورفيقهـما فقـط ذكريـات الأنبيـاء والصّالحـين الّذيـن جـاءا مـن أصلابهـم. جلسَا إلى الطّعام البسيطِ الّـذي مدّتْـهُ أمامهـما، تنهّـدتْ وهـي تقسـمُ الخبـزَ بينهـما، عـرفَ مـا يجـول في خاطرهـا، فابتسـم، قـال لهـا:

- لكلّ شيءٍ أوانٌ، فلا تستعجلي.

حاولـتْ أن تتظاهـر بأنّهـا لم تفهـم، لكنّهـا فضّلـتِ الصّمـت. دهنـتْ خُبـزَةَ (عمـران) بـشيءٍ مـن الزّيـت، ورشّـتْ فوقهـا قليـلاً مـن الملـح، وقرّبَتْـه مـن فمـه ليـأكل، تلمّـس الطّريـق إلى اللّقمـة الهانِئـة، هتـفَ في نفسـه: «هـي ذي الحيـاة لا تُسـاوي أكثـر مـن ذلـك». نظـرتْ (حَنّـة) في وجهـه محاولـةً أن تفهـم مـا قـال، بادَلهـا نظـرةَ شُـكرٍ ملائكيّـة:

- إذا أعطَى أدهش.
- مَنْ تَقصد؟!
- مَنْ بِيَدِه كُلُّ شيء.
- ليـتَ لنـا مَـنْ يُعيلُنـا في هـذه السّـنّ، إنّنـا لا نَجِـدُ مـا نـأكل إلاّ مـن صدقـات الطّيّبـين.
- لم أعُـدْ قـادِرًا عـلى العمـل يـا حَنّـة، وحانـوتي أَوْكَلْتُـه إلى أحـد أقربائي.
- فَضْلُ الله واسِعٌ.
- أنا ضعُفْتُ فلا أقوى؛ يبدو أنّه حانتْ ساعتي.
- لا تقلْ ذلك؛ إذا غادرْنا هذا المكان، فلْنُغادِرْهُ معًا!!

لفّتِ الصّحفة، رفعتْها، ودخلتْ بها إلى داخل البيت، وخرجتْ كي تملأ جرّتها بالماء من بئر يعقوب. رآها زوجها فحَزِن: «لو كنتُ قويًّا لما ألجأتُها إلى ذلك».

في الطّريق كان صوتُ الهواء يعبثُ بفوهة الجرّة فتُصدِرُ ألحانًا جميلة، ظنّت (حنّة) أنّ ذلك الصّوت من الأطيار الّتي تهبطُ على أغصان الأشجار الّتي تُحُفُّ جانِبَي الطّريق. توقّفتْ فتوقّف الصّوت. أكملتْ سيرَها مُترنِّمة. عند البئر كان عددٌ من نساء البلدة قد جِئنَ ليملأنَ فخّاراتهنّ بالماء. سلّمتْ عليهنّ، ومدّتْ لها أوّل واحدةٍ بكوبٍ من الماء:

- اشربي؛ إنّ هذا الماءَ مُقدّس.
- مَنْ قدّسه؟!
- الرّبّ.
- الرّبُّ لم يُقدِّسْ ماءً.
- اشربي يا أُختاه وكفى!!

ملأتْ جرّتها، وعادت.. كانتِ الشّمسُ قدِ ارتفعتْ في قُبّة السّماء، واشتدّتْ حرارتُها، في منتصف الطّريق أوتْ إلى ظلّ شجرةٍ لتستريح، ركنتِ الجرّةَ جانِبًا، وأرختْ ظهرها إلى الجذع، وتنهّدتْ طويلاً... حانتْ منها التفاتةٌ إلى الشّجرة المُقابلة على جانب الطّريق الآخر، استوقفها مشهدٌ أموميّ كان يبدو أنّه سيُغيّر حياتها من هذه اللّحظة... كانتِ الأمّ ترفرفُ فوقَ عُشّ صغيرِها مُحاوِلةً أن تُلقِمه الطّعام الّذي بكّرتْ لتأتيه به، مُحاولتان والثّالثة وزقزقَ الصّغير فرحًا بالوجبة الّتي تناولَها للتّوّ، أمّا هِيَ فرفرفتْ قليلاً حول العُشّ مُبتهِجةً قبل أن تنزلَ فيه وتَفرِدَ جناحها على صغيرها كأنّها تقول له: قد أكلتَ، والآنَ ما رأيُكَ أن تنام!!

ارتعشَ جسدُها من رِقّة المشهد، «والتّينةُ تَنظرُ إلى التّينةِ فتَيْنَع». تحرّكتِ العاطفة في أعماق (حَنّة)؛ فداخل كلّ امراةً ولو بلغت التّسعين أمٌّ تودّ لو أنّها تعيشُ عاطفة الأمومة من جديد، قامتْ فَصَلَّتْ، ثمّ رفعتْ يديها إلى الله: « يا ربّ إنّ لكَ عليَّ نذرًا، شكرًا لجلالك، إنْ رزقْتني ولدًا مثلما رزقتَ هذا الطّائر، ومثلما أَوْرَقْتَ هذه الأشجارَ، لأتصدّقنَّ به لبيتِكَ المُقدَّس فيخدمُ فيه لأجلك». ثمّ خطَرَ ببالها أنّها عاقر فكفّتْ أيديها، وهي تهمِسُ في روحها: «يا لَلشّيطان، كِدتُ أنسى نفسي؛ وهل تَلِدُ عاقر؟!». ثمّ إنّها سمعتْ صوتًا بعد ذلك يقول لها: «لقد أجبتِ داعِيَ الشّيطان». انتفضتْ مُستغفرةً، ولهجتْ بالدّعاءِ من جديد، وواصلَ الصّوت: «أفلستُم من أهل الله، فكيفَ يترككم لسِواه».

ثمّ تناولتْ جرّتها، ركزتْها فوقَ رأسِها، وتابعتِ السّير إلى بيتها، وهي على يقينٍ من أنّ دعوتها استُجيبَتْ.

وصلتِ البيتَ وهي جَذْلى، استقبلتْ زوجَها بغير الوجه الّذي ذهبتْ به، ظلّتْ صامِتةً طوال اليومِ لا تدري ما تقول، في اللّيل تكلّمَ هو بدلاً عنها. مرّتْ أشهُر قبل أنْ يكتَشِفا أنّهما ينتظرانِ مَولودًا مَنذورًا!!

لم يُتْعِبْها العُمرُ ولا الحَمْل، فَرِحَ زوجُها كثيرًا: أخيرًا سيأتي من يحفظُ نسلَ النّبوّة فينا، ويجري في دَمِه دمُ (هارون) عليه السّلام. صارَ يخدمها في كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، لم يدعها تعملُ في شيء، حتّى الماء كان هو مَنْ يَسقي لها، فإذا عَجِزَ بعثَ أحدَ المعارف ليفعل ذلك!!

في الشّهر الأخير قُبَيْل وَضْعِ المولود تَعِبَ (عِمران) كثيرًا، أنحله العُمر، ونفذتْ حربة الهَرَم إلى صَدْره فما يكاد يهدأ من السُّعال، وانقضّ عليه ذئبُ الشّيخوخة فقضمَ ما تبقّى من عُمره، وركبتْ مناكبَه السّنون

فأحنتْ ظهره حتّى عادَ كالعُرجون القديم، وأيقنَ أنّه الموت، وأنّ الله لاقيه، فنادى زوجته، ليوصيها:

- إنّه أمرُ الله، وهو نافِذٌ فينا.
- تجمّلْ بالصّبر، أتذكر... بعدَ كلّ هذا العُمر ما أعاشنا في هذا النّعيم الّذي نحنُ فيه إلاّ الصّبر.
- المولود الّذي في بَطنكِ، كيفَ هو؟!
- مُبارَكٌ في السّماء والأرض.
- إنْ جاءَ ذَكَرًا فَسَمِّه (هارون)، لعلّه يكون كجدّه.
- وإنْ جاءَ أُنثى.
- فَسَمِّها أنتِ.
- لا تَنْسَي أنْ تَفِي بالنَّذْر.
- سأفعل.
- ولا تقولي كيفَ أتركه بعيدًا هناك في أورشليم.
- لا ... خِدمةُ الله لا يَعدل ثوابَها شيءٌ.
- أرى الرّجل الواقف في الباب بثيابِهِ البيضاء ينتظرني؛ أترَينه؟!
- لا. هلاّ دَعَوْتَه للدّخول!!
- إنّه يدعوني أنا؛ لقد حانتْ منيّتي.
- واكَرْباهُ عليكَ يا عمران.
- لا كربَ عليّ؛ لِمَ يكونُ الموتُ كربًا!! الموتُ باب؛ والبابُ مَفتوح.

خفتَ صوتُه تدريجيًّا، وهبط صدرهُ مرّة واحدة، وارتخَتْ يداه على الأرض... أسبلتْ جفنَيه، وتلتْ صَلَوات الله على روحه الطّاهرة، ثمّ تركتْ لدموع عينيها العنان.

في اللّيلـةِ الثّالثـة نامـتْ عندهـا إحـدى الجـارات لتقـومَ بتوليدهـا، انتصـفَ اللّيـل، وأوَتَـا إلى النّـوم، في السّـكون المُخَيّـم عـلى كلّ شيءٍ، شـعرتْ (حَنّـة) بـألمٍ خفيـفٍ في بطنهـا، اسـتيقظتْ. تأوّهـتْ بصـوتٍ خافـتٍ. فتحـتْ جارتُهـا عينَيهـا. عرفـتْ أنّ سـاعةَ الـوِلادةِ قـد أزفـتْ. قامـتْ بسرعـة. سـخّنتْ لهـا المـاء. وأعـدّتْ لهـا المناشـف. وقعـدتْ عنـد رجلَيهـا. طلبـتْ منهـا أن تدفـعَ بـما تسـتطيعُ مـن قـوّة. نـدّتْ آهـاتٌ مكتومـةٌ بـين فـترةٍ وأخـرى. كَظّـتْ حنّـة عـلى أسـنانِها لحظَـةَ الـولادة. أدركـتْ أنّ الفـارِقَ بـين الموتَـين والحياتَـين هـي صرخـةٌ واحِـدةٌ؛ هـي صرخـةُ الخـروج، فصرختْهـا!!

نزلـتِ المولـودة دون أن تبكـي. حملتْهـا الـوَلاّدة بعـد أن قطعـتْ سُرّتهـا، مـدّتْ بهـا إلى حَنّـة:

- إنّها أنثى. (قالتِ الولاّدة).
- الحمدُ لله.
- لو كانتْ ذكرًا.
- لا تقولي ذلك. (نهرتْها).

قامـتْ (حنّـة) مـن رَقدَتهـا، قبّلـتْ صغيرتَهـا، وقبـلَ أن تُرضِعهـا، رفعـتْ عينَيْهـا إلى السّـماء: «رَبِّ إنّي وَضَعْتُهـا أنثـى. وهِـيَ لـكَ. وقـد وهبتُهـا لخدمـةِ بيتِـكَ المُكـرَّم. وإنّي سَـمَّيْتُها مريـم. وإنّي أُعيذُهـا بِـكَ وذُرّيّتهـا مـن الشّـيطان الرّجيـم. فتقبّـلْ يـا ربّ.

حـينَ انقـضى نُفـاسُ (حَنّـة) شـدّتِ الرّحـال مـن النّـاصرة إلى بيـت المقـدِس؛ لفّـتْ (مريـم) في خِرقـةٍ، ولم تجـدْ راحلـة، فحجّـتْ ماشِـية لتفـي بنذرهـا. نهضـتْ في أحـدِ الصّباحـات مملـوءةً رِضىً وسـعادة؛ هـا هـي (مريـم) نَـذْرُ الله، ستشـبُّ في أكنـاف البيـت، لتمـلأ روحَهـا الآيـات.

أخذتْها الطّرق المُنعرِجة داخل النّاصرة هُبوطًا إلى السّهل الفسيح باتّجاه أورشليم. كانتِ النّسماتُ الباردة تُنْعِشُ فؤادها وهي تغذّ السّير عازِمةً أن تتحمّل كلّ شيءٍ في سبيل الوفاء.

ظلّ النّهار رفيقها وهي تحدو قِبلَتَها جنوبًا، وحجارةُ الطّريق تأكلُ من قدَمَيها، حتّى إذا انتصفَ النّهار، أوتْ إلى جدارٍ مُهدّم وألقتْ بجسدها المُتعَبِ في ظلّه، وتناولتْ جرّتها لكي تُطفِئَ عطَشَها. ثمّ أكلتْ مِمّا تزوّدتْ به من تمرٍ وخبزٍ وعسلٍ. أرضعتْ مريم. ثمّ قامتْ. أردفت الصّغيرة خلفَ ظهرها فوقَ زوّادتها، وغذّتِ السّير باتّجاه أورشليم معتمدةً على عصا ادّخرتْها لهذه الغاية.

هبطَ عليها الليلُ قُبيلَ السّامرة. خافتْ أن تدخلها مع ابنتها؛ فهي تعلم أنّه غيرُ مُرَحّبٍ بهما هنا. فنسلُها يُعدّ نسلاً دُونًا بالنّسبة لنسل السّامريّين. حمدت الله أنّ اللّيل غطّى وجودَها. قامتْ بين يدَي المولى. صلّتْ طويلاً. اتّخذتْ لها فِراشًا من حصيرةٍ كانتْ قد لفّتْها في زُوّادتها، وأضجعت ابنتها في حِجرها. وراحتْ في نومٍ عميق.

في الثّلث الأخير من اللّيل استيقظتْ. كان عليها أن تُغادر قبل أن يراها أهل السّامرة. من جديدٍ راحتْ خُطُواتها تنهبُ الأرض. تجاوزتِ السّامرة ولم يرتفع من الشّمس إلاّ بمقدار إصبعٍ في الأفق. شعرتْ بالعطش والجوع معًا. وكذلك أحسّتْ أنّ ابنتها بها ما بها. مدّتْ يدها إلى الجرّة الصّغيرة؛ ليسَ ثمّةَ ماء. وإلى الزّوادة؛ ليسَ ثمّةَ طعام. تعرفُ من رحلاتها السّابقة إلى أورشليم بعضَ الآبار المُنتشرةِ على طريق المُسافرين. عادتْ بذاكرتها إلى الوراء. أقربُ بئرٍ تبعد مسافةَ نصفِ نهار. لا تُوجَد خيارات كثيرة لمناقشتها. الهروب إلى الأمام هو الخيار الوحيد. ومضتْ.

رفعتْ وجهَها إلى السّماء. أغشتْ بصرَها أشعّةُ الشّمسِ القويّة. ردّتْ طَرْفها ومدّتْ يديها إلى الأعلى. يا ربّ لا يخيبُ ساعٍ إلى رحابِك. إنْ قضيتَ عليّ الموت فبلّغْني وفاءَ نذري ولو في رمقي الأخير. ومضتْ.

جفّ لعابُها. نَشِفَ صدرُها. وبكتِ الصّغيرة. ومضتْ. أسالتِ الحجارة المُتناثِرة على الطّريق التّرابيّ بعضَ الدّماءِ من رجلَيها. فكّرتْ بأنْ تلعقَ ذلك السّائل. انحنتْ. مدّتْ إصبعها إلى باطن قدمها. ظفرتْ بقليلٍ من الدّم وكثيرٍ من الغبار. مسحتْ العرقَ المُتصبّبَ على وجهها. قرّبتْ كفّها مع قطرات العرقِ من لسانها. كَفّتْ في اللّحظةِ الأخيرةِ. ومضتْ.

صار صوتُ لُهاثِها ضعيفًا كأنّما هو قادمٌ من جسدٍ يهمّ بالانطفاء. ملأتْ رِئتَيها من الهواء النّقيّ لتطردَ ذلك الفاسِدَ في أنفها. أغمضتْ عينَيْها. حاولتْ أن تتذكّر. مرّتْ صُوَرٌ عديدةٌ لرحلاتٍ كثيرةٍ قامتْ بها باتّجاه أورشليم. اختلطتِ الصّور فيما بينها. ركضتْ سريعًا من أمام مُخيّلتها. لحقتْ بها مُسرِعةً لتُمسِكَ بإحداها. لم تستطعْ. حاولتْ من جديد. نجحتْ. التقطتْ صورةً من بِئر الذّاكرة العميقة. كانت الصّورةُ في طفولتها. بدتِ الصّورةُ واضحة. الماءُ لم يَعُدْ بعيدًا. ومَضَتْ.

الذّاكرة تُسعِف. الذّاكرة لا تَخونُ إلاّ مَنْ يَخُونها. الذّاكرةُ حبلُ النّجاة من الموتِ أحيانًا، ولا تكون حبل المشنقة إلاّ لأولئك الّذين لا يحتفظون بها طويلا. كانتِ الشّمسُ قد حادتْ عن مركزها السّماويّ قليلاً حينَ بدا لها بِئرُ الماء من بعيد. تسمّرتْ مكانها. كتمتْ أنفاسها. جثتْ على ركبتَيها. سَجَدتْ هِيَ ومريم. نهضتْ من جديد. ومضتْ.

أنزلتِ الدّلو عميقًا، سمعتْ صوتَ ارتطامِه بالماء. كانَ صوتَ الحياة. يُؤجّل الماءُ الموتَ لكثيرين؛ حَنّة كانتْ واحدةً من هؤلاء في تلك

الظّهـيرة. صعـدَتْ رائحـةُ النّـدى وبَـرْدُ قَطَراتـه مـع الدّلـو المملـوءة بالمـاء. تناولـتْ هَديّـةَ الله. أفرغـتْ كلّ مـا في الدّلـو عـلى رأسِـها ورأسِ صغيرتهـا، وهـي تضحـكُ بصـوتٍ عـالٍ. أعـادتِ الدّلـو إلى القـاع مـن جديـد. وصلهـا صـوتُ ارتطامـه بالمـاء كـما لـو كانَ لحنًا عذبًا مـن ألحانِ البلابل في الصّباحـات الرّبيعيّـة. شربـتْ حتّـى ارتـوتْ. وسـقتِ ابنتهـا حتّـى اسـتقرّ وجيفُهـا. ومضـتْ.

التقتْهـا امـرأةٌ أخـرى في الطّريـق. كانـتْ صافِيـةَ العينَـين، رائقـةَ البسـمة، مُشرِقـةَ البـشرة؛ كأنّهـا ليسـتْ مـن أهـل الأرض، مـدّتْ يدهـا إليهـا ببعـض الأرغفـة. وغابـتْ فجـأةً كأنْ لم تَكُـنْ. أكلـتْ فلـم تَجِدْ أطيـبَ مِمّا أكلـتْ في ذلـك اليـوم. أرضعـتِ ابنتَهـا. والتقـتْ نظراتهـما في منتصـفِ المسـافةِ بـين النُّبُـوّة والسّـماء. كانـتْ عَيْنـا الصّغـيرة تقـول: «هُـوَ مِـنْ عِنـدِ الله». ابتسـمتْ حَنّـة. هتفـتْ: مُبارَكـةٌ أنـتِ يـا بُنيّتـي. ومضـتْ.

ركزتِ المُطهّـرةَ على ظهرهـا، مـا أخفَّ ما تحمل!! مـا أرقَّ مَـنْ تنظر!! وهبتْ للطّريقِ خُطُواتها مـرّة أخـرى. حتّـى إذا خفتـتْ حـرارةُ الشّـمس، كان التّعـبُ قـد عـبرَ روحَيهـما. لم تعـدِ المسـافةُ كبـيرةً تلـك الّتـي تفصلهـا عـن أقـربِ الطُّـرُقِ إلى السّـماء. لكنّهـا كانـتْ تُريـد لقاءهـا في ضاحيـة النّـار لا في حالكـةِ اللّيـل؛ فأراحـتْ جسـدها في اللّيلـة الثّانيـة. في المنام جاءَهـا عمـران:

- كيفَ حالُ الصّغيرة؟!
- إنّها بخير. لكنّني خائفة.
- مِمّ؟!
- لِمَنْ سأترُكها هناكَ.
- لا تخافي؛ سيتولّى أمرها عبدٌ من عباد الله الصّالِحين.

استيقظتْ مسرورةً. كان الليلُ يتخلّى عن غِلالته السّوداء على التّلال البعيدة لصالح أجنحة الضّياء... ورويدًا ورويدًا استسلمتِ الأرضُ لأمواج النّور الطّافحة. أمّا هي فاتّكأتْ على ميراث النّبوّة لتصل إلى البيت المُقدّس. ومضتْ.

شعرتْ بهواء أورشليم يملأ المكان من حولها، أيقنَتْ أنّ المسافةَ صارتْ قريبة. وأنّ وفاءها بالنّذر يبلغُ مُنتهاه. بدا أنّه الجبل الأخير الّذي يحجزها عن الموعد المنتظر. صعدتْه خُطوةً خُطوةً دون أن ترتاح. كان المُنحَدَر يُعيدها إلى الوراء، وهي تُقاوِمه بإرادة الشّوق فتتناسَى التّعب. لم تُعِر انتِباهًا لصوتِ لُهاثِها العالي وهي تقطع الجزء الأخير منه بعزيمةٍ فائقة؛ حتّى إذا لم يبقَ إلاّ بضع خطواتٍ لِتُطِلّ على الآتي. سرقت هذه الخُطواتِ من المسافةِ راكِضةً، وحينَ استوتْ على قمّته شهقَتْ شهقةً كادتْ تسقُطُ من هَوْلها، كانتِ قُبّةُ المعبد الذّهبيّة تلمعُ كأنّها تُحيّي الزّائرَ المُنتَظر. يااااه... يا لَروعةِ المشهد؛ منذ سنين الأسى وأنا أنتظرُ هذه اللّحظةَ الفارقة.. يا ربّ إنْ بلّغْتَني نَذْري فلا أريد جزاءً أكثرَ من القَبول. هبطتْ على الأرض. تلقّفت ابنتَها، طبعتْ على خَدّها قبلةً عميقة: لقد جِئتِ إلى هذا العالَمَ بنورٍ من الله، طيّبةٌ أنتِ والله لا يقبلُ إلاّ طيّبًا. مُباركةٌ أنتِ في العالَمين. ومضتْ.

(٧)

أيُّ ماءٍ يُرضيكُم؟!

وصلتِ السّاحةَ الفسيحة غربيَّ الجدار. كانَ يومَ السّبْت، والمعبدُ يَعُجُّ بالمُصلّين. قصدتْ بيتَ أُختِها (أليصابات) فهي منذ أكثرَ من ثلاثة أعوامٍ لمْ ترها، كانتْ هِيَ وزوجُها (زكريّا) يَسكُنان في كنف البيت، على مقربةٍ من ذلك الجِدار الغربيّ. استقبلتْها أختُها على الباب. لفّتْ ذراعَيها حولَها وغاصتْ في أحضانِها وهي تَبْكِي من الفرح: «يا مريم... ها خالتُكِ؛ أُمُّكِ الثّانية».

جَلَستا في الدّاخل، وبينما كانتْ (حَنّة) ترتاح من عناءِ سَفَرٍ طويل، كانتْ (أليصابات) تُعِدّ لها الطّعام في المطبخ الصّغير، أرجعتْ جذعها إلى الوراء ومدّتْ عُنقَها باتّجاه غرفة الجلوس، ونادَتْها من هناك بصوتٍ عالٍ، لتسمع:

- كيفَ كانتِ الطّريق يا حَنّة؛ طويلة؛ أليس كذلك؟!
- بل قصيرة؛ تكونُ الطّريقُ طويلةً إذا صَحِبَ فيها الإنسانُ غيرَ الله؛ أمّا أنا وهذه الصّغيرةُ فكان الله معنا.
- لقد تحمّلْتِ كثيرًا يا أختاه.
- لستُ وحدي؛ أنتِ وزكريّا كذلك. والأنبياءُ كلّهم هذه سُنّتهم.
- الحمدُ لله.

جاءَتْها بالطّعام، دَعَتْها لتأكل؛ كلُّ لُقمَةٍ تُرفَع إلى الفَمِ فيها من

قلبِ الدّاعِي شيءٌ؛ فإذا انطوى على الصّفاءِ كان الطّعامُ صافِيًا طَيِّبًا، وإذا خالطَه وشابَه الكَذِبُ والرّياءُ كانَ الطّعامُ مُرًّا. أكلتْ فأَلِفَتْهُ هَنيئًا مريئًا. نظرتْ من النّافذة المُنخفضة باتّجاه البيت، كانتِ الأرضُ المُنبسطةُ فوق جبلٍ تبدو كأنّها كَفٌّ مَمْدُودةٌ تحتَ قُبّة السّماء... وجذوع الأشجار الّتي تُحفُّ الجوانب بدتْ رُهبانًا وقفتْ بين يَدَي الله، لا تتعبُ من الصّلاة، ولا تنوي أن تُغادرَ الأرضَ لِمَا وجدتْهُ عندها مِن ارتياح!!

تنهّدتْ (حَنّة) وهي تشربُ الماءَ بعد أن أنهتِ الطّعام، رفعتِ الصّغيرةَ بين كَفَّيْهَا، وقالت:

- يجبُ أن أصلَ إلى المَعبد.
- نامي هنا يا أختاه، وغدًا بعد أن ترتاحي، تستطيعين الذّهاب.
- لا... عليّ أن أَفِي بِنَذري قبلَ أنْ يقضي الله فِيّ أمره.
- وعندَ مَنْ ستتركينَ هذه الصّغيرة.
- بينَ يدَي رَجُلٍ صالحٍ أخبرني عنه (عمران) في المنام.
- وهل ذكرلكِ اسمه. (قالتْ أليصابات ذلك بلهفة، لعلّها تذكر الاسم الّذي يدور في خَلَدِها)
- كلاّ؛ وحده الله يعلم.
- ووحده يعلمُ مَنْ هو أحقُّ بكفالتها.

ودّعتْها عندَ الباب، ومضتْ وقُربُ الوفاء بالنّذر يَزِيدُها شوقًا إلى الوصول للمعبد. صعدتْ مرتفعًا بسيطًا من الأرض، وارتقتْ بضع درجات قبل أن تُصبح على مسافةٍ قليلةٍ من المكان الّذي يعبدون الله فيه. في السّاحة رأت أشكالاً وألوانًا كثيرةً مِنَ الصّائلين هناك، لم تعرفْ أحدًا. ميّزتْ (قَيافا) كان يَقِفُ كعادته في حَشْدٍ مِنَ النّاسِ يَعِظُهُم، وكثيرًا ما كانت

تنتهي مواعظه كالعادة بطلبه منهم أن يدفعوا لبيتِ الرّبّ كُلَّ ما يَقدِرون، لأنّ ما يدفعونه هنا هو وَحدَه ما يَلقَونه هناك يومَ يَلقَونه!!

تجاوزتْه، وهي تأنفُ ما تسمع، لم يكنْ ليروقَ لها (قَيافا) هذا، فلطالما رأتْ شياطين الطّمع والنّفاق تدورُ حول فمه، أشاحتْ عنه بوجهها وواصلتْ مَسيرها باتّجاه المَعبد. وجدتْ زكريّا على بابه، كان زكريّا آنذاكَ قد تجاوزَ العقدَ الثّامنَ من عُمُره. رحّب بها:

- أهلاً بكِ يا (حنّة). قُدومٌ مُباركٌ. هلاّ زُرتِنا في البيتِ فنأنسَ بكِ.
- لقد كنتُ هناك عندَ أختي للتّوّ.
- رَحِمَ الله (عمران)؛ لقد كان رَجُلاً صالحًا.
- صلّيتُ لله في كلّ يومٍ ليتقبّلَ رُوحَه.
- وهل هذه مريم؟!
- بلى.
- منذُ عامٍ وأنا أراها كما أراها الآن!!
- لقد نذرتُها لخِدْمةِ البيت. سأعود إلى النّاصرة اليومَ أو غدًا وسأتركها هنا؛ فمَنْ تُراه سيكفلها؟!
- أتوقُ أنا إلى فِعل ذلك. ولكنَّ الأمر لنْ يكون بيدي؛ فآخرون يودّون ما أودّ. غير أنّني سأستميتُ للتَّبرُّكِ برعايتها لعلّ الله يستجيبُ دعائي.
- ها هي بَيْنَ يديك. أرجو أن تُؤدّي حقَّ الله فيها.

ثُمَّ دَفَعَتْها إليه. أخذها. ولّتْ ظهرها. أشاحتْ بوجهها بعيدًا لكي لا يرى (زكريّا) دمعةً تسقطُ من عينَيها. مشتْ خُطوتَين. توقّفتْ. تحسّستْ مكانَ قلبِها. أحسّتْ أنّه فارغ. هل ينتزعُ مولودٌ قلبَ أمّه عندَ الفراق؟! بدا

ذلك واضِحًا؛ فلقد أخذتْهُ مريم معها!! هَمّتْ بالرّجوع لتسترجع الصّغيرة؛ لولا أنّها تذكّرتْ نَذْرها. فَعَدَلَتْ. حاولَ معها الشّيطان مرّة أخرى مُستَغِلاًّ عاطفةَ الأمومةِ المُتفجّرةِ في أعماقها؛ فأسكتَتْه باستعاذة. رفعتْ وجهها إلى السّماء فعادَ قلبُها إليها. دَعتِ الله من جديد. فتقبّلَها ربُّها بِقَبولٍ حَسَنٍ.

أمّا زكريّا فحضنَ الصّغيرة ودخلَ فيها إلى المعبد، صعدَ عبرَ درجاتٍ حلزونيةٍ إلى الغرفةِ المُعدّة للتَبتُّل، فوضعها في المِحراب، ثمّ نادَى في القِدّيسين أنْ هَلُمّوا... تجمّع أكثرُ من عشرةٍ من الأطهار الأبرار، بعضُهم كان يعرف سبب الاجتماع، وبعضُهم لم يكنْ يدري فيمَ جمعهُم زكريّا بصوتٍ مختلفٍ هذه المرّة. وحينَ شكّلوا حوله دائرةً، وقف بينهم خطيبًا:

- هذه مريم ابنةُ عِمران، إنّها أَمَةُ الله، وإنّ خالتَها عندي؛ والخالةُ بمنزلةِ الأمّ، وأنا أحقُّ النّاسِ بكفالتِها.
- لقد جاوزكَ الرّأيُ يا زكريّا. إنّه وإنْ كان الحسَدُ غير لائقٍ بنا، إلاّ أنّه في عظيم الأجر كائنٌ، فلنْ أَدَعَها لك. (قال ذلكَ أحدُهم).
- ومَنْ أعطاكُما حقّ الكلامِ عن البقيّة، أنا أولى النّاسِ بها، فإنّما أبوها مِن نَسْلِنا نحن. (قال ثانٍ).
- أنا لن أخرج من هنا إلاّ وأنا كافِلُها، إنّها بنتُ إمامنا الّذي كان يَؤُمّنا في الصّلاة، ونحنُ أولى بِها مِنْ سِوانا. (قال ثالثٌ).

وعَلا صوتُ اثنَي عشرَ قِدّيسًا كُلّهُم يرى فيها رأيه، ويعتقدُ فيها اعتِقاده، وتنازَعوا نِزاعًا شديدًا حتّى أشارَ لهم زكريّا بيده، أنِ اهدَؤوا، لا بُدّ مِنْ حلّ؛ فما رأيكم؟

فقال أحدهم:

- نجعلُها كلَّ يوم في كفالةِ أحدنا، فلا يَفوتُ أيًّا مِنّا البركةُ.
- إنّ هـذا لَيَشُـقُّ عليهـا ويُؤذيهـا وهـي مـا زالـتْ في المَهـد. (ردّ زكريّـا).
- فما قولُك؟!
- أن نقـترع (أجـابَ زكريّـا)؛ فمـنْ خرجـتْ قرعتُـه كانـتْ إرادةُ الله معـه.

فقالوا جميعًا بصوتٍ واحدٍ:

- نَقبَل.

كتبوا أسـماءَهم، كُلُّ قِدّيس خَـطَّ اسـمه عـلى ورقـة، فجُمِعـتِ الأوراق في مكانٍ واحـدٍ، وغُطِّيَتْ بِقِـماشٍ حَجَبَهـا عـن أن تُـرى، ثُـمّ دَعَـوا طِفـلاً لم يبلُـغِ الحُلُـم أن يأخـذَ منهـا. فلـمّا هَـمّ أن يفعـلَ أمسـك (زكريّـا) ذِراعَـه؛ فقـال: أَوَ تَشـهدون أن تقبلـوا بِمَـنْ يخرج اسـمه في الورقـة الّتـي بيـنَ يـدَي هـذا الغُـلام؟! قالـوا: بـلى. فأرسـلَها زكريّـا. فتنـاول الصّبـيُّ ورقـةً منهـا، فخرجـتْ ففتحهـا أحدُهـم فقـرأ فيهـا اسـمَ زكريّـا. فصـاح مُبتهِجًـا. ومـضى نحـو الصّغـيرة، لكنّـه مـا كادَ يفعـل حتّـى اعـترَضَ سَـبيلَه أحـدُ القِدّيسـين: إنّـكَ مـا أنصفـتَ؛ كأنّـكَ خَدَعْتنـا؛ لقـد أمسـكتَ يـد الصّبـيّ، فجـرى عليـهِ أثَـرُك، وإنّـا لا نقبـل بذلـك.

حـارَ (زكريّـا) فيـما سَـمِع، وودّ لـو أنـه لم يمـسَّ ذراعَ الصّبـيّ البتّـة، لكنّـه تـداركَ الأمـر قائِـلاً: نُعيـدُ القُرعـةَ إذًا؟! أجابـه الّـذي اعـترَضَ، لكـنْ نقـترعُ بالسّـهام لا بـالأوراق. فـردّ زكريّـا عـلى الفـور: وأنـا قَبِلـتُ.

ثُـمّ إنّهـم جَمَعـوا سِـهام مُحارِبيهـم، واقـترحَ أحدُهـم أن يُكتَـب عـلى ذيـلِ

كُلِّ سَهمٍ اسمَ كُلِّ أحدٍ فيهم، ثُمّ يذهبون بها إلى الرّواق الطّويل، فيُوضَعُ كُلُّ سَهمٍ في كلّ كُوَّةٍ مِنَ الكُوى الاثنتي عشرةَ، ثُمَّ يُؤتَى بصبّيٍّ فيُوقِفونه في أوّل الرّواق، ثُمّ يُخلّونَ بينه وبَيْنَ الكُوى، فينطلِق، فيأخذ السّهم من الكُوّة الّتي وقف عندها، ففعلوا، فوقفَ الصّبيّ عند إحداها، ومدَّ يَدَه، فأخرجَ سَهمَ زكريّا. فصاح زكريّا حِينَئذٍ: هي في كفالتي إذًا، وها أنتم جميعًا قد رأيتُم.

ومضَى إلى المحراب ليضُمّ (مَريمَ) إليه، فاعترضَ سبيله في أوّل الدّرجاتِ الصّاعِدات إلى غرفتها أحدُهم، وقال: ما أنْصَفْتَنا، إنّما هذه السّهام سِهامُ خطيئةٍ، كانتْ قد استُخدمت في الحروب، وإنّ الآثامَ لَتَعلَقُ بها عُلُوقًا، وإنّي لأرى دماءَ الأبرياءِ تُسيلُ فوقَها، وليستْ بطاهرةً تمام الطّهارة. ويجوزُ أن يكونَ بعضُها قد وقعَ في أيدي لُصوصٍ وشُذّاذٍ ومَرَقة، فبأيّ وجهٍ نقبل الاقتراع عليها؟!!

فامتعضَ زكريّا آنئِذٍ، فقال:

- إنّكم أهلُ جِدالٍ ومُماحَكة، فماذا بعدَ الحَقِّ إلاّ الضّلالُ المبين.
- دَعْنا نُعِدِ الكرّة.
- لا أقبلُ، قدْ كَتَبَها الله في كَفالتي، وأنا حقيقٌ بها، وأنتم شاهِدون على ما حَدَث.
- مرّةً أخيرةً، إنْ كانتْ لكَ فَعَلى بَركته. (قال أحدهم، مُقتَرِبًا من زكريّا راجِيًا).
- تَقبّلوا قَدَر الله مرّةً يا إخوتي. (قال لهم زكريّا وهو يبتعدُ عنه قليلاً).
- سنقبل هذه المرّة.

- من أجلكم أفعل. فبأيّ طريقةٍ تودّون؟!
- بالأقلام. (قال أحدهم)
- الأقلام الّتي كتبْنا فيها التّوراة. (قال ثانٍ).
- فإنّها طاهرةٌ مُنَزّهةٌ مُقدّسةٌ. (قال ثالث).
- وأنا قَبِلتُ. فماذا تَفعلونَ بها؟! (ردّ زكريّا)
- نُلقِيها في الماء. (قال رابع).
- ثُمّ...؟! (قال زكريّا).
- أيُّنا طَفَا قلمُه على سَطحِ الماء فهو صاحِبُها.
- أَقْبَلُ. (ردّ زكريّا).
- ولكنْ... (اعترَض خامس).
- ماذا بعدُ؟! (سأل زكريّا مُتذَمِّرًا).
- ليسَ في أيّ ماء!!
- فأيُّ ماءٍ يُرضِيكُم؟! (سأل زكريّا).
- ماءُ الأردنّ. (أجاب).
- ماءُ الأردنّ؟! المسافةُ بعيدةٌ. (اعترَض زكريّا).
- والأمرُ يستحقّ. (قال سادِس).
- وأنا حُبًّا بالله أقبل. (رَدّ زكريّا).

ثُمّ كان انقضاءُ اليوم الّذي تجادَلوا فيه، حتّى إذا جَنّ اللّيل، لَمْ يأوِ أحدٌ منهم إلى فِراشه، بل قامَ يُناجِي الله أنْ تكونَ في كفالته، حتّى إذا بزغَ الفجر، صلّوا مَأمومين، والتَقوا عند باب المعبد يحمِلُ كلُّ واحدٍ منهم قلَمه، وساروا مُشْرِقين. قَضَوا سحابةَ نهارٍ كامِلٍ في الطّريق، دون أن يرتاحُوا حتّى إذا وصلوا النّهر، سجدوا لله شُكرًا، فلمّا قاموا من سَجدتهم، أعدّ زكريّا لهم الطّعام، فأكلوا، فلمّا انتهَوا، أمرهم زكريّا أن يغتسلوا في النّهر، ففعلوا. فلمّا اجتمعوا من جديد، أَشْهَدَهم على أنفسهم ألاّ ينكثوا هذه المرّة فَشَهِدوا.

ثُـمّ إنّهـم وقفـوا صَفًّـا واحِـدًا، اثنَـي عـشرَ عابِـدًا ونبيًّـا، فألقَـوا أقلامهـم مـرّةً واحدةً، فـما لَبِثَـتْ أن غاصـتْ كلّهـا إلى قـاع النّهـر إلاّ قلـمَ زكريّـا، فصـاح: الآنَ «حَصْحَـصَ الحـقّ»، و«بـيَّنَ الصُّبـحُ لِـذي عَينَـين»؛ وإيّاكـم أن تنكثـوا. وأمرهـم أن يقبلـوا بـما قَبِـلَ الله بـه. إلاّ أنّ أصغرهـم، وقـف في الجَمْـع فقـال:

- إنّا يا زكريّا نقبَلُ، لكنْ أيُّ فَضْلٍ لك في هذا؟!
- وماذا تقصدُ يا أخي؟! (سأله زكريّا مُستغربًا).
- إنّ قلمـكَ طَفـا لأنّـه أجـوف، وأمّـا أقلامُنـا فَمَـلأى؛ فأنـتَ لم تنسـخْ مـن أسـفار التّـوراة منـذ أيّـام؛ وهـذا ليـسَ بعـدلٍ.

غَضِـبَ زكريّـا مـن قَوْلتِـه تلـك، لكنّـه كان يعلـم أنّ الجِـدال لـن يـأتي بِفائـدة، وأنّ الحجـج الّتـي سيسـوقها لـن تُقنِـعَ أحـدًا، ولكـي يحسِـمَ الأمـر، قـال لهـم:

- لـن أحظَـى بكفالتهـا إلاّ بمعجـزة!! (صـاحَ بهـم، وهـو يرفـعُ يديـه مُلَوِّحًـا بهـما فـوق رأسـه).
- أيّةُ معجـزةٍ يـا زكريّـا؟! (سـألوا بصـوتٍ واحـدٍ كأنّـما تدرّبـوا عـلى إلقائـه معًـا).
- ألم تأتِ مريم إلى الدُّنيا بمعجزة؟!
- بلى.
- فأنـا سـأتولّى أمرهـا بمعجـزة؛ أليـسَ مـن الواجِـبِ أنْ تُضاهَـى المُعجِـزةُ بمعجـزة؟!
- بلى. فما مُعجِزتُك؟! (سألوا مُتَحَدِّين)
- ألا ترونَ هذا النّهر؟!
- بلى.
- ألا تُشاهِدون جرَيانَه؟!
- بلى.

- ففي أيّ اتّجاهٍ هو يسير؟!
- من الشّمال إلى الجنوب.
- صحيح.
- وماذا بعدُ؟! ماذا تريد من وراءِ هذا القول؟!
- سنُلقِي أقلامَنا من جديدٍ، فمن سار قلمُه مع التّيّار وهو الأمر الطّبيعيّ خرجَ من الحُظوة، ومن سارَ قلمُه عكسَ التّيّار فله الحُظوة.
- وكيفَ يمضي قلمٌ صاعِدًا والنّهر نازلٌ.
- إنّها ستكون حينئذٍ مُعجزة، وأنتم لا تُصدّقون إلاّ المُعجزات!!
- إذًا نقبل.

فألقَوا أقلامهم الثّانية، فجرتِ الأقلام مع اتّجاه الماء إلاّ قلم زكريّا فإنّه صعد أمام أعينهم عكسَ التّيّار، فبُهتوا. تناول قَلَمَه، ونظرَ إليهم، وابتسم:

- لا تقولوا سَحَرنا.
- سَحَرنا!!

وضعَ قَلَمَه في كِتابه، ومضى إلى أورشليم دون أن يقول كلمةً واحدةٍ، أمّا هُم فتَبِعوه مشدوهين، كأنّ ما رأوه كان حُلُمًا!!

(٨)

متى يأتي الخَلاص؟!

تقدَّمَتْ طائفةٌ من الجُندِ الرّومان ببطء، كانوا يركبونَ خُيُولاً مُدَرَّبة، تتدلّى سيوفهم أسفلَ أَرْدِيَتهم، وتتجاوز بطونَ الخُيول، عَشَرات من الخيول الّتي سارتِ اثنتَين اثنتَين في طابورٍ مُنتَظم، ظهر في أوّل الرّكب قائدُ المجموعة، كان يعتمر الخوذةَ كأنّما هو في حرب؛ الخوذة الرّومانيّة الشّهيرة ذاتِ الرّيش القَوْسيّ الأحمر، حينَ صار في منتصف حَيٍّ من أحياء بلدة (قَرْيُوط) أشارَ إلى أحدِ مُساعِدَيه الحافَّيْنِ به، فنادى ليخرج إليه رئيسُ الحَيّ، أطلَّ أحدُهم من النّافذة مُستَطْلِعًا فهالَه المنظر، كانت الكتيبة الرّومانيّة مُدجّجةً بالسّلاح، ويبدو أنّ شرًّا ما سيُحيقُ بالحيّ وأهله عمّا قريب. لَبِسَ حذاءَه على عَجَلٍ، حتّى إذا صار في السّاحةِ الّتي تضمّ الجند، كان الآخرون قد بدؤوا يخرجون من البيوت ويتجمّعون عنده. أطلّتْ وجوه كثيرةٌ من النّوافذ المُحيطة بالمكان، وهُرِع عددٌ غيرُ قليلٍ من الأولادِ الحُفاة مِمّن جذبهم المنظر الجديد الّذي لم يألفوه وإنْ كانوا مُرتاعين. تقدّم قائد الكتيبة الرّومانيّ، وخَلَفَه بمسافةٍ قصيرة مُترجمُه العبرانيّ، قال القائد:

- أينَ (عادِياء)؟!

نَظَرَ (عادِياء) حوله كأنّما يُريد أن يتأكّد من وجوه القرويّين المُحدِقةِ به أنّه سَمِعَ اسمه حقيقةً، فقرأ في وجوههم ذلك، بلعَ ريقه، وهَزّ رأسه كمن يستجمعُ شجاعةً تكاد تنفلتُ من قلبه، وتقدّم باتّجاه القائد:

- أنا هو!!

غَطّاه قائدُ الكتيبة بنظراته صعودًا وهُبوطًا، حتّى إذا استوفى النّظر فيه، هتفَ في نفسه «أكُلُّ هذا الشّغب يُثيره هذا الأخرق». كان عادِياء رجلاً في الأربعين، طويلاً، يلبس قميصًا فَضفاضًا ينسدل على جسده الأسمر النّحيل المشدود، وقد بانتْ عِظام تُرقوته لشدّة نحوله، لكنّ ساعدَيه كانا يبدُوان شديدَين لكثرةِ ما عَمِلتا في الخَزف؛ فقد كانَ صانِعَ جِرار، وباني بيوتٍ طينيّة. أمّا شعره الكَثّ المُلبّد الّذي بدا أنّه لا يسري فيه مِشط لخُشونته فقد تكوّم فوق رأسه ككرةٍ من الشّوك. وأمّا عيناه فَبَدَتا واسِعتَين سوداوَين، وشفتاه غليظتَين. وأمّا كَفّاه فبدتْ عروقهما النّافرة وديانًا تشقُّ طريقها في صحراء يده.

رفعَ القائد بصره، ونظرَ في الأفق، قبل أن يهتفَ به:

- أنا مُحاسِبُ الضّرائبِ الجديد. تولّيتُ أمر السّاحل، والمدن من الشّمال إلى الجنوب، وعليكُمْ أن تدفعوا لروما صُواعَين من كلّ ثلاث صُواعات؛ لكلّ محصول؛ يسري ذلك على القمح والحنطة والشّعير والتّمر والعنب والتّين والتّبن.
- العامُ كان جدبًا. (ردّ عادِياء مع آخر كلمةٍ نطقَ بها القائد دون أن ينتظر).

هَمَزَ القائد حِصانه حينَ فَهِمَ ما ترجَمَه الواقف إلى جانبه من كلام هذا اليهوديّ، وشدَّ لِجامَ حصانه، فعلتْ قوائمه وشقَّ صهيلُه سُكُونَ اللّحظة الّتي تفاجأ فيها بِردّه، فقال:

- يبدو أنّك لم تفهم جيّدًا. أنا لم أجِئ لأسألكَ عن العام، جِئتُ لآخذَ حِصّة روما من ثُلُثَي ما تَملكون.
- أمْهِلْنا إلى العام القادم يا سيّدي، تكون أرضُنا قد غلَّتْ.

(قـال قـرويٌّ آخَـر مـن المُتجَمْهرين).

- رومـا لا تنتظـر أيّهـا الجَرْبَـى. (صـاح في الوجـوه صيحـةً مُرعِبـة).
- وماذا نفعل إذا كان الله لم يُعْطِنا!!
- ليسَ لي شأنٌ بإلهكم أيّها المُغفّلون.

دار بحِصانـه نِصـفَ دروةٍ، وأشـار إلى الجُنـد الّـذي ينتظـرون إشـارةً منـه... حَـرَثَ الجنـود الحَـيَّ بأكملـه، دَخَلـوا كُلَّ بيـتٍ فيـه، اعتلَـوا كُلَّ جـدارٍ وقـفَ في طريقهـم، نَهَبـوا كلّ مـا وقـع تحـتَ أيديهـم، أخـذوا كُلَّ مـا اسـتطاعوا تَجميعـه مـن المحاصيـل، وألقَـوا بهـا في جـوفِ عرباتٍ كانـوا قـد أعدُّوهـا مُسـبقًا لهـذا الغَـرض.. وفي سـاعةٍ مـن الفـوضى، كانـت المحاصيـل قـد تكوّمـتْ تِـلالاً فـوق ظهـور تلـك العَربـات. انتظـم الجُنـدُ مـن جديـدٍ اثنـيَن اثنَيْن خلـفَ مُحاسِـب الضّرائـب. وصرخَ بالجُمُـوع الّتـي دبَّ فيهـا الرُّعـب:

- خُذُوا النّجّاريـن والخَزّافين والحـدّاديـن إلى السّـوق، لم تأخـذ الإمبراطوريّـةُ نصيبَهـا منهـم.

مـا إنْ حـثَّ الجُنـدُ خُيولهـم مُتّجهـين إلى جنـوب القريـة حيـثُ السّـوق، حتّـى ركضـتْ إحـدى النّسـاء فارتمـتْ عنـد أرجـل الحصـان الّـذي يركبه مُحاسِـب الضّرائـب، كانـتْ حـاسرةَ الـرّأس، ناثـرةَ الشّـعر، توسّـلتْ إليـه أن يكتفِـي هـو وجُنـدُه بـما أخـذوه للتّـوّ، كانـتِ هـذه المـرأة زوجـة الخَـزّاف الّـذي ظـلّ واقِفًـا مكانـه كلّ هـذه الفـترة كأنّ شـيئًا لم يحـدُث.

نـزل القائـد عـن فَرَسـه، نظـر باحتقـار إلى المـرأة الجاثيـة عنـد أقدامـه، رفعـتْ رأسَـها إليهـا تتوسّـله مـن جديـد فبَصَـقَ عليهـا، وهـوى بعصـاه فَضربهـا، ترنّحـتْ قليـلاً قبـل أن تفقـدَ وعيهـا، هُـرِعَ إليهـا الخَـزّاف الّـذي غـيّر وقوفـه

كتمثـال في تلـك اللّحظـة، تصـدّى لـه ثلاثـةٌ مـن الفرسـان سَـدُّوا في وجهـه الطّريـق قبـل أنْ يَصِـلَ إليهـا، كان يرتجِـفُ مـن الغضـبِ والقَهـر. توقّـف أمـام السّـدّ الّـذي شـكّلتْه الخُيـول الصّاهِلـة، امتـدّتْ إليـه ثلاثـةُ رمـاح، ركـزَ كُلٌّ مِـنَ الجُنديَّيْن اللّذَيْـن عـلى الطّرَفَين رُمحـه في خاصِرَتَيـه، أمّـا الأوسـطُ فرفـعَ بـه ذقنـه إلى الأعـلى، فأسـالَ خطًّـا رفيعًـا مـن الـدّم عـلى عنقـه حتّـى بلـغَ تُرقُوتـه، كانـتْ أنفاسُـه تعلـو وتهبـطُ بسرعـةٍ دونَ أن يُغـيِّرَ موضـعَ قدمَيـه. وبعـد لحظـاتٍ مـن الصّمـتِ العميـق بـدتْ طويلـةً جِـدًّا تراجـعَ عـلى الفـور قبـل أن يفقـدَ حياتـه. كَتَـمَ غيظَـه. تقهقـر بِضـعَ خُطـوات ليرقـبَ المشـهَد عـن كَثَـب. لم يكـفّ صـدره عـن العلـوّ والهبـوط بصـورة اهتزازيّـة. دَنـا منـه (يهـوذا) ذو الثّلاثـة أعـوام، التصـقَ بسـاقه، بكـى بصـوتٍ عـالٍ، ازداد اهتـزازُ جسـدُ أبيـه لّمـا سَـمِعه، لكنّـه لم يتمكّـن مـن مُبارحـةِ مكانـه؛ خشـيةَ القَتْـلِ والرّمـاح مُشرعـةٌ باتّجاهـه، كانُ بـكاءُ ابنـه قـد بـدأ يعلـو وتحـوّل إلى بـكاءٍ هسـتيريّ دون أن يـدري مـاذا حـلّ بالصّبـيّ!!

هتـفَ عَجـوزٌ مـن القريـة، كان يبـدو أنّـه يسـعى لتغيـير مسـار الأحـداث:

- فليَحْيَ مجدُ روما، فليتبارك اسم الإمبراطور.

أدار مُحاسِـبُ الضّرائـب رأسـه باتّجـاه الصّـوت لتقـع عينُـه عـلى هيـكلٍ يغـوصُ داخِـلَ عِظامـه، يقـف عـلى هيئـةِ قـوسٍ لثقـل السّـنين الّتـي يحملهـا عـلى ظهـره، فلّـما التقـتْ عيناهمـا، هتـفَ العجـوز مـن جديـد:

- إلى السّـوق أيّهـا القائـد الحكيـم، أليسـتْ هـذه مشـيئتُك؟! فَلْتكُـنْ.
- أُسْـكُتْ أيّهـا العَجـوز الأخـرق؛ بأمثالِـكَ اسـتعبدنا مثـلُ هـؤلاء. (قـال ذلـك أحـدّ الشُّـبّان الّذيـن غاظَـه ماسَـمِع).

استدار القائد مِنْ جديد ناحِيةَ الصّوت، وقبلَ أن يتبيّنَ صاحِبَه، هَوَى بِسَيفه على عنقه فأطارَه بلمح البَصَرِ، لم يُسمَع لحظتَها إلاّ صوتان، صوتُ صليلِ السّيف وهو يخرج من غِمده، وصوتُ ارتطامِ عنقِ الشّابّ بالأرضِ. كتمتِ البلدةُ كُلّها أنفاسَها لِثوانٍ، قبلَ أن يبدأ الصُّراخ والعويل من جديد. أشار القائد إلى جُنده رافِعًا يده باتّجاه الشّمال. امتثلتِ الكتيبةُ للأمر. وفي طريقها زرعتْ مزيدًا من الجُثَث.

لم ينَمْ (عادِياء) ليلته تلك. كأسٌ مالِحة مُرّة بأكملها استقرّتْ في جوفه. لا يُمكن له أن ينْسَى ما شاهده. «لم يَكُنْ ينبغي لها أنْ تخرج من البيت؛ هذه النّوّاحة» قال ذلك عن زوجته في نفسه، غيرَ أنّ منظرها لم يصعبْ عليّ أكثر من منظرِ (يهوذا)؛ أفكان مكتوبًا على شعبِ إسرائيل أنْ يعيشَ في الهَوان إلى يومِ السّاعة؟! لقد ولّى عَهْدُ فِرعون منذ زمنٍ سحيق، فما بالُ هذا الزّمن يحملُ إلينا مزيدًا من الفراعنة؟! ثُمّ هذا الخُروج من هناك من مصر؛ هل كانَ خروجًا إلى الجحيم!! إنّه لم يمرّ على شعبِ إسرائيل عامٌ واحدٌ هَنِيء فيه منذ حادثة الغرق في البحر الأحمر؛ إذا كُنّا سنقبلُ بهذا الذّلّ هذه السّنين كُلّها، فمتى يأتي الخَلاص؟! وإذا لم يعُدْ إيليا مُنتظَرًا؛ فمن المَسِيّا المُنتَظر؟!

تقلّبَ في فِراشِه، صمتَ عن مُحادثةِ نفسه وأصاخَ السّمع، أحسّ بأنفاسِ زوجته تَلفَحُه خلف ظهره، استدار نحوها، ورغم عتمة اللّيل الشّديدة استطاع أن ينظرَ في عينَيها، حينَ التقتْ نظراتها، لم تتمالكْ نفسَها فأجهشتْ بالبُكاء. ضمّها إلى صدره، وهمسَ في أذنها:

- لا عليكِ. أعرفُ ما يجبُ فِعله.

لم تردّ، بل عادتْ إلى البكاء ثانيةً بصوتٍ مكتوم. أردفَ:

- لقد آذاني ما فعلتِ. لماذا خرجتِ من البيتِ يا امرأة؟!
- لقدْ خِفتُ أن يقتلوك؟!
- لقد كادوا يفعلون بسببك.
- لمْ أتمالَكْ نفسي. أرجو أن تُسامِحني.
- لم يُؤذني شيءٌ أكثر من منظر الصّغير وهو يتشبّث بأقدامي. أتضرّع إلى الله ألاّ تكونَ مشاهِدُ الذّبح قد حَفِظَها عقلُه الصّغير؛ أمعقول أنّ ذاكرته ستحتفظ بمشهد كارثة اليوم؟! (سألها).
- لا أدري، لكنّه صامِتٌ وشارِدٌ منذ تلك اللّحظة، كأنّ أحدًا ربطَ لسانه، وكأنّ شيئًا ما في السّقف لا يُحوّل عنه بصره!!
- الصّدمةُ قويّة.
- لقد كانتْ كذلك على الكِبار، فكيف بهؤلاء الصّغار!!
- لكنْ لا عليكِ؛ أُقسِمُ بربِّ موسى لأثأرنّ له ولشعبِ إسرائيل ولو بعدَ حين.

(٩)

دَعْ ما لِقَيصر لِقَيصر وما للّه للّه

في المعبَد ذي المدخل المُذَهَّب الّذي أنفقَ عليه (هيرودس) مالاً طائِلاً وعملاً مُتقنًا، وزخرفهُ لعُبّادِهِ اليهود كي يُخلّصَ نفسه من تدخّلهم في السّياسة، ووضعَ لهم قاعِدةً اتّفقَ عليها مع (قَيافا): «دَعْ ما لِقَيصر لِقَيصر وما لله لله» تكونُ شرعًا لا يُسمحُ بتخطّيه.

المكان يُطهّره ويُنجّسه مَنْ فيه، ليسَ من قداسةٍ للمكانِ لأنّه بيتُ الله أو حَرَمه أو كعبته أو قِبلته، القَدَاسة للصّلوات الّتي تُتلَى فيه لله بخُشُوعٍ وصدقٍ تامَّيْن؛ ما قيمة المَسجد إذا كانتِ القبّةُ فيه من ذهب والقلوب من حجارة؟!!

ولا أحدَ يستطيع أن يجعلَ المكانَ حِكرًا عليه، فالبيتُ لله؛ والكلّ خَلْقُ الله، بَعضُهم مَضى إليه، وبَعضُهم رأى الطّريق لكنّه تقاعسَ عن السّير فيها، وبعضهم لم يرَ الطّريق فرافقَ الشّيطان، والكُلّ مُجتَمِعون هنا... هنا في هذه السّاحة المُطلّة على السّماء، الشّاهدة على عبقِ الأنبياء، والخائضة في الحُزنِ والتّعب والفرح والرّاحة في آنٍ واحدٍ. ويبدو أنّها ستبقى ذلك إلى يوم الوَعْد المَعلوم!!

وكانَ (قَيافا) المسؤول الأوّل باعتباره الكاهنَ الأعظم عن المدارس الّتي تُعلّم التّوراة في المعبد، وكانَ قدِ اتّخذَ له مُعلّمين يجلسُ إليهم (أهلُ الله) كما كان يُسمّيهم، ويتلقّون على أيديهم علومَ الدّين، وأخبارَ الأنبياء والأحبار السّابِقين، ويَقُصّون عليهم أنباء الغابِرين مِمّا حفِلَتْ به التّوراة.

كان هـذا في المسـجد. لكـنّ مـدارسَ أُخـرَى غـير هـذه كانـتْ تنتشر في معابِـدَ أخـرَى عـلى أرضِ فلسـطين، وكان يُؤمُّهـا الرّاغِبـون في المعرفـة.

وعـلى الجانب الآخر وُجِدَتْ مـدارس قليلـةٌ عـلى الضّفّـة الشّرقيّـة مـن نَهـر الأردنّ، كانَ سببُ نُشـوئِها عـدمُ رِضاهـا عـن الخَـطِّ الّـذي اختطّـه (قَيافـا) لمدارسه؛ فقـد كانـوا يـرَونَ فيه طالِبَ دُنيا، يأخُذُ أجرًا على مـا يتعلّمـه التّلاميذ، وغالِبًـا مـا تدخـل هـذه الأجُـورُ إلى جيبـهِ فـلا تخرجُ مـن هنـاكَ أبـدًا. أمّـا هُـمْ فاعتَنَـوا بتلاميذهـم أشـدّ اعتِنـاء، مـن اللّبـاسِ والطّعـامِ والـشّراب والمَبيـت، ولم يَكونـوا يَقبَلـون فيهـا أيّ أحـدٍ، بـل لم يحظَ بالدّخـول إلى مدارسـهم الّتـي كانـت تُسَـمَّى مـدارسَ الحِكمـةِ إلاّ مَـنْ ظَهَـرَتْ نَجابتُـه، ومَـنْ أثبـتَ تفوُّقَـه وانضِباطـه بالتّعاليـم الّتـي قامـت هـذه المدارسُ عـلى أساسـها، كانـتْ هـذه المـدارس قليلـةً ونـادرة وسِرّيّـة، ولا يعـرفُ بأمرهـا إلاّ الّذيـنَ اختِـيروا ليكونـوا طُلاّبًـا فيهـا. حتّـى إنّ (قَيافـا) والتّابِعـين لـه لم يكونـوا يَـدْرُونَ بأمرهـا.

وكانـتْ هـذه المـدارس السّرّيّـة تتّبـع منهجًـا صارِمًـا مـع تلاميذهـا، مِـنَ الصّـوم، والتّقشُّـفُ، والالتِـزام، واتّبـاع الضّوابـط بشـكلٍ حَرفِيّ، والصّمـتِ الطّويـل، والتّأمّـل، والجُـوع، والإيثـار، وعَـدْم بـدء المُعلّـم بالسُّـؤال، والـدّرسُ صـلاةٌ فالخُشُـوعُ فيـه فَـرض.

وكانُـوا يُعلّمـون فيهـا مِـنْ صُحُـفِ إبراهيـمَ وموسَـى وداود، وكانـوا يَعتقِـدون أنّ (قَيافـا) ومَـن قبلـه زادوا في الكُتُـبِ الّتـي بَـينَ أيديهـم؛ فاختلـطَ فيهـا كلامُ الله بـكلامِ البشر، وأمّـا كُتُبُهـم فكانـوا يعتقـدون أنّ النّـصَّ الّـذي بـينَ أيديهـم هـو نَـصُّ الألـواح الّتـي ألقاهـا مُوسَـى، فَلَـمْ تتـصرّفْ يَـدٌ بشريَّـةٌ فيـه بحـرف؛ وعليـه، فعِلمهـم حـقّ، وعلـم (قَيافـا) ومدارسـه باطـل.

أمّا زكريّا فكانَ له أتباعٌ خُلَصاء من نسلِ الأنبياء، كلُّهم يأوي إلى المعبد في اللّيالي الطّويلة، يذهبون في طريق النّور، يتركون أنفسهم، ويغادرون حيواتهم الزّائلة، ويصعدون عبر سلالم التّسبيح إلى السّماوات... وتتعطّر الطّريق الذّاهِبة إلى السّماء بالنّحيب في الهَزيع الأخير من اللّيل؛ يبكون ما أسرفوا على أنفسهم، ويتذاكرون ما نَقَضَتْه الكثرةُ الكاثرةُ من أُممِهم لعُهود الله؛ فتأخذهم رِعدةُ المَحمُوم لسوءِ الصّنيع. وكم تذكّر زكريّا أحداث الغابرين مِمّا قرأه في الكتاب، وفي اللّحظةِ الّتي كان يخطر في باله ما فعله السّامريّ بالعِجل يتقطّع من الألم، ويتلوّى من الحُزن، ويرتجف من الخوف، ويسجدُ سجودًا طويلاً لله فيسأله ألاّ يقع في الفتن، ويسأله مِنَ الفِتنة أن تصيبَ الجسدَ لا القلبَ، ثمّ تنهمرُ الدّمعات السّاخِنات.

جاءَه خاطِرٌ في ذاتِ سجود: هل السّامريّ ما زال حيًّا؟ وهل لظهوره من أوان، اثنان لَمَعا في ذهنه قابَلهما مُوسَى ولم يُعرَفْ لهما عُمرٌ، ولا ما إذا كان وجودهم لا انقِطاعَ له: الخِضرُ والسّامريّ، وظلّ سؤاله عن ظهورهما في زمنٍ ما مُعلّقًا، يحتاج إلى علمٍ إلهيّ، أو وَحْيٍ من أنباء الغيب يأتيه اللهُ به؛ لكي يكفّ هذا السّؤال عن مُلاحقتِه!!

سَمِعَ صوتًا غيرَ واضحٍ في جانبِ المعبد ظنّه في البدايةَ صوتَ (دانيال)، لكنّه تراجع عن ظنّه حين بدا الصّوتُ أقربَ إليه وأكثر وضوحًا، صوتٌ شفيفٌ لم يعهده، ألقَى في رُوعه كلماتٍ كنسائم الصّبح العليلة: «إنَّ خَدَمَ الله في الدُّجُنّاتِ اليوم هُمُ الوافِدون في ظلّ نوره غدًا». واطمأنّ قلبُهُ، فأطال السّجود.

كان يتبلّغ بالقليل، فلا يُكثِر الطّعام لئلاّ يثقل الجسد فينام عن الطّاعة؛ كلّما ثقل الجسد سهُل على الشّيطانِ قِيادُه. تعلَّمَ من آبائه أنّ عهدَ الظّلامِ سحيق، وأنَّ الطّريقَ طويل، وأنّ القاضي بصير، وأنّ المُطّلع لا تخفَى

عليه خافِية، ولا زادَ خيرٌ من الصّلوات، فإنّما الصّلواتُ ذُخرٌ لا ينفد، تُبلِّغُه المَقيل على تطاوُلِ الهَجير.

وأمّا (مريم) فاستأجرَ لها مُرضِعةً من عابِدات بني إسرائيل، كانتْ تأتيها إلى محرابها، وأمّا محرابها ففي معبدها، وأمّا معبدها فغرفةٌ يُصعَدُ إليها بدرجاتٍ صغيرات فوق معبدِ الزّاهدين الّذي كان يقضي فيه زكريّا جُلَّ وقته. وكانت المُرضِعةُ تأتيها مرّتين في اليوم، وكانتْ تَجِدُ عندها راحةً، وكلّمتْ زكريّا في شأنها ذات مرّة: «مُبارَكةٌ هذه الطّفلة، إنّني مُذْ رأيتُها والخير يُظلّلني أنا وأهل بيتي، غَلّتِ الأرض، وأثمرتِ الزّروع، وصحّتِ العِلل، وإنّي سَأُتمّ رَضَاعتها حتّى لو كان ذلك دون أجر، فيكفي أنّنا وجدْنا بركتها في أهلِ بيتنا».

فلمّا صارَ لها عامان، انقطعتْ عنها المُرضِعة، فتعهّدها هو، يأتيها بالطّعام من (أليصابات) ولا يُخرجها من المسجد مُذْ دفعتْ بها (حَنّة) إليه. وهو لا يكفُّ عن تأمُّلِ وجهها فيرى فيها ما لا يَرى. ويجدُ لكلّ شيءٍ بهجةً في نفسه، فيوقِن أنّها ليستْ كأيّ طفلة.

وشبّتْ فحفظَتْ صلواتِ الله وهي في الرّابعة، ونشأتْ في كنفِ الله وبيتِه، وكانتْ (حنّة) تزورها بين فترةٍ وأخرى، فتجدُها في الخَلَواتِ وحدها تعبدُ الله فتُوصيها بعهده، حتّى إذا صار لها عشر سنوات، انقطعتْ (حنّة) عن زيارتها، فلمّا سألتْ (زكريّا) عنها قال لها: إنّ الله ردّ عارِيته؛ وإنّه أخذَ أمانته. فبكتْ، ثمّ صبرتْ. وكبرتْ من بعدُ فعلمتْ أنّ الله يُعِدّها لأمرٍ عظيم.

غادرتِ امرأةُ عِمران الدُّنيا بجسدها، لكنّ الله أرادَ لِذكراها أن تبقَى حيّة، لأنّه أحيتْ أمر الله في قلبها، غادرتِ التّراب، تركتِ النّاصرة،

وتركتِ البيت الذي ضمّ قلبَيهما هي وزوجها، وخلّفتْ وراءَها أهلها وأحبابَها. غيرَ أنّ كلمات الله لم تُغادِرها، فأعاشتْها إلى اليوم، آياتٍ في كُتُبِ الله تُتلَى إلى يومِ الدّين، وكيفَ لا يكون لأمّ مريم هذه المنزلة، وهي الّتي أهدَى الله بها إلى البشريّة واحِدًا من أعظم الدّالّين عليه، والآخذين بزمام التّائهين إلى سبيله.

واتّخذ (قَيافا) وأتباعه دربًا غير الّتي اتّخذها (زكريّا) وأتباعه، وتباينتِ الغايات عندَ كلّ فريق؛ كان الفريق الأوّل غايتُه الدّنيا، وكان الفريق الثّاني غايتُه الآخرة. كان الفريق الأوّل همّه ما عند النّاس، والثّاني همّه ما عند الله. كان الأوّل ينظر إلى السّماء والثّاني ينظر إلى الطّين. كان الأوّل يرى جنّته في عِلِيّين، وكان الثّاني يرى جنّته في مَعبده المُذَهّب وفي دراهمِ المُصلّين.

وكثيرًا ما كانت تحدثُ بينهما حِوراتٌ مُطوّلة، يقول له زكريّا:

- إنَّ ما عندَ الله خيرٌ وأبقَى، فلا تمدّنَّ يديكَ إلى جيوبِ المساكين بذريعة الدّين.
- إنَّ جُيوبَهم تُوصِلني إلى الله. (يردّ عليه قَيافا).
- لذّةُ الدّنيا فانيةٌ وتَبِعاتها باقِية، فلا تجْمَعْ عليكَ في اللّذّة ما يزول، وفي السَّخَطِ ما يَبقَى.
- لي ما للأنبياء؛ الخُمس.
- إنّ شريعة موسى لا تقول ذلك.
- أنا أدرى بشريعة موسى ومنك ومِنْ نَسْلِكَ أجمعين.

فَيُعرِض عنه زكريّا، ويستمرّ (قَيافا) في غِوايته، ويزداد حوله المُنافِقون والمُنتفِعون، ويقلّ حول زكريّا المُخلِصون والصّادِقون. فلا يأسى لذلك؛ لأنّه يُدرِك أنّ كثرةَ اجتماع النّاسِ حول الباطل لا تُصيّرُهُ حَقًّا.

ثُـمّ يزداد الهرم على زكريّا، ويجتمعُ عليه الضّعفُ والوَحدة، ويتمنّى حينَ يغدو من بيته إلى المسجد لو أنّ له ابنًا يُرافقه في هذه الظُّلُمات، غيرَ أنّ العُمر قد مرّ، ولئنْ كانت أمنيةٌ مثلَ هذه خضراء يانِعة في زمنِ الشّباب، فإنّها صفراء يابسةٌ في زمن الشّيخوخة، لقد أفنى الكِبَرُ كلّ ما في جسمه من صِحّة، حتّى إنّ عِظامه الواهِنة لم تعد تحملُ جِسمه مع شدّة نُحوله.

واجتمعتْ عليه هموم وهموم؛ فالرّومان يعيثُون في الأرضِ فَسادًا، وبَنُو إسرائيلِ يعبدون كَهنَتهم مِمّن أضلّهُمُ الله على عِلْم كما عَبَدوا العِجل مِنْ قبل؛ يُحِلُّون ما أحلّوا ويُحرِّمون ما حَرّموا؛ فَتُظْلِمُ الدُّنيا في عينَيه لِما يَرى، ويشعر أنّ دُنُوّ أجله سيترُكُ فراغًا في الصّالِحين من بعده؛ وإنّ الأيّام لَتُنْقِصُهُمُ الواحدَ بعد الآخر، وتضيقُ به الأرضُ بما رَحُبَتْ فيهرع إلى المعبد، ويصعدُ الدّرجات إلى محراب مريم فلمّا يُصبِحُ على بابِ غُرفتِها يشعُر بانفراجٍ في همّة، واتّساعٍ في صدره، ويأتيها صوتها من هناك تتعبّدُ الله فيشعرُ أنّ عهدَ الخير لن ينقطع، وَيجد عندها الأنس بعدَ الوَحشَة، والفرحَ بعدَ الهَمّ؛ كأنّما خرج من وصبِ الدّنيا إلى نعيمٍ ثَرّ. كان محراب مريم حدًّا فاصِلاً بين عالَمين، كلّ الإنس في العالَمِ الدّونيّ الأوّل، وهي وحدها في العالَمِ العلويّ الآخِر.

وفرغتْ نفسَها للعِبادة، حتّى لم تَعُدْ تُرى إلاّ قائِمةً أو راكِعةً أو ساجِدَةً؛ كانَ ذلك في ليلٍ أو نَهار، لا تَفتُر، ولا تَضجَر، فإذا أتعبها الوقوفُ في المِحراب ركنتْ إلى كلمات الله تقرأ صُحُفَ موسى، فتمتلِئ بِعِظاتِ الله، وبأجر الصّابرين، فتهون كلّ الدّنيا في نظرها، وتتقزّم كلّ المصاعب مهما عَظُمَتْ عندها.

وخارَتْ قُواه، وهاهو عامه المِئة على الأبواب، فلم يَعُدْ يَقوَى على المسافة بينَ المسجد والبَيت، فكان ينامُ في المعبد، حتّى إذا أوى إلى فِراشه في

زاوِيـةٍ مُعتِمـة وصـلَ إليـه صوتُهـا قادِمًـا مـن فـوق، مُتسـلِّلاً كنغـمات ملائكيّـة وهـي تتلـو الكِتـاب. ثـمّ يسـمُعها تُناجِـي الله، فيقـومُ مـن مَنامـه، فيصعـد الدّرجـات مُثقَـلاً، حتّـى إذا وقـعَ بَـصُرهُ عـلى مـا عندهـا أصابَتْـهُ الدّهشـة في كلّ مـرّة، كانَ رِزقُهـا يأتيهـا رَغَـدًا في كلّ حـينٍ، فـلا يعـترفُ الـرّزق بأوانـه، يأتيهـا ثمـر الصّيـفِ في الشّـتاء، وثمـرُ الشّـتاء في الصّيـف، ولا يخلـو محرابهـا مـن طعـام مُبـارَك. فتـزدادُ قناعتـهُ رُسُـوخًا بـأنّ مريـم ليسـتْ كأيّ امـرأة، وأنّ أمـرًا عظيـمًا يُوشِـكُ أن يحـدُثَ لهـا.

لكنّ نفسه التّوّاقة إلى معرفة الله، تقوده إلى أنْ يسألها:

- يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا؟!
- هُوَ مِنْ عِنْدِ الله.
- وما هذا العِنَب وبردُ الشّتاء يثقُبُ الأنفاس.
- إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ.

وتُعطيـه الإشـارةَ الرّبّانيّـة في إجابتهـا الأخـيرة، وتُعَلّمُـهُ هـذه الفتـاةُ ذاتُ الخمسـةَ عـشرَ ربيعًـا، ويبعـثُ الله إليـه بهـا رَسـولاً وهـو الشّـيخُ ذو التّسـعة والتّسـعين عامًـا، ثُـمّ ينـزل الدّرجـات عائـدًا إلى مُصـلاّه وهـو يترنّـم بهـا: «إنّ الله يـرزُقُ مَـنْ يشـاءُ بغـيرِ حِسـابٍ». فيسـتوي في المعبـد، ويأتيـه صـوتُ المطـر، وعُـواء الرّيـح، وتسـابيح الطّاهـرة، ويختلـطُ كُلُّ ذلـك، ويشـقُّ عليـه حَمْلُ جِسْـمه فـوق عِظامـه الواهِنـة في هـذا الـبرد القـارس، ويرفَـعُ يديـه، يَمُدُّهـما إلى مَـنْ لا يـردُّ سـائِلاً، وينكشـفُ رداؤه، ويحـزّ الـبردُ كالسّـكّين جِسْـمه، ويلهـجُ بتذلُّـلٍ: «ربّ هَـبْ لي مِـنْ لَدُنْـكَ ذُرِّيَّـةً طَيِّبَـةً إنّـكَ سـميعُ الدّعـاء». ويَصِـلُ الدُّعـاءُ إلى السّـميع، فترتـجُّ السّـماءُ لِصِدقِـه، وتنهمـرُ باكِيـةً لبُكائِـه، ثـمّ يخـرّ عـلى الأرض، بعـدَ أنْ تَلقّفتْـه رَحمـةُ السّـماء!

(١٠)

ليسَ للباطِلِ أساس

قدْ يَجِفُّ دَمُ الضّحيّة بعدَ حينٍ، لكنَّ دمَ الكبرياء لا يَجِفُّ أبدًا. وقد ننسَى مَنْ طَعَنَنا في أجسادِنا ولو كانتْ طعنةً من الخلف؛ لكنّنا لا ننسَى مَنْ طعننا في كَرامَتِنا وساومَ على حُرّيّتنا. لم يكنْ ما حدث في (قريوط) هو الحادثَ الأوّل من نوعه، قُرىً كثيرةٌ وبلداتٌ عديدةٌ جازَ عليها ما جازَ على أختهنّ. كانَ حُكمُ (هيرودس) في فلسطين قائمًا على أنْ يبنيَ مجدَ روما من جيوبِ الشّعب، ويُعْلِي حِجارتها مِنْ دمائهم. وما دامتِ القُوّة بينَ يديه فَلِمَ لا يستخدمها في موضعها الصّحيح!! وموضعها الصّحيح: «أَشْهِر سيفَك يرضخ لك عُنُق عدوّك، ولا تُغمده حتّى وأنتَ في سريرك». وما دامتْ مخازنِ الحبوب تحت إمرته، فَلِمَ لا يتصرّف فيها التّصرُّفَ الصّحيح، والتّصرّف الصّحيح: «جَوِّعْ كَلْبكَ يَتْبَعْكَ».

وكانَ داهِيةً، يعرفُ أنّ عدد الرّومان الّذين خصّصهم له (أغسطس) لا يُساوون عُشر سُكّان مملكته المنتشرين كالذَّرِّ من الشّمال إلى الجنوب، فعليه أن يأمنَ الرّومان، وألاّ يستعدِي اليهود، وإن كان الجَزّارُ الواحدُ لا تُخيفُه كَثْرةُ الأغنام السّائبة؛ فهي تَحتَ المُديةِ سواء. واليهود أمّةٌ تتبعُ كَهَنَتها كما لوكانوا آلهتهم، فإنِ استَملْتَ الكاهِنَ الأكبر ضَمِنْتَ ألاّ يثور عليك الشّعبُ النّاقمُ ولو إلى حين. خُذْ من أموالهم الجِبال وأَغْلِقْ فَمَ كاهنهم بالحُصَيّات، وأكبر كاهنٍ في إسرائيل يُمكن أن يقعَ صريعًا أمام بريق الذّهب الّذي يخطِفُ الأبصارَ والألباب، ولو كان لُعاعاتٍ. وكُلُّ شَعْبٍ لَهُ نَبّاح. (وقَيافا) ليسَ خارجًا عن هذه المُعادِلة. إذًا ليكن هذا اللّئيم أحدَ المُقرّبين إليّ من أجل ذلك.

«ليسَ للباطِلِ أساس». نعم كان (قَيافا) و(هيروس) كلّ على طَرَفٍ من طَرَفَي معادلةٍ غير متساوية، وكانا على طريقَين مُتوازِيَين مهما امتدّتا فلن تلتقيا؛ دينان مُختلِفان. وشعبان متباينان، وفي النّهاية كُلٌّ يرى تفوّقه على الآخر، ويرى الآخر أحقر من أن يتعامل معه. فما الّذي جمع بينهما إذًا!!

****

اجتمعَ مُمثّلو اليهوديّة والجليل والسّامرة والنّاصرة وكفر ناحوم والحُولة والسّاحل يومَ السّبت، كانوا سبعةً رَأَسَهم (عادِياء)، هَبَطوا خلفَ (قَيافا) وكهنته درجاتٍ توصلُ إلى غرفةٍ سِرّيّةٍ تحت الأرض، أضاؤوا شُمُوعًا خافتة، وقرّبوا كراسيهم إلى مائدةٍ خشبيّة عتيقة، وبدؤوا يتهامَسون. كانتْ أصواتهم الخفيضة بالكادِ تُسمَع كأنّهم ضَنُّوا بها على الجدران خوفَ أنْ تنقلها. وحده صوتُ (عادِياء) ارتفع قائِلاً بغضبٍ وأسى:

- إنّ جُنودَ (هيرودس) ذبحوا أهلي. وذبحوا شعبنا في كلّ مكان، ومَصُّوا دِماءه، حتّى لم يعد فيه موضعٌ لروح. فهل هذه الّتي نحياها تُسمّى حياة؟!
- إنّ السّيوف بأيديهم، وليسَ بأيدينا سِوى العِصيّ. (ردّ قَيافا مُحاوِلاً تهدئة عادِياء).
- العصيّ في يد الشّجاع أحدُّ من السّيوف في يد الجَبان. (ردّ عادِياء بحزم).
- ومِنْ أينَ لنا بالشُّجعان!! (تأوّه قَيافا وهو يُرجِع ظهره إلى كرسيّه مُتلفِّتًا حوله).
- إنّ شعبَ إسرائيل ينتظر مِنكَ كلمة. إذا أحسنتَ استخدامها وجدتَ كثيرينَ يُصغون لك. مُرهم بالثّورة؛ مُرْهُمْ بألاّ يَبقَوا خِرافًا تُسَمَّنُ للذّبح.

- أتريدُ منّي أنْ أسوقَهم إلى الموت يا عادِياء!!
- السّكوت على الضّيم أصعبُ من الموت أيّها الحَبر الأعظم.
- لنْ أفعل ذلك مع شعبٍ أعزل، ليس بين يديه إلاّ خَشَبات.
- ولِمَ لا تُسلّحهم؟!
- ومن أينَ آتي بالمال لأشتري به السّلاح؟!
- من أينَ تأتي بالمال!! (قال ذلك باستخفاف.. ثمّ أتبعه باستهتار): أظنّ أنّكما تتنافسان أنتَ و(هيرودس) في تشليحنا، ونهبِ مُدّخراتنا؛ هُوَ باسم إله روما، وأنتَ باسم إله موسى.
- وماذا تعرف أنتَ عن إله موسى أيّها الجاهل!! (ردّ قَيافا بغضبٍ واقِفًا على رجليه، وضاربًا بكفّه وجه الطّاولة الخشبيّة.. فوقفَ معه كهنتهُ).

تابعَ غَضبه:

- خُذُوا هذا الملعون قبل أن تحلّ علينا بسببه لَعَناتُ السّماء.
- لعَناتُ السّماء ستحلّ علينا قريبًا إنْ بقيتَ تأكل من طعامِ (هيرودس)، وتشرب على مائدته أيّها الكاهن، فنحنُ لا نعرف مَنْ فيكما قد كتَبَه الله عنده من الملعونين. الدّمُ الّذي سالَ من الشّعب في القُرى لا يُشرَب من الكُؤوس بين يدي الغانِيات في القُصور. مَنِ الملعون أيّها الحَبرُ الأعظم.. مَنِ الملعون؟!

- خُـذوه... خُـذوه... (صـاحَ مـن جديـد بالكهنـة الّذيـن حملـوه في طَرْفـة عـينٍ إلى الدّرجـات، وصعـدوا بـه ليلقـوه خارجًـا...)
- سـأقاتل وحـدي إذا لم تفعـلْ أيّهـا الجبـان. (كان هـذا آخـر مـا قالـه قبـل أن يجدَ نفسـه تحتَ سـماء أورشـليم، والشّـمسُ تُلقـي عليـه أشـعّتها لتعيـده إلى العـالَم المكشـوف بعـد ذلـك العـالَم المسـتور).

صمـتَ، غَطَّـى عينَيـه مـن شِـدّة الوَهَـج. شـعرَ باللّهيـبِ يسـتعرُ في حَلْقِـه. قـامَ يَلْتَمِـسُ مـاءً فلـم يجدْ. هـرولَ كالمجنـون في السّـاحة. تعثّـر في الطّريـق بسـامِريّ يقـودُ شـاةً ليُقدّمهـا قُربانًـا لله، شـتَمه الأخـير، لَـوّح (عادِيـاءُ) بيدَيـه مُهـدِّدًا، وصـاح:

- سَمِّنوا أنفُسَكم للربّ لكي يَذبحَكم.

استعاذ السّـامريّ بـربّ موسـى مـن الهرطقـة الّتـي سَـمِعها للتّـوّ، شـدّ يده عـلى الحبـلَ الّـذي يربـطُ بـه شـاته، ثغـتْ، ومـضى بهـا إلى المَذبَـح.

******

عـادَ المندوبـون إلى قُراهـم كـما جـاؤوا. وعـادَ هـو إلى (قِـيروط). في الطّريـق لم يرفَـع بـصرَه لحظـةً واحـدةً إلى السّـماء ظـلّ مُحدّقًـا في الأرض، يزفـر بشـدّة، كان دمُـه يغـلي في عروقـه، عَـزَم أنْ يقـودَ ثـورةً غايتُهـا المـوت، ومسـيرةً تحرّريّـة لا تتوقّـف إلاّ في المحطّـة الأخـيرة، ولئِـنْ كنـتُ اليـومَ واحِـدًا، فلأُصبحـنّ كثـيرًا بالمظلومـين ولـو كانـوا عُـزّلاً، فجيـشٌ مـن المظلومـين تحرّكـه أحـلامُ الحرّيّـة والعـدل هـو جيـشٌ قـويٌّ لا يُهـزَم، ولَئِـنْ كانَ سـلاحنا اليـوم جُـذوع الأشـجار، فلَيَصِـيرنّ غـدًا سـيوفًا مُرهَفـة ورِماحًـا مُشرَعـة... ثـمّ مـضى وقـد انتفـضَ بَدَنُـه!!

بعثَ إلى المَندوبين مَنْ يريد أن يعمل تحتَ قيادتي مِمّن يريد لشعب إسرائيل الخلود فَلْيَتْبَعْني. لم يتفاعلْ معه المندوبون كثيرًا، بعثَ إليه كلُّ مندوبٍ بواحدٍ او اثنين. اجتمع لديه تسعةُ ثوّار؛ شكّل بهم النّواة. وجمع إليهم أربعين من قريته، فصارَ عِدادُهم خمسين، مَضى بهم إلى رؤوس الجبال، عاشوا على شَظَف الحياة يتدرّبون على الثّورة. كان يشتري لهم ما يستطيع من الطّعام والسّلاح بما ادّخره من أعمال الخَزَف. غابَ عن البيت كثيرًا. وبدأ أرنبُ الشّكّ يقفز في صَدْرِ امرأته!

****

مرّتْ شُهُورٌ على تلك الحادثة، فقدَ الحيُّ حركةَ رئيسِه بين الأزِقّة، تساءَل كثيرون أينَ يُمكن أن يكون؛ غابَ تمامًا ذلك الّذي لم يَكُنْ صباحٌ من صباحاتهم يخلو منه. أمّا هو وإنِ اختفى من الحيّ فجأةً فقد ظلّ أتباعه يأتونه بأخباره، وظلّ يرقبُ (يهوذا) عن كثبٍ، كان يأمُل أن يكون مُخَلِّصَ شعب إسرائيل؛ بل طَمِحَ إلى أكثر من ذلك؛ تمنّى أن يكونَ المَسِيًّا المُنتَظر، لكنّ الزّمن يَنبُذُ الأمنيات ولا يَعترفُ إلاّ بالعمل؛ وَلْيَكُنْ؛ تساءَلَ بغموض: هل يُمكن أن يعملَ الإنسانُ لِيُصبحَ مَسِيًّا مُنتَظَرًا؟!!

زادَ عددُ الصّاعدين إلى الجبل مع (عادِياء)... وزادتِ الضّرائب الّتي يفرضها جنودُ الحاميات الرّومانيّة بأمرٍ من (هيرودس) على الشّعب. وبدأ التّململُ يسري في النُّفوس. نزلَ (عادِياءُ) من الجبل، ودخل البيتَ في اللّيل، كادتِ امرأتُه تُصعَق حينَ رأته، لم تُصدّق أنّ شكله تغيّر إلى هذا الحَدّ. كانتْ تنظر إليه بمزيجٍ من الدّهشةِ والحُبّ والخوفِ والشَّوق والقلق، تجمّع كلّ ذلك المزيج العجيب في قلبها فَهَوَتْ بينَ أحضانه وراحتْ تَنحب. قال لها:

- أيّتها النّوّاحة؛ سيجتمع قادةُ الحركة في بيتي اليوم، لا أريد أنْ يعرفَ أحدٌ شيئًا.

- لماذا تركْتنا كلّ هذه الفترة؟!
- أنا مُحتاجٌ إلى السّرّيّة حتّى لا ينكشفَ أمرُنا.
- نحنُ محتاجون إليكَ هنا، ويهوذا يفتقدكَ كثيرًا.
- هل تعلّم صِناعةَ الخَزف جَيّدًا كي يُنفِقَ عليكما؟!
- لقد صار أمهرَ منكَ.
- تُبالِغين؛ ما زال طِفلاً.
- المصائبُ تَجعلُ الصّغارَ يَكبرونَ بسُرعة.
- أنا أنتظره هناكَ في الجبل.
- أنا أخافُ عليكما، فَلِمَ تفعلُ بنا هذا؟! لا أريدُ أن أعيشَ بقيّة حياتي في الرُّعب.
- ما أفعله من أجلكما ومن أجل الرّبّ لِموعدِ الخَلاص.
- إنْ مُتَّ فمَنْ سيعتني بنا؟!
- الرّبّ.
- الرّبّ لا يشتري لنا خُبزًا ونحنُ جالِسون في بيوتنا.
- اسكُتي يا امرأة... أريدُ أن يبقى هذا الأمرُ سِرًّا.

(١١)

فُرسانُ المَسِيّا

تَسلّلُوا على رُؤسِ أصابعهم، كانوا معه سبعةً من القادةَ الّذين يأتمر بأمرهم أكثر من ثلاثمئةِ ثائر. عزَمَ (عادِياء) على أن يُسمّيهم (فُرسانَ الهيكل)، لكنّه عدلَ في اللّحظةِ الأخيرة وسمّاهم (فُرسانَ المَسِيّا).

جلسَ السّبعةُ في غرفةٍ مُنزويةٍ خلفَ بيتِ (عادِياء) في الظّلام التّامّ الّذي لم يكن يقطعُ حُلكتَه إلاّ شمعةٌ واحدةٌ مركوزةٌ في وسط الطّاولةِ الّتي يلتفّون حولها، فلا يرون أبعدَ منها، أنفاسُهم الحَرّى كانتْ دليلاً على صِدق نواياهم وحرارتها. وضعوا أيديهم معًا فوق الطّاولة، وتَلَوا مِيثاق الشّرف: «نُقسِمُ بربِّ إسرائيل، وبربِّ الهيكل أن نُقاتِلَ من أجل خلاصِ شعبِنا حتّى آخر قطرة من الدّم، وأن نعمل ما دام فينا نَفَسٌ ينبض من أجل تحرير شعبِ إسرائيل من الظّلم والذّلّ، وأن نموت دونَ ذلك». ثمّ أمّنوا على القسم.

بسطَ (عادِياء) أمامهم رقعةً من الجلد، وأشارَ بإصبعه إلى مواضع الحامِيات الرّومانيّة فيها، كان هناك أكثر من عشرينَ نُقطة. توزّعوها فيما بينهم قبل ليلتين، كلّ عشرةٍ من المُبايعين على الموت يقومون بمباغتة الحامية، وقتلِ حُرّاسها ونَهْبِ مخازن الحبوب فيها، ثمّ الانسِحاب، وتوزيع ما غَنِموه على فقراء شعبهم ومساكينه!!

قال أحدُ القادة:

- فُرساني فعلوا ذلك أمس، والحصيلة ثلاثة جنودٍ رومانيّين قتلى، وحبوبٌ تكفينا وأهلَنا عامًا.

- وفرساني أحرقوا حامية عسقلان، وقتلوا كُلّ مَنْ فيها من المُحتلّين (قال ثانٍ).
- ليسَ الوقتُ في صالِحنا الآن، علينا أن نفكّر بالخُطة القادمة. (قال عادِياء).

في شِقّ النّافِذة الخلفيّة كان (يهوذا) يسمع ويرى كُلّ شيء، تسلّق الحائطَ الغربيّ، ونزلَ خلفَ غرفة الاجتِماع، وصاروا سبعةً من المُلثّمين في الدّاخل، وكانَ هو ثامنهم. أقسمَ معهم، وفرح لفرحهم، وكادَ يختلقُ قصّةً لفرسانه الّذين قَتَلوا (هيرودس) الكبير نفسه وجاؤوا إليه برأسه على طبقٍ معدنيّ لولا أنّه خَشِيَ أنْ يُسمعَ صوته حينَ ابتهج لمنظر الرّأسِ المُتخيّل. فصمتَ على الفور.

أتمّ جنود حامِية (قريوط) استعدادهم، وأحكموا خُطّتهم، وانطلقوا يسترهم ظلامُ حالِكٌ وسُكّانٌ هاجِعون. كَمَنُوا أمام بيت (عادِياء) دون أن يلحظَ أحدٌ، أو يسمع لهم صوتًا، وسَدُّوا كلّ المنافذ الّتي تُؤدّي إلى خارجه.

كان الاجتِماع قد انتهى، ما إنْ خرجَ السّبعةُ من باب الغرفةِ الخلفيّة حتّى أضاء الجُندُ مشاعلهم القوّيةّ فبهرتْ عيونَ الثُّوّار، فَصُدِموا، لم يسعفهم الذّهنُ في شيء، كان كلّ شيءٍ محجوبًا، تراجعوا إلى الخلف ليحتموا بالغرفة، فهجمَ عليهم الجُنُود، صاحَ أحدهم:

- لقد خُنتَنا يا (عادِياء)!!
- أَجُنِنْتَ؟!! لقد أقسمتُ قَسَم الشّرف معكم. لا بُدّ أنّ أحدنا قد فعلها. (صاحَ بصوتٍ أعلى).
- ليس هذا وقتُ التّلاوُم، موتوا دون قَسَمِكم. (صرخ ثالث).

كانت الأوامر من (هيرودس) نفسه بأن يُؤسَر القادةُ ليتشفّى هو بذبحهم أمام عينيه، وعليه، فلم ينطلق باتّجاههم سَهْم، ولا أُشرِعَ في وجوههم رُمْح، بل أحاطتْ كتيبةٌ بهم إحاطةَ السّوار بالمِعصم، وطلبوا منهم أنْ يستسلموا.

- يبدو أنّهم يريدون أَخْذنا أسرى؛ فماذا نفعل يا (عادِياء)؟! (قال أحدهم).
- الحلُّ في قَسَمَ الشّرف.
- ماذا تعني يا (عادِياء)؟!
- فَلْنَقْتُلْ أَنْفُسَنا، كُلّ واحدٍ يقتلُ رفيقَه الّذي بجانبه، حتّى إذا لم يبقَ إلاّ واحدٌ فَلْيَقْتُلْ نَفْسه.

وحينَ شَرَعُوا بذلك، هجم الجنود لِيُتِمّوا عمليّة الأسر قبل أنْ يستفحلَ القَتْل، استطاعوا أن يَسْتَبْقوا أربعةً، كانَ ثلاثةٌ منهم قد فارقَ الحياة.

نَظَرَ (عادِياء) وهم يضعون القيد في يديه إلى نافذة الغرفة الماثلة على ضوء المشاعل، لمح وجهًا مُتلَصِّصًا عند زاويتها، استطاعَ أن يُميّزه بسهولة. ثمّ نظر إلى أعلى وهم يضعونَ القيود في رجله، فلمح عند النّافذة العلويّة البعيدةِ وجهًا آخر لم يبذل جهدًا كبيرًا في معرفته؛ كان الوجه الأوّل لابنه (يهوذا)، وكان الوجهُ الثّاني وجهَ زوجته؛ خفضَ بصره حائرًا، وهتفَ في نفسه: مَنْ منكما فعلها؟! ثمّ هزّ رأسه ليتخلّص من هذه الوساوس الشّيطانيّة، وهتف: ليسَ معقولاً... ليسَ معقولاً!!!

بعدَ أسبوع من الحادثة الشّهيرة، كان الرّومان قد ألقَوا القبض على ما يقربُ من مئة من الثّائرين، لم يَدْرِ أحدٌ مِنَ المَقبوضِ عليهم مَنْ وشى بالآخر، ظلّ أمرُ الوشاية سِرًّا مكتومًا، إلاّ عندَ ذلك الّذي ألقَى الشّيطان في فمه تلك الكلمة، ثمّ اسْتَمْرَأها من بَعدُ، فصارتْ ديدنًا، وصار من الطّبيعيّ أنْ يَفعلَها حتّى مع نفسه!!!

بَكَّرتْ هِيَ و(يهوذا) في ذلك اليوم الرّهيب. جاءتْ نِسوةٌ وأطفالٌ من كلّ مكان، من يهوذا والسّامرة والنّاصرة، وبقيّة المُدُن... تجمّعْنَ هُنَّ وأطفالهنّ في السّاحة الواسِعة، وقفْنَ على حافّتها، كانَ مِئاتٌ من الجنود الرّومان موجودين لمنعهنّ من اختراق السّياجِ الّذي يحرُم تجاوُزه.

ظهرتْ كوكبةٌ من الخيّالةِ تُحفُّ بعددٍ من الجِمال الّتي تحملُ فوقَها الصُّلبان، مِئةُ صليبٍ كانتْ قد أُعِدّتْ لمئةِ مُجرِم. تقدّمت الجِمال ببطء إلى منتصف السّاحة. ثمّ ترجّل أكثر من عشرينَ فارِسًا عن خُيُولهم، وبدؤوا يُنزِلون الصُّلبان ويدفعون بها إلى آخَرين، وبدوا يَركُزُونها على الأطراف، حتّى إذا استوتْ قائِمةً كتماثِيلَ من خشبٍ، أَفْرغتِ الجِمالُ السّاحةَ للعرباتِ كي تتقدّم هِي الأخرى إلى المُنتصف. حتّى إذا أشارَ قائدُ الرّتل العسكريّ إليهم، أُنزِلَ المُجرِمون من العَرَبات، وأُلْجِئوا إلى الاصطِفاف في عشرةِ صفوف. ثمّ تلا القائد الرّومانيّ قرار الإعدام: «أيّها اللّصوص قد خرقتُمْ قانون الإمبراطوريّة بجرائم القتل والنّهب والحَرق. وإنّ الملك هيرودس بأمرٍ من الإمبراطور أغسطس ليُنزِلُ بكم القصاص العادَل، موتًا على الصُّلبان». ثمّ ناولَ القرار لأحدِ حرسه، وأشار للآخرين بيده، فبدأتْ مراسيمُ الصّلب.

اقتِيد اليهودُ المِئة مُقيّدي الأرجُلِ والأيدي، كُلٌّ إلى صليبه، كان كُلّ صليبٍ منها يحملُ اسمًا من أسمائهم. من بعيدٍ شاهدَ (يهوذا) أباه يُقاد إلى مُنتصَف هذه الغابة الكثيفةِ من الصُّلبان، كانتْ أعماقُه تَضِجُّ بِشُعورَين مُتضادَّين: الخوفُ والبهجة؛ لَمْ يَدرِ مع قلقه سببَ الفرحةِ الّتي كانتْ تجتاحه في تلكَ اللّحظة. اقتربَتْ منه أمّه قليلاً؛ ضمّتْه إلى صَدْرِها فلم يشعر بشيء، شدّتْ على كتفه قائلةً: «مهما حدث؛ أريد أن تعرفَ أنّ أباكَ بطلٌ». لم يُعِرْ كَلِماتها أيّ اهتمام، وظلّ مُسمّرًا بصرَه على أبيه الّذي يُساق ضمنَ قطِيعٍ بشريّ كبيرٍ إلى حتفه موتًا على الصّلبان!!

وقفَ عند كلّ صليبٍ ثلاثةٌ من الفُرسان الرّومان الأشدّاء، كانتْ مهمّة اثنَين منهم تتمثّل في رَفْعِ المُدانِ على الصّليب، والثّالث في تثبيتِ أطرافه عليه.

ظلّ أبوه سيّدَ المشهدِ في نَظَره، كانتِ الشّمس قد ارتفعتْ قليلاً، لكنّ حرارتَها لم تشتدّ، تعاونَ اثنان على إلصاق جسده بالقائمة، كان جسدهُ ليّنًا، بعضُ الأجساد الأخرى بدتْ متيبّسة من الهلع، مُتكوّرةً من الرُّعب إلى الحدّ الّذي لم يستطع أحدٌ إعادتَها إلى هيئتها الأصليّة، فُصلِبتْ على تلك الهيأة، أمّا أبوه فبدا راضِيًا مُستسلِمًا، بل ومُتعاونًا!!

هَوى ذو الجسد الأضخم بمطرقةٍ كبيرة على مسمارٍ رُكِزَ في باطن يد أبيه، فكزّ على أسنانه، لكنّه لمْ يُصدِرْ آهةً واحِدة، وفعل مثلَ ذلك في الأخرى، نَزَلا، طَلَبا من عادِياء أن يضعَ قدمه اليُمنَى فوق اليُسرى فاستَجابَ بسرعة، نظرَ أحدهما إلى الآخر مُتعجّبًا، جاء الثّالث بوتدٍ، تعاونا على تثبيته، ثمّ راح ذو المِعول يهوي عليه بكلّ ما أوتي من قُوّة ليغوص هناك، اخترق القدم الأولى ثُمّ الثّانية ثّم العارِضة الخشبيّة، خلال مراحل التّعذيب تلك، لم تندّ صرخةٌ واحدةٌ من عادِياء، فقط كانتْ تخرجْ منه آهاتٌ مكتومة مع كلّ طرقةٍ من المِعول، وكانَ غالِبًا ما ينجح في ابتِلاعها.

عندَ الظّهيرة، كانتْ أجسادُ مئةِ ثائرٍ ترتقي عوارض الصُّلبان، بدا المشهدُ مَهيبًا، كان يبعثُ على التّبجيل والاحترام أكثرَ من الخوف والاشمِئزاز. وفيما راحَ الهواء يرتجّ لنحيبِ الأرامل، وصُراخ الثّكالَى كانتْ عينا (يهوذا) مُثبّتتَين على وجه أبيه دونَ أن تهتزّ له جارِحة، رأى فيه نَفْسَه، وتخيّلَ جسدَه مكانَ جسدِ أبيه. لم يخفْ هذا الغُلام ذو الأعوام السّتّة. بلْ هَمّ أن يسير إلى هذا الشّامخ المرفوع على الصّليب ويُحيّيه كبطل.

رحلَ أكثرُ الجُنود الّذين نفّذوا عمليّة الصّلب الجماعيّة هذه، طلبَ القائدُ أن يبقَى عشرون منهم فقط ليُجْهِزوا على المصلوبين عندَ الغروب. سُمِحَ آنذاك للنّساء أن يقتربْنَ من أجسادِ ضحاياهنّ.

حينَ صارتِ امرأتُه على مَسمع منه، كان وجهه قد بدأ يَزْرَقّ، وعيناه قد بدأتا تَنِزّان دَمًا. أكملتْ خُطُواتِها باتّجاهه ولفّتْ ذراعَيها حول قَدَمَيه العارِيتَين، لمعتْ في ذهنها السّنوات الغابرات تذكّرتِ الحركة نفسها الّتي فعلتْها مع قائد الجند في الأمس البعيد... شتّانَ بين الحالتَين.

أمّا هو فحاولَ تحريك قدَمَيه كأنّه لا يُريد لها أن تمسَّها، خرجتِ الحروفُ مخنوقةً من بينِ أسنانه، قال لها:

«خانَنِي مَنْ في بَيتي. ما أسهلَ الطّعنةَ حينَ تأتي في الصّدر، أمّا تلكَ...» (وصمتَ وهو يكزُّ على شفتيَه من الألم.. لم يشأ أن يُتِمّ فأشاحَ بوجهه عنها).

على ذُبالةِ الشّمس المُودّعة، رجاها أنْ تثقبَ بطنه بالرّمح وتُجهِزَ عليه. بكتْ. رجاها أكثر. علا نحيبُها. اِفْعليها أيّتُها النّوّاحة... افعليها... افعلي لأجلي شيئًا ولو مرّة واحدةً. نهضتْ وهي تَجْأر، ظلّتْ دموعُها تتفجّر من عينيها. جثتْ على حذاء جنديّ رومانيّ مُهترئ مِمّن استُبقُوا لهذه المَهمّة. قبّلتِ الحذاء. خاطبتْه بلغته: أريد أن أنقبَ صدر زوجي. لا أريدُ لهذه الفاجعة أن تستمرّ أكثر. رقّ قلبُ الجُنديّ... الجنديّ الّذي لم يتعلّمْ معنى الرّحمة ولم يَعِشْها لحظةً في حياته، تحرّكَ شيءٌ ما في أعماقه فأمره أن يدفع إليها بالرّمح... توجّهتْ إلى (عادِياء)، نظرَ إليها وابتسم: نعم... الآن... لا تتأخّري... أعولتْ وهي تركز الرّمح على الأرض وتُسنِدُ رأسها المُتعَب إليه، جاهدَ (عادِياء) أن يلفظَ الكلمات الأخيرة من بين شفتيَهِ المُتيَبِّستَين: فيمَ تُطيلينَ أمدَ عذابي...؟! افعلي.. أنا آمركِ يا امرأة. رفعتْ

رأسَـها. رجعـتْ إلى الـوراء. وبـما تبقّـى في سـاعِدَيها مـن قُـوّة غـرزتِ الرّمـح في بَطْنِـه؛ فاخـترقَ في صُعـوده رِئتَيـه وقَلبَـه. خـارَ عادِيـاء خُـوارًا عالِيًـا قبـل أن يُسـلِمَ الـرّوح، ويَسـقُطَ رأسُـه فـوق جسـده!!

ركـضَ الولـدُ إلى قدمَيـه المُرتفعتَـين، قبّلهـما دون أن يقـول كلمـةً واحـدةً، ودون أن تنـزلَ مـن عينَيـه ولـو دَمعـةٌ يتيمـة؛ لقـد فَهِـمَ كُلَّ مـا جَـرَى. وهـا هُـو يَـرِثَ قيـادة (فرسـانِ المَسِـيّا). هتـفَ في نفسـه كـما لـو كان خَـبِرَ الدُّنيـا كُلَّهـا: «الثّـأرُ صَعـبٌ ولكـنّ الإرثَ أَصعَـب»!!

(١٢)

أينَ اللهُ؟! أنسيتَ؟!

تَعِبَ الشّيخ؛ تَعِبَ العُمرُ الّذي يحمله فوقَ ظهره، وزوجته هُناكَ في البيتِ أشدُّ تَعَبًا منه؛ لازَمتِ الفِراش، الأعوامُ التّسعون المحمولةُ فوقَ المنكِبَين أثقلُ من الجِبال. لم تَعُدْ تستطيعُ خِدمةَ نَفْسِها، وحده (زكريّا) لازَمَها في هذه اللَّحظَاتِ العصيبة، فكان يُطعِمُها بيدَيه، إذْ لم تَعُدْ تَقوَى يَدُها المُرتجِفة على حمل اللُّقمة!! وكان يُقرّبُ كأسَ الماءِ من فَمِها فَيَسقيها. في آخر العُمر لزَوجَين مُسِنَّيْن واقِفَينِ على حافّةِ الموت يَبقَى وفاءُ السّنين الغابِرات هو الحياةَ كُلّها. ما قِيمةُ الدُّنيا إنْ لم تكُنْ في هذه اللّحظات الحميميّة الّتي يكونُ فيها كلُّ واحدٍ عالَمَ الآخَر وسعادَته وجَنّتَه.

- لقد جرى علينا ما يجري على البشر كلّهم يا (أليصابات). وها هو الموتُ يقتربُ رويدًا رويدًا من البابِ الّذي يفصِلُنا عنه.
- حِكمةُ الله. قَضَى فَعَدَل.
- ولِمَنْ نتركُ إرثَ النُّبُوّة مِنْ بعدِنا، أللأدعياء الّذين يجولون في هذا البيتِ المُقدَّس!!!
- الله يحمي دينه.
- وهُوَ القادرُ على أنْ يبعثَ من يَحميه مِنْ خلالنا. (تَمتَمَ)

ثُمّ قامَ، جَرَّ رِجلَيه جَرًّا وذهبَ إلى المسجد، كانَتِ الليلةُ باردةً جِدًّا، ولكنّها صَافِية، وكان مِنَ المُمكن رؤية النّجوم بوضوح في صفحة

السّماء الكُحليّة وهي تُرصّعُها من أوّلها حتّى آخرها. وصل إلى باب المعبد، رآه مَفتُوحًا، حدّث نفسَه لا بُدّ أنّ العُبّادَ فَرُّوا إلى الله فيه. واللّيل جلاءُ الله للضّارعين.

عندما دخل دَبَّتْ فيه قُوّة لم يعهدها منذ أكثرَ من ثمانينَ عامًا، قُوّة لم يَجِدْ مثلها إلاّ في شبابه، شيءٌ ما أعاد إليه ماضِيًا لا يُمكن أن يعود. وصلتْ إلى مسامعه صَلَواتُ مريم وهي في حُجرتها العُلويّة، هل هِيَ ملاكٌ هذه الفتاة!! إنّها لا تنقطعُ عن الذّكر لا في صباحٍ ولا في مساء (حَدَّثَ نَفْسَه بذلك) وهو يصعد الدّرجات، من جديد شعر أنّ الدّرج الّذي كان يُضنيه صعودُه بدا سهلاً ليّنًا، كأنّما هو الّذي يصعد به. عند آخر درجة توقّف ليسمعَ الصّلوات الّتي تتلوها مريم، كَتَمَ أنفاسَه، هو النّبيّ ذو المئة عام سيتعلّم من هذه الصّبيّة كيف يطرقُ بابَ السّماءِ بكلماتٍ مُعجِزات. «الأنبياءُ على مقدار ما يَتنزّلُ جبريلُ على قُلُوبهم، فمَنِ استأثرَ قلبُه به كانَ في الدّرجةِ العالية» جاءَتْه هذه الخواطر وهو يُفكّر في حال مريم. اقتربَ أكثرَ من مَلَكوتها. توقّف وحبسَ أنفاسَه من جديد، هذه المرّة ليرَى لا لِيَسمع. لقد رأى عَجَبًا بالفعل، لكنّ العجيبَ في القادرِ عليه غيرُ عجيب، رأى مائدةً تنزلُ من السّماء، نَزَلَتْ ليّنة تتأرجح بهدوء كأنّ الّذي يحملها مَلاك، لكنّه لم يَرَ هذا الملاك، حتّى إذا استقرّتْ بينَ يدَي مريم، سَمِعَ حَفِيفًا يصعدُ إلى قُبّة المعبد، تابَعه ببصره، لكنّه لم يرَ شيئًا. كانتِ الثّمار النّاضجة تلمَعُ على ضُوء القنديل المُعَلّقِ أعلى المِحراب، لم يَرَ مثلَ هذه الثّمار في حياته الطّويلة، قَرَعَ صوتُ المطر في الخارجِ سَمْعَه، ولَمَعَ البرقُ فرأى على ضوئه العِنَب لا كالعِنب، ثمّ لمع أخرى فرأى الطّلح لا كالطّلح، ثمّ لَمع ثالثة فرأى الرُّطَب لا كالرُّطَب!! صاحَ في أعماقه: مَنْ يُصرّف الزّمن إلاّ ربُّ الزّمن. خمدتْ صرختُه فجأة. اقتربَ من مريم أكثر، لم يتمالك نفسه:

- يا مريم! (قالَها وكادَ يبكي).
- لبَّيْكَ يا نَبيِّ الله. (ردّتْ عليه بِحُنُوّ).
- أنّى يَكونُ لكِ هذا؟!
- تَسألُني وقد رأيت.
- أفالّذي أعطاكِ يُمكنُ أن يُعطيني؟!!!
- يا نَبيَّ الله... أينَ الله؟! أنسيتَ؟!
- حاشاي... ولكنّني رأيتُ عجبًا!!
- سَلْهُ تُعطَ.
- فإنّني أسأله الولد.
- سيُعطيك. ولكنّكَ فيه مُبتَلىً.
- أفيُعطيني ويَبْتَلِيني.
- بلى. وسيُعْطيني ويَبْتليني.
- وماذا نفعل؟!
- تسألني وأنتَ العارِف. اصبِرْ؛ إنّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسابٍ.

نزلَ الدّرجاتِ الهاوياتِ بخفّة، وتركَ مريم وحدها تُتِمّ صلاتَها. خرّ ساجدًا في محرابه وبكى. بَكى بُكاءً شديدًا عطّر السّماءَ بنحيبه، ظلّ ساجدًا حتّى صارتْ أنفاسُهُ تتقطّع، وصوتُه يتهدّج، ثمّ استوى قاعِدًا، ومدَّ يديه إلى السّماء، لم يَجِدْها قريبةً مثل هذه المرّة، ولهج: «يَرِثُني ويَرِثُ مِنْ آلِ يَعقُوبَ»، وظلّ يُردّدها حتّى سَمِعَ صوتًا في جانب المسجد يقول له: «قد أُجيبَتْ دَعوتُك».

ثُمّ خَرَّ من جديد. وعادَتْ إليه أحلامُ صِباه، ورأى ذلك اليومَ الّذي زُفَّ فيه إلى (أليصابات)، بَدَا أنّ الزّمن كُتلةٌ يحويها مكانٌ غيرُ محدّد،

تنتقل فيه كما يشاءُ خالِقها. فإذا استطالت تلك الكتلة استطال الزّمن، وإذا قَصُرَتْ قَصُرَ. وإذا تحوّلَتْ تحوّل. ولا فرقَ بينَ زمنٍ وآخر مهما استطال أو انكمش. اللحظةُ مثلُ الدّهر، والدّهر مثل اللّحظة. والرّوح الّتي تعيشُ في هذا الزّمن تعيشُ لحظتَها وتقدير طولها أو قِصَرها ليسَ بيدها ولا مِنْ شأنِها.

ثُمّ رفَعَ رأسه، فَسَمِعَ صوتَ الوَحي، مِنْ أيّ زمنٍ جاء؟! لا أحدَ يدري، هل زمنُ الوحي والنّبيّ متقاطِعان أم مُنفصِلان؟! لا أحدَ يدري، لم يدلّ عليه غيرُ صوتِه:

- إنّ الله يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى.
- يا ربّ، فمن أينَ يأتيني الولد؟!
- وسيّدًا ونَبِيًّا.
- يا ربّ وامرأتي عاقر؟!
- قَضى اللهُ الأمر ففِيمَ الجِدال يا زكريّا.
- تثبيتًا لفؤادي لا جُحودًا ياربّ، فإنّ ما أسمعُ مَهول.
- أعلى الله يا زَكرِيّا!!
- فأعِشْني يا ربُّ حتّى أراهُ نَبِيًّا.
- أعُدتَ إلى الجِدال يا زكريّا!!
- فاجْعلْ لي آيةً.
- قد أكثرتَ القولَ فآيَتُكَ الصّمت.

ثُمّ حُبِسَ لِسانه، فكانَ إذا أرادَ الكلامَ عَيِي. فناجَى الله في قلبه: «يا ربّ إنْ زلّ لساني فلا تُؤاخذْني فقد جرى فيه شيطانُ نفسي، ولكنّي أقبلُ به رحمةً، وأسجدُ فيه لملكوتكَ شُكرًا». ثُمَّ عادَ إلى البيت. فوجدَ عهدًا جديدًا عند زوجته، وتبدَّل الزّمنُ في لحظة، وقضى الله في العُمرِ ما لا يستطيعُ أحدٌ أن يفعله سِواه. وحَمَلَتْ (أليصابات) من ليلتها!!

ثُـمّ كانَ إذا مـرّ بالكَهنَـةِ يبدؤونـه بالسّـلام فـلا يُجيـب، ويسـألونه فـلا ينبِسُ ببنـتِ شَـفَة، ويواجِهونـه فيُعـرِضُ عنهـم، حتّـى إذا كانـتْ خلوتـه بـالله بعيـدًا عـن النّـاس وأذاهـم انطلـقَ لسِـانه يلهـجُ شـكرًا، فـإذا خـرجَ مـن معبـده انعقـدَ مـن جديـد، ثُـمّ كان إذا مـرّ بـه (قَيافـا) يستسـخر منـه هـذا قائِـلاً: أبعـث الله أنبيـاءَ خُرْسًـا!! عجيبٌ أمْرُكـم يـا نسـلَ يعقـوب، ألمْ يقـع اختِيـارُ جبريـل إلاّ على البُكـمَ لِيُنَصِّبـوا أنفُسَـهم علينـا أنبيـاء!!! ثُـمّ يُشـيرُ زكريّـا إليـه بيـده، ويُومِـئُ بإصبعـه إلى فمـه ثُـمّ يرفعـه إلى السّـماء يُريـد أن يقـول لـه أنْ يُديـم التّسـبيح، فـيردّ عليـه قَيافـا هامِسًـا مُتعجِّبًـا: إنّـه لم يكتـفِ أنْ بعـثَ إلينـا بُكـمًا، بـل بعـثَ حمقـى ومجانـين!!

ثُـمّ كانـتِ اللّيلـة الثّانيـة. فَلَـمْ تَفـتُرْ عـن الصّـلاة والقِيـام، حتّـى تشـقّقَتْ قدماهـا الطّاهرتـان وسـالَ منهـما الـدّمُ لطـول وقوفهـا ببـاب الله. ثـمّ أصابَتْهـا سِـنَةٌ مـنَ النُّعـاسِ لشـدّة تعبهـا. فجلسـتْ، فـمال رأسُـها، فثَقُـلَ، فَغَفـتْ، فـما كادتْ تذهـبُ في النّـوم حتّـى غَشّـى المكانَ نـورٌ عظيـمٌ، ففتحـتْ عينَيهـا، فـرأتْ رَجُـلاً بَهِيًّـا كامِـلاً واقِفًـا في محرابهـا لم تَـرَهُ في حياتِهـا مـن قَبْـلُ، فجفلـتْ، ثُـمّ قامـتْ على سـاقَيْها، فتراجعـتْ إلى الـوراء قليـلاً، فالْتَمَسـتْ زكريّـا ليُنقِذهـا مِمّـا هِـيَ فيـه، فلـم تَجِـدْه، فهتفـتْ وهـي في حالـةٍ عظيمـةٍ مـن الدّهشـة:

- إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ.

فأجابَها:

- إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّك.

(١٣)

إنّهما نَبيَّان، وإنّهما شَهِيدان

الوَحْي نَفخة. نَفْخةٌ طاهرةٌ عُلويّة. مُبرَّأةٌ. تنتمي إلى السّماء لا إلى الأرض. وفيها مِنْ بركات الأعالي ما ليسَ مُختلِطًا بدناسات الأسافِل. وهو كلمةُ الله. وكلمة الله مُنزَّهةٌ عن العيوب والنّقائص. وهو رِسالةٌ، فانظر إلى عَظَمَةِ المُرسِل تَعْرِفْ عَظَمَةَ الرّسالة.

هبطَ فيها؛ لأنّه من هناك حيثُ الملكوت الأعلى. وملأها طَهارةً لأنّ لم يكنْ إلاّ طاهِرًا. وعرفتْ هِيَ هِبةَ الله فاطمأنّتْ إليه. وظفرتْ بهديّته، وضَنّتْ بها، لأنّها أدركتْ أنّ الهدايا على مِقدار مُهديها، وأيّ مخلوقٍ هذا الّذي سيكونَ منحةَ الله إليها مباشرةً دون واسطةٍ من بشر، إنّها باقِية؛ لأنّها من الباقي، وخالِدة لأنّها من الخالِد، أمّا ما كان من البشر فمنَ التّراب إلى الفناء، ومن الهَباءِ إلى العدم... ثُمّ لم تَقْطَعْ صلاتَها.

عادتْ إلى المِحراب، بعد النّفخة لكي تُتِمّ عهد الله بألاّ ترفَعَ رأسها من الرّكوع إلاّ لتهوي به في السّجود بين يدي الخالِق، فالضّعة عنده رِفعة، والذّلّة عِزّة، والضّعفُ قوّة، والصّبر حِكمة، والمآل كُلّهُ إليه، فمنْ يَختارُ عاقِبةَ النّدامة إلاّ مَطموسَ البصيرة!!

وانتفخَ بَطْنُها، فلمْ تَخرُجْ من المسجد على عادتِها. وَخَشِيَتْ أن يَراها النّاسُ فيقولون فيها سُوءًا، ولم يَكُنْ من أحدٍ ينكشفُ عليها إلاّ زكريّا، فلمّا شاهدَ حَمْلَها، عَرَفَ أنّ الله قد نفخَ فيها من رُوحِه، فأرادَ أنْ يستنطِقَها حتّى يعرفَ كيفَ يَرُدّ على النّاسِ مقالتهم من بعدُ، فلا بُدّ أنّ الله

أعطاها عِلْمَ ما لم يعلم؛ فسألها:

- يا مَريم؛ هل يكونُ زرْعٌ من غيرِ بَذْر؟! (يقصد ما في بَطنِها).
- نعم؛ فمنْ خَلَق الزّرعَ الأوّل!! (أجابته بيقين).
- فهل يكونُ شَجَرٌ من غيرِ ماءٍ ولا مَطَر؟!
- نعم؛ فَمَنْ خلقَ الشّجر الأوّل!!
- فهلْ يكونُ ولدٌ من غير ذَكَر؟!
- نعم، فإنّ الله خلقَ آدمَ من غيرِ ذَكَرٍ ولا أُنثى.
- فأخبريني خَبَرَكِ؟!
- إنّه نَبيّ، وإنّه كلمة الله، وإنّ الله مُصطفيه على النّاسِ.
- فإنّي آمنتُ وصَدَّقْتُ. لَئِنْ أعاشني الله إلى زمَنِه، لأُقبّلَنَّ قدَمَيه، ولأغسِلَنّهما بالماء.

فابتسمتْ وقَرّ وجيبُ قلبِها. ومضى.

وانتفخَ بطنُ خالتها. ثُمّ لم يكنْ من أمر مريم إلاّ أنْ لَزِمَتْ محرابَها، فرعاها ورعَى ابنَها جبريلُ. ولَزِمَ زكريّا مُصلاّه كذلك، يُديمُ الشّكر على ما رزقه الله به. وانتظرتْ مريم وخالتُها أحداثًا جِسامًا، وتاقتْ (أليصابات) لرؤية مريم، فنهضتِ تجرّ ثوبها خلفها، فلمّا صارت في السّاحةِ تلقّاها (قَيافا) وجماعته بسخريتهم:

- عَجوزٌ في الغابرين وفي بطنها جَنين؟!

فتحمّلتْ ذلك صابِرةً، وتجاوزتْهم إلى مُعتكَفِ مريم، فتلقّتْها بشوقِ الرّحم والهَمّ النُّبُوّة، ثُمّ جَلَسَتا تتحدّثان عن المُعجِزَتين اللّتَينِ تتشكّلان في رَحِمَيهما، ثمّ إنّ يحيى تحّركَ في بطن أمّه، فقالتْ لمريم:

- إنّي أرى ما في بطني يسجدُ لِما في بَطنِك.

فأجابَتْها:

- إنّهما نبيَّان، وإنّهما شَهيدان.

وتَطْرِفُ دَمعَتان. وتصمتُ قِدّيستان. وتُضيءُ في تلك اللّحظةِ عَتْمةَ الكونِ كُلِّه شَمْعتان. ثُمّ يطوفُ بقلبَيهما الجَزَعُ قليلاً، فيُثبّتُ الله لهما الجَنان. ويُريهما مَنزلتهما على قَدْرِ صبرهما، فتُذعِنانِ راضِيَتَين؛ ثُمّ تقول مريم:

- كنتُ إذا سكتُّ عَنِ الذِّكر، حدَّثني وهو في بطني عن فضائل الصّبر، وما أُعِدّ للمُخلَصين في الجنّة، فآنسُ بحديثه، فإذا عُدتِ إلى التّسبيح عادَ إليه معي.

- إنّه مُبارَكٌ في الأرضِ وفي السّماء.

وتَعُود (أليصابات) إلى منزلها. حتّى إذا كانَتْ أيّام الوَضْعِ، أقامَ زكريّا عندها يرعاها وقد أحسَّ خِفّةً في روحه، ونشاطًا في بدنه، فلّما ولَدَتْ (يحيى) فرح فرحًا عظيمًا، وأرادَ أن يكونَ شُكرهُ لله في بيته، فحمله فجاءَ به المسجد، ووقفَا، في المِحراب فتلا في أذنَيه الصّلواتِ الطّيّباتِ والباقِيات الصّالحات، ودَعَا له، ثُمّ صعد به إلى مريم، فلمّا رأته تحرّك الجنينُ الّذي في بَطْنها، فأيقنتْ أنّ ساعتَها هي الأخرى قد أزِفَتْ.

ثُمّ إنّ مَنْ في بَطْنِها أتمّ الحديثَ معها، فأَنِسَتْ. فكانتْ إذا فتَرتْ عزيمتُها قوّاها. وإذا أصابَها اليأسُ حَفّزها، وإذا هجمَ عليها هَمٌّ ما ستقول يومَ تضعه ثبَّتَها. فكانَ رفيقَها قبلَ أن تَلِدَ، وكانَ بارًّا بها قبل أن تَضَعه؛ ذلك أنّه ما كان يُصيبها من تعبٍ ولا نَصَب؛ إلاّ ما يفعله طُولِ العبادةِ بها، وإدامةُ الذِّكْرِ على لِسانها. أمّا هو فكانَ رحمةً لها، وأنيسَها في وَحْشتها.

وعَلِـمَ (قَيافـا) وجماعتـه أمرهـا، فاسـتَعظَموا ذلـك، ونعتوهـا بأبشـعِ النّعـوت، وقالـوا إنّهـا لوّثـتْ طهـارةَ المعبـد، وأدخلـتِ الرِّجْـسَ إليـه، وهَمُّـوا بـأنْ يَرْجُمُوهـا، لكنّهـم أجّلـوا أمرهـا لليـوم التّـالي، حتّـى يجتمـع الكَهَنـةُ فيَقضُـونَ في أمرهـا بشريعـةِ مُوسـى. ووجدهـا (قَيافـا) فرصـةً سـانِحةً لِيُبعِـدَ هـذه المـرأة عـن المعبـد، ويخلـو لـه الأمـر، ويكـون قـد تخلّـصَ منهـا ومـن زكريّـا الّـذي أنزلَهـا منزلتهـم، وفتـحَ لهـا المعبـد دونهـم، ومـا كان مـن سـادةٍ للمعبـدِ سِـواهم، ومـا كانَ مـن كَهَنـةٍ يتولّـون الحصـول مـن المعبـد عـلى الغنائـم والولائـم سِـواهم، وهـذا الخـير الممتـدّ، والذهـبّ المحتشـد الّـذي يأتيهـم مـن الحُجّـاج مـن كلّ مـكان لا يُريـدون لأحـدٍ أن يطّلـع عـلى مقاديـره سِـواهم فضْـلاً عـن أنْ يُشـاطِرهم في نصيبهـم.

ثُـمّ إنّهـا عَلِمَـتْ بـما عقـد عليـه (قَيافـا) العَـزم، فنزلـتْ في سـاحَتِها الهُمـوم، وضاقـتْ بهـا الدُّنيـا، وصـارتْ لا تـدري مـا تَفْعـل، فحدّثهـا وهـو في بَطنِهـا: إنّ التَّقـوى بـابُ الخَـلاص، وإنّـه سـيأتيكِ أمـرُ الله قبـلَ أمرهـم، فـلا تَبتَئِـسي بـما كانـوا يعملـون.

ثُـم إنّهـا أثْقَلَـتْ، فاضطجعـتْ تُريـدُ أن ترتـاح، فكلّمهـا في حَـقّ الله: إنّهـا سُـوَيعات، وإنّهـا مُبارَكـة، وإنّهـا إنْ ذهبـتْ فلـن تعـود إلى يـومِ الدّيـن، وإنّ الله يَطلُبُـكِ في هـذه السّـاعة فقومـي إليـه بالدّعـاء، فلـو أنّ آلامَ الجسـدِ باقِيـة مـا أَمِـلَ إنسـانٌ في عَمَـل، ولا سـعى إلى أمـر، ولكّنهـا عـمّا قريـبٍ تـزول وتنتهـي، فاعمـلي مـن أجلي ومـن أجلـك مـا يبقـى لنـا يـومَ نلقـاه، يـومَ يُشـهِدنا على أنفسـنا، ويُشـهِدُنا عـلى قومِنـا... فـإنّ الظّفـر بالنّعيـم الآبِـد ثمنُـهُ الصّـبرُ في اللّحظـاتِ العَصِيبـة الفانِيـة.

فقامـتْ مـن فورهـا، فتوَضّـأتْ أحسـنَ مـا يَكـون الوضـوء، ووقفـتْ بـينَ يـدَيِ الله، وانفتحـتْ أبـوابُ السّـماء، وانشرحـتِ الصُّـدور، وتبـدّتْ عـوالمُ

النّور، وتمثّلتْ آياتُ الحقّ الّتي لا نصيبَ فيها مهما كان ضئيلاً للشّيطان، وانكشفَ لها حِجابُ البصر الّذي يحجزُ البشر عن عالَمين، عالَمَ الفناء وعالَمَ الخلود، وعاينتِ الخُلودَ كُلّه في لَمحة، وبدا عالَمَ الدُّنيا حقيرًا بسيطًا زائِلاً، لا موضعَ فيه لخيرٍ إلاّ ما كانَ مُتّصِلاً بالله، ولا مَوطِئَ فيه لِحَيّ إلاّ ما كان قد ادّخره ليوم الحياة هناك، ورأتْ من اليقين فيما عِندَ الله ما يُهَوِّنُ عليها كُلَّ عظيم، وما يُصغِّر عندها كُلّ كبير. وصرختْ: يا ربّ، فأجابَها الله: يا مريم.

ثُمَّ أَجاءَها المَخاض!!

(١٤)

لَقَدْ جِئتِ شيئًا فَرِيًّا!!

خرجتْ من المسجد في اللّيل مُسرعةً، ليسَ لها من مُعينٍ في الوحشة والظّلمة، والبرد والجُوع غيرُ الله.

لَمْ تَعُدْ بحاجةٍ إلى زكريّا؛ فما هي فيه لا يَقضي فيه إلاّ ربُّ زكريّا، ولن يملك لها زكريّا ولا غيرُهُ لها من الله شَيْئًا، تركتِ الكَهَنةَ في اللّيل يتجادَلون في أمرها، ويَعقِدون العَزمَ على مُحاسَبَتِها في الصّباح. واتّخذتْ من اللّيل غِطاءً وخرجتْ جِهَةَ الشّرق تَلْتَمِسُ النُّور، فإذا بلغتْ مشرِقَ الشّمس، فإنّ الأرضَ حينَئِذٍ تُشرِقُ بنُورِ رَبّها، وهي تتطلّع إلى هذا النّور ليحميها من الظّلام الّذي يُلاحِقُها، ذلك الظّلامَ الّذي امتلأتْ به قُلُوب الكَهَنةِ الكَذَبَة!!

كانتْ كُلُّ خُطوةٍ تُقرّبها من الموتِ والحياةِ معًا، كُلُّ خُطوةٍ تقطعُها في الظّلامُ تُقرّبها من النّور، الظّلامُ خلفَها والنُّور أمامها، وعزَمَتْ ألاّ تنظر خلفَها مهما كانَ الأمر، واشتدّ عليها الوجع، وازدادتْ آلامُها مَعَ خُطُواتِها، والقادِمُ القابِعُ في بَطْنِها يُؤْنِسها في الطّريقِ ويرفعُ مِنْ عَزِيمتها، حتّى إذا ما مشتْ أربعةَ أميالٍ كانَ التّعبُ والألم والجَهدُ والجُوعُ والبردُ قد بلغَ منها كُلَّ مَبْلَغ، وغامتْ عيناها، وكادتْ تقعُ على وَجْهِها، فالتَمَستْ شيئًا تستندُ إليه، ولم يَكُنْ في الأرضِ الفسيحة مِنْ جدارٍ ولا بَيتٍ، ومِنْ بعيدٍ بدتْ بعضُ المشاعلِ تتلألأ في بيتِ لحم لِبُيوتٍ لم يَنَمْ ساكِنوها، وللسّاهرينَ في اللّيل مآرِبُ شَتّى. لكنّها لم تَعُدْ قادِرةً على أنْ تَخْطُوَ خُطوةً أخرى، ونظرتْ حولها في الظّلامِ الكثيفِ فلم تَرَ شيئًا، وحرّكتْ إحدى يدَيها في الهَواء تبحثُ

عـمّا يقيهـا مـن السُّـقوط، ووضعـتْ اليـد الأخـرى عـلى وَسِـطِها جَـرّاءَ الألم، وفي سُكُون اللّيـل، ورَهبـةِ اللحظـة، وشِـدّةِ الوَجَـع، وبُعـدِ الشُّـقَّة، وانقِطـاع المُغيـث، وخَيْبَـة الرّجـاءِ في البشر، سَـمِعَتْ صَوتَـه الحـاني: «انظـري عـن يَمِينـكِ يـا أمّـاه، هـا جِـذع النّخلـةِ، فَـأْوي إليـه».

فـأوتْ إلى جِـذع النّخلـة كـما قـال لهـا وكانَ يابِسًـا مَيِّتًـا لا ثَمَـر فيـه، ثـمّ أراحـتْ جسـدها عـلى الأرض وجاءَهـا مـا يجـيءُ كُلِّ بشريٍّ في هـذه الظُّـرُوف، فتمنّـت أنّ تنشـقّ الأرضُ وتبتلعهـا، ومَـرَّ أمـامَ عَيْنَيْهـا عُمْرُهـا الّـذي انقَـضى، فتمنّـتْ أنّـه لـو لم يَكُـنْ، ثُـمّ خطَـرَ ببالِهـا مـا سيَقُولُـه لهـا قومُهـا حـينَ يكتشـفون أمرهـا فتمنّـتْ أنّهـا كانـتْ نَسْيًا مَنْسِيًّا، ثُـمّ إنّـه أجهَدَتْهـا لحظـةُ الـوِلادة في آخـر المَخـاض، فاضطجعـتْ، فوجـدتِ الأرضَ لَيِّنَـةً مِـنْ تحتهـا فـكان ذلـك أوّل البُشْرَى، ثُـمّ مـا لَبِـثَ أنْ ولـدتْ (عيسـى) فناداهـا مِـنْ تَحتِهـا: لا تَحزني يـا أُمّـاه، فـإنّ الله تكفَّـل بـكلّ شيء، فـما كاد ينقطـعُ صوتُـه حتّـى سَـمِعتْ خريـرَ ينبـوعٍ يجـري بجانبهـا في الأرضِ الهابِطـة، فَمَـدّتْ يدهـا، فلمَسـتِ المـاء، وكان دافِئًـا فغسـلتْ وجهَهـا، وكان عَذْبًـا فشربـتْ، فلـمّا عَضّهـا الجُـوع، ناداهـا المُبـارَك مـن جديـد: «هُـزّي إليـكِ بجـذع النّخلـة» فعجبـتْ كيـفَ تهُـزّ خشـبًا مَيّتًـا، وكيـفَ تـأكُلُ منـه؛ فعلمـتْ أنّ هـذا الّـذي ولدتْـهُ يُحيـي المَوتَـى بـإذن الله، فـما كادتْ تلمـسُ الجِـذعَ حتّـى اخـضرّ واخضـلّ واهتـزّ وأنبـتَ، ثُـمّ تسـاقَطَتْ حولهـا الرُّطَـب، فأكلـتْ أشْـهَى مـا أكلـتْ؛ فعجبـتْ كيـفَ تـأكلُ رُطَبًـا - لا تُنتَـجُ إلا في الصّيـف - في الشّـتاء، ثـمّ عـادتْ إلى نفسـها، فتذكّـرتْ أنّ عهدهـا بهـذا طويـل، فلقـد كانـتْ تأتيهـا في محرابهـا فاكهـةُ الصّيـف في هـذا الوقـتِ كذلـك، وأيقنـتْ أنّ مـا هِـيَ فيـه إنّـما هُـو استمرارٌ لعهـد المُعجِزات الّـذي رافقهـا قبـل ولادتهـا!!

ثُـمَّ بَـرَد الخـوفُ الّـذي في قلبهـا، وهَـدَأ القلـقُ الّـذي ملأهـا، وقَـرّتْ عينُهـا، وامتـلأ قلبُهـا باليقـين، وعرفَـتْ مـا تَفْعَـل. فالّـذي أنطـقَ كُلّ شيءٍ قـادرٌ

علـى أن يُنطِـقَ حتّـى الحجـر ليُثبِـتَ طهارتَهـا. فلـمّا ارتفعـتِ الشّـمسُ قليـلاً وخفَّفـتْ مـن بـرودة الجوّ، نَهَضَـت فَلَفَّـتِ ابنَهـا في خِرقـةٍ كـما فعلـتْ أُمّهـا بهـا قبـل مـا يَقْرُبُ مـن سِتّةَ عشر عامًـا، «فأَتَـتْ بـه قومَهـا تَحْمِلُـهُ». فلـمّا صـارتْ في السّـاحة، ودلفـتْ تُريدُ مَعبَدهـا، كان (قَيافـا) قـد جمـعَ الكَهَنَـةَ والقُضـاة لِينَظُـرُوا في أمرهـا، فقـد بيّتـوا النّيّـة في الحُكـم عليهـا منـذُ أمـس، وحـينَ رأوهـا تحمـلُ صغـيرًا بـينَ يدَيهـا، لم يعـودوا بحاجـةٍ إلى أنْ يَسْـتَجْوِبوها؛ ولا إلى البحـث عـن دليـل؛ فالجَريمـةُ ماثِلـة أمـامَ أعيُنِهـم، ومـا بَـينَ يديهـا دليـلٌ عليهـا. فاسـتوقَفها (قَيافـا)، وهَـزَّ رأسَـه، قبـلَ أن ينظـرَ إلى الكَهَنَـةِ المُتحفِّزيـن لإصـدار الحُكـم برَجْمهـا، ثُـمّ يعـود مُشـيرًا بيـده إلى الصّغـير، ومُخاطِبًـا مريـم:

- لَقَـدْ جِئـتِ شـيئًا فَرِيًّـا، مـا هــذا الّـذي تَحْمِلينـه في هـذه الخِرقـة؟!

فلم تَقُلْ حرفًا واحِدًا، فتابَعَ:

- قُولي ما هذا الّذي بينَ يديكِ؛ أَهُوَ ابنُ زِنا؟!

فظَلّتْ صامِتة، فصرخ:

- مـاذا أصابـكِ يـا امـرأة، أَأَخْرَسَـكِ الشّـيطانُ كـما أخـرسَ زكريّـا مِنْ قبلُ؟! انظـروا مـا لدينـا أيّهـا السّـادة، انظروا أيّهـا الكَهَنـة، أيُّهـا القُضـاة... لدينـا نبـيٌّ أخـرس، ونبيّـة خرسـاء؛ هـل يبعـثُ الله الأنبيـاءَ خُرْسًـا!!

فأشـارتْ إلى الصّبـيّ، ثُـمَّ حرّكـتْ إصبعهـا في حركـةٍ دائريّـةٍ قريبًـا مِـنْ فَمِهـا، لتقـول لهـم أن يُكلّمـوه هـو... فـما كانَ مـن (قَيافـا) إلاّ أَنِ انفجـرَ بالضَّحـكِ، ثُـمّ خمـدتْ ضحكتـه تدريجيًّـا، فلـمّا أنهاهـا، اقـتربَ منهـا، وصرخ:

- أخرساءُ ومجنونة أيضًا!! (وتابعَ وهو ينظر إلى كَهَنتِه): إنّ هذه المُدّعية للصّلاة، المُتظاهرةِ بالعَفاف، لم تكنْ أكثرَ مِنْ بَغِيّ.
- تنحَّ قليلاً يا قَيافا، دَعْنا نَسْأَلْ زكريّا.. أينَ هُوَ زكريّا؟! (قال أحدُ الكهنة)
- لا أدري، رُبّما شُغِلَ بولده هُوَ الآخر عن معبده، هذا الشّيخ الجليل.. (ردّ قَيافا باستِخفاف).

اقتربَ (دانيال) من مريم، ونظر في وجه الّذي تحمله، فرأى طِفلاً سماويًّا ليس من أهل الأرض، فدخلَ حُبُّه في قلبه، فقال لمريم بِحُنُوّ:

- يَا أُختَ هارُونَ مَا كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كانَتْ أُمّكِ بَغِيًّا، لا بُدَّ أنّ في الأمر سِرًّا، دَعْكِ مِمّا سَمِعتِ مِنْ (قَيافا)، أخبريني أنا حُبًّا بالله، مَنْ هذا الّذي تحملين، ومِنْ أين جاء، ولماذا لا تُريدين أن تتكلّمي؟!

فأشارتْ إليه مِنْ جديد، فغضبَ (قَيافا) وعَلا صوتُه، فأشارَ (دانيال) إليه بيده: أنِ اسْكُتْ دون أن ينظر إليه وتابَعَ حِواره مع مريم، فقال:

- كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا؟!

فنطقَ الصّبيّ، وقالَ بصوتٍ مَسموعٍ جليّ لا يحتاج إلى تفسير أو إعادةٍ:

- إنّي عَبْدُ الله، وأنا نَبِيُّه المُرسَل إليكم، ولقد عَلَّمني الله الحكمةَ والتّوراةَ والإنجيل، وإنّي آتيكم بخبري وأخبار إخوتي مِمّن سبقوني، مَنْ آمنَ بي فاز، ومن أعرضَ عنّي خَسِر، ومَنِ ادّعَى فِيّ غيرَ ما أراده اللهُ لي باءَ بِسُوء العاقِبة.

فبُهِتَ (قَيافا)، وجمدتْ ساقاه، ووقفَ كتمثال لا يَتزحزحُ خُطوة، وثبتَ كجذع شجرةٍ عتيقةٍ، ولم يَكُنْ من شيءٍ يتحرّكُ فيه إلاّ عَيناه، دارَتا في مَحْجريهما برعب، وبَزَّتا كما لو كانتا تَهُمّان بالقفز من هُناك. أمّا شَفَتاه فأراد أن يقولَ شيئًا أو يصرخ، فارتجفتا مثلَ جناحَي ذُبابة، لكنّه لم يَقْوَ على قولِ أيّ شيءٍ أو فِعْلِه.

أمّا الكَهنةُ فأصابهم ما أصابَ (قَيافا)، ضَرَبوا ظاهرَ صُدورهم بباطنِ أكُفّهم من العَجَب، ولم يَثْبُتْ أمام الهَول إلاّ مريم، كانتْ أكثرهم يقينًا، وذلك لأنّ القلبَ المملوءَ بالإيمان غيرُ القلبِ المَمْلوء بالبُهتان.

ثُمّ لمّا ذهبَ الرَّوعُ عن الكَهَنةِ وعَن (قَيافا)، جَمَعهم فقال لهم: اكتُموا ما رأيتُمُ اليوم، وما سَمِعتُم، ولا تُحَدِّثوا أحدًا من بني إسرائيل به، فإنّه إنْ شاعَ أمرُهُ بينَ النّاسِ دَبَّتِ الفوضَى، ونُزِعَ مِنّا السُّلْطان، وأصبحنا هُزَأةً بين الحَجيج. ففعلوا جميعًا ولم ينكثْ بذلك أحدٌ. فَكانَ هذا أوّل الغَدر، نُسِيَ عهدي، وكُتِمَ أمري، وما ذلك إلاّ لكي يُحافِظَ الكَذَبةُ على مصالحهم الدُّنيويّة.

ثُمّ إنّ (قَيافا) أجبرهم على أن يُصدِروا في أمّي أَمْرَ الإبعاد عن المسجد، حتّى لا ينكشفَ بي وبها أمره، ولكي يخلو له الجَوُّ من بعدنا، ففعلوا وتابعهم على ذلك (دانيال)، وكم أَسِفتُ لأمره، فقد كنتُ أظنّ أنّ الخير الّذي فيه سيمنعه من الانسياق وراءهم، أو يقوده إلى أن يُبيّن لهم الحقّ، لكنّ شيطانَه كان كبيرًا فتضخمّ في قلبه حتّى بال فيه، وأدام السُّكنى هناكَ حتّى قاحَ!!

وحاول زكريّا أن يُوقِفَ تآمر (قَيافا)، لكنّه لم يستطع أمام مُشايعيه مِن تبَعِه، فقد تكاثروا إلى جانبه، وأيّدوه ونعتوا زكريّا بالجُبنِ وقلّة الشّرف، فلم تَجِدْ أُمّي بُدًّا من العودة إلى بيتِ أبيها وأمّها، فودّعها زكريّا وقلبُهُ يقطر أسىً، وسأل الله أنْ يجعل لها من أمرها يُسرًا.

وعُدْنا إلى النّاصرة. وابتدأتْ بي حياةٌ جديدةٌ.

(١٥)

انبُش أيّ قبرٍ، وَائْتِه بعِظام حِمار!

إنّها قاعةُ العرش. عاليةٌ فسيحة، على أطرافها قامتْ أعمدةٌ سِتّةٌ ضخمة ترتفع إلى قُبّةٍ تتوسّطها نُقوشٌ رومانيّة، وعلى الجدران الثّلاثة سمقتْ نوافذ مُلوّنة ذات أقواسٍ. أمّا الجدار الّذي بينَ يدي العرش فلم يكنْ موجودًا، كانتْ تفصل بينه وبينَ الشّرفة ساحةٌ ممتدّة، تظلّ ذاهبةً في امتدادها حتّى الشُّرفة؛ الشّرفة ذات المشربيّات الضّخمة، والمُطلّة على المعبد، من سَفح ذلك الجبل الّذي يربضُ عليه القَصْر، كان كثيرًا ما يقول لِخَدَمه وهو يقف على الشّرفة المُطلّة على اليهود الّذين يضجّ بهم المعبد: «من المهمّ أن تظلّ الكِلابُ الضّالّة تحت عينَيك، لكي تعرف اللّحظةَ المناسِبةَ لِسَحقها».

جلسَ (هيرودس) الأكبر على عرشه، واصطفّتْ على شكل نصفِ دائرةٍ كراسيّ المُقرّبين، ثلاثةٌ من أبنائه: (هيرودس أَنْتِيباس، وهيرودس أَرْخِيلاوس، وهيرودس فِيلُبُّس) عن يمينه، أمّا عن يساره فجلس الوزير الأوّل، ثُمّ تلاه بقيّة الوزراء، وعددٌ من الأمراء، وأطفالهم، بعض أطفالهم صار ملكًا أو قائدَ جيشٍ أو ربّما إلهًا، مَنْ يدري!! وكان ضمنهم ذلك الطّفل ذو السّنوات العَشر، والّذي بدتْ ملامح نباهته وذكائه مُبكرًّا (بيلاطُس)، ومن خلف هذا الحَشْدِ الملكيّ شكّل أكثرُ من ثلاثين جُنديًّا رُومانيًا مُقاتِلاً طَوْقًا من الحِراسةِ مُحكَمًا؛ كانوا يقفون مثل أصنامٍ لم تدبّ فيها الحياةُ يومًا، بلباسهم العسكريّ وتُرُوسهم الّتي تنتصبُ أمامهم بشكلٍ عموديّ فتُغطّي كلّ شيءٍ ما عدا وجوههم، وجوههم الّتي بدتْ للنّاظر

إليها جامِدةً صارمة، ليسَ فيها أيّ دليلٍ لدمٍ يجري، وأمّا رؤوسهم فغطّتْها الخُوَذ الحديديّة الصّفراء اللامعة، وانسحب في أعلاها ذيلٌ من الرّيشِ الأحمر؛ نعم، كانَ حرسُ هيرودس هم مُقاتِليه؛ فلمْ يكنْ يأمنُ حتّى أبناءه، لشدّة رعبه وحذره من أيّ خَطَرٍ قد يُواجهه!!

دخلَ القائد العامّ للحامِيات، لِيقُدّم تقريره السّنويّ عن الأمن الغذائيّ، والأحوال الاقتصاديّة الّتي تعيشها المملكة، كان من هَمّ (هيرودس) أن يبعث بالتّقرير إلى الإمبراطور (أغسطس) فيُطلِعه على أنّ مملكته في فلسطين تعيشُ انتِعاشًا اقتِصاديًّا حتى ولو كان الواقِعُ عكسَ ذلك. مَدّ القائد بالتّقرير مكتوبًا على رقعة من الجلد إلى الوزير الأوّل، وقف الوزير الأوّل أمام هيرودس، انحنى، ثمّ اعتدل، وفتح لُفافة الجِلد، وقرأ التّقرير... قاطَعه (هيرودس) بعدَ أن شرع بالقراءة بقليل: «لا تُضجِرني أيّها الوزير... فقط قُل لي أيّ الحامِيات لم يدفع الضّرائب... وكفى!!». نقّل الوزير بَصرَه في التّقرير، ثمّ رفعَ بصره إلى (هيرودس)، وهتف: «حامِية قيروط والنّاصِرة يا مولاي». سأله (هيرودس): «يهودٌ هُم؛ أليسَ كذلك». أجابه الوزير: «بلى؛ يا صاحبَ العَظَمة». سكت هيرودس ولم يَبدُ عليه أيُّ امتعاض، ولا استياء، انسحبَ صمتُه على كلّ الموجودين؛ فهدأتِ القاعة كأنّها قَبر، وصمتتْ فلم يَعُدْ يُسمَعُ شيءٌ، لكنّه فجأةً هبّ واقِفًا، وهتفَ بصوتٍ مشدود:

- أيُّ الأماكنِ أشدُّ قداسةً عند اليهود.
- يا مولاي، عندَ قَيافا أم زكريّا. (ردّ الوزير الأوّل).
- بل عندَ قيافا أيّها الأحمق، فهو الّذي يملكُ رؤوس هذه الأغنام السّائبة!!
- قبرُ داود يا مولاي.
- إذًا انبِشوا القبر، وَأْتُوني بِعظامه، أريد أن أرميها لكلابي.

سكتَ الوزير، وانخرسَ كُلُّ مَنْ في القاعة، صَرَخَ من جديد:

- ألم تسمعْ أيّها الأخرق، ألم تسمعوا أيّها الحمقى... انبشوا قبرَ إلههم داود وأتوني بِعظامه، لأَسْحَقنَّها سحقًا حتّى لا يتخلّف أيُّ يهوديّ عن دَفعِ حقّ روما في ماله!!
- لَبّيْكَ يا صاحبَ العَظِمةِ. (انحنى الوزير الأوّل أمام هيرودس، رجع خُطوتَين إلى الوراء مُنحنِيًا، اعتدل، ثُمّ انسحبَ من القاعة، وهو يرتجفُ من الدّاخل).

أُسقِطَ في يد الوزير الأوّل، رَكِبَه الهَمّ، فجمعَ مُستشاريه، يستطلعهم في أمر الملك، كيفَ ينبِشون قبرًا مُقدَّسًا، قال له أحدُهم: «نَفِّذْ على الفور، أنتَ تعرفُ بطشَ هيرودس، بل أنتَ أخبرُ النّاسِ به». قال آخر: «هَوَسُه بالقتل أكبر من هَوَسِه بالخَمْرِ إنْ لم تَفعل، فمصيرُكَ ومصيرُنا محتوم». قال ثالث: «هو لا يَطيبُ له عَيشٌ إلاّ إذا أعدمَ عشرةً على الأقلّ في كلّ يوم، وقد نكونُ نحنُ العَشَرةَ القادِمة». قال رابع: «لديّ فِكرَة، استعِنْ بزوجته». قال الوزير: «أيّ العَشْرِ تقصِد؟!». ردّ: «الأحبّ». «مَنْ؟! مريمنى!!». «ومَنْ غيرُها؟!».

خَشِيَ الوزير الأوّل أن تُوقِعَه (مريمنى) في الفَخّ، فهي لم تنسَ أنّ هيرودس قتلَ أخاها وجَدّها، وهِيَ أيضًا لم تنسَ أنّ الوزير لم يَستجِب لها مرّاتٍ عديداتٍ، لا عِفّةً فيه؛ فأعرفُ النّاس بِكَ ذلك الّذي في أعماقِك، ولكنْ خوفًا من بطشِ هيرودس إنْ عَلِم الّذي يغار على نِسائه وعلى غير نِسائه، ويتوجّس خِيفةً منهنّ ومن أيّ امرأة. لكنّه لم يجدْ مهربًا من استشارتها؛ فلديها من الحلول لفهمها نفسيّة الملك ما ليسَ عندَ سِواها.

قالـتْ لـه: «انبُش أيّ قـبرٍ، وَائتِـه بعِظـام حِمـار». نَفَّـذَ وصيّتهـا عـلى الفـور دون أن يُناقِـش، أمّـا هِـيَ فقالـت ذلـك مـن أجـل أن تُوقِعـه تحـتَ حَـدّ المقصلـة؛ كانـتْ غريـزة الانتِقـام تفـورُ في أعماقِهـا، فبعثـتْ إلى أحـدِ خدمهـا الخُلَّـص تستقدمه، فلـمّا مَثُـلَ بـين أيديهـا، قالـتْ لـه: «قُـلْ لقائـدِ الحـرس إنّ الوزيـر الأوّل سـينبش قـبرَ حِمـار». ففعـل؛ فوصـل الأمـر إلى (هـيرودس)، فانتظـر الوزيـر.

جـاءه مُسـتَبْشِرًا كمـن نجـا مـن المـوت وهـو لا يـدري بأنّـه يمـشي إلى المـوت، الحَتـفُ ليسَ في السّـيف؛ الحَتْـفُ في الكلمـة، والمـوتُ لا يأتيـكَ مِـنْ فوقِـك؛ إنّـه في شَرَكِ النَّعْـل. قـال لـه بعـد أن ركـعَ بـينَ يديـه:

- لقدْ نَفَّذْتُ ما أمرتَ به يا مولاي.
- فأينَ عِظامُ داود؟!
- إنّها بينَ يدي الجُنودِ إنْ أذنتَ أبدَيْناها لك.
- هاتِها لأرى.

دخـل جُنـديّ، وفي يـده صَحْفـةٌ كبـيرةٌ عليهـا مجموعـةٌ مـن العِظـام، أشـار لـه (هـيرودس) أنْ يَضعهـا عـلى طاولـةٍ تقـف في الطّـرف، تقـدّم نحوهـا، حَمَـلَ عَظمةً منهـا بـين يديـه، رَفعهـا عاليًـا:

- أرى عِظامَ داود تُشبه عِظامَ الحمير.
- عفوًا يا مولاي...!!!
- ألم تَقُـلْ لي بـأنّ داود مـات مـن مِئـات السّـنين، فعـلامَ هـذه العِظـام تبـدو كأنّـما فُصِـلَ عنهـا اللّحـمُ أمسِ؟!!
- ....؟!!!!!
- يـا قائـدَ الحـرس... وافِنِـي اليـومَ بالوزيـرَ الأوّل ومستشـاريه جميعًـا في سـاحةِ المـوت.

في المساءِ، وقفَ هيرودس على رأسِ الوزير، توسّلَ إليه:

- الرّحمةَ يا مولاي!!
- كلمةٌ واحدةٌ قد تُنجيكَ مِنَ الموت.
- اسألْ يا مولاي.
- مَنْ أشارَ عليكَ أن تأتيني بِعظامِ حمار؟!
- مريمنى يا مولاي.
- أيُّها السّيّاف، لا تُبقِ منهم أحدًا.

(١٦)

دَفْعُ الشّرّ بالشّرّ أَشْفَى

أعـرفُ أنّ الشّـياطين تجـولُ في أعـماقِ البـشر، أدري أنّهـا تسـكنُ أجسـادهم، وأعلـمُ أنّهـا إنْ دخلـتْ هُنـاكَ فـلا تخـرجُ أبـدًا، لكـنْ أنْ تدخـل إلى قلـبِ حبيبتـي (مريمنـى) فهـذا مـا لم يَـرِدْ في خاطِـري أبـدًا. هـل النّسـاء يَعرفْـنَ الحُـبّ؟! هـل يُدْرِكْـنَ معنـى أن تَفْقِـدَ كلَّ شيءٍ لديـكَ مِـنْ أجلهـنّ؟! هـل أدركـتْ هـذه الصّغيرة أنّني فَضَّلْتُهـا عـلى المِئـات مِـنَ اللّـواتي مَرَرْنَ في حيـاتي؟! هـل تعلـم أنّنـي وقفْـتُ قلبـي عليهـا، فهجـرتُ كلّ المَحظيّـات مـن أجلهـا؟! ومـاذا فعلـتْ في النّهايـة؛ يـا لَلمسـكينة؛ تلبَّسَـها الشّـيطان...!!

توقّـفَ وسـطَ سَـيْلٍ مِـنَ الأفـكار الّتـي تدافعـتْ إلى ذهنـه، ثـمّ رفـع يديـه ونظـر إلى الأعـلى إلى القُبَّـة الّتـي ترتسـم عليهـا آلهـةُ الرومـان، ثـمّ صرخَ كأنّـما يسـتغيث: «أيّهـا الشّـيطان؛ لمـاذا اخـترتَ حبيبتـي دونَ سِـواها؟! لمـاذا تركـتَ كُلَّ نساءِ المملكـةِ وجِئـتَ إليهـا؟! ألكَـي تُعذّبنـي بِفَقْدهـا؟! لمـاذا عَلَّمْتَهـا الخيانـةَ أيّهـا الخبيـث؟! حتّـى أنـتَ أيّهـا الشّـيطانُ تَحسِـدُني عـلى عَظَمتـي؟! ألَمْ تَكْفِـكَ مَملكتُـكَ حتّـى نهشـتَ خـاصرتي؟! قسـمًا بالآلهـة كُلِّهـا لأقتلنّهـا، ثُـمّ لأشربـنَّ مِـنْ دَمِـكَ ومِـنْ دَمِهـا».

في غُرفتهـا، عرفـتْ كُلَّ شيءٍ، فانتظـرتْ حَتْفهـا دون حـراك. جاءَهـا قائِدُ الحـرس في كوكبـةٍ مـن الجُنُـود، حَمَلوهـا عـلى نَقّالـةٍ إلى غُرفـةٍ سُـفليّةٍ أخرَى لَمْ ترَهـا مـن قبـلُ في هـذا القَـصْرِ الفسـيح، ولم يَـدُرْ في خلدهـا يومًـا أنّ مثلهـا موجـودٌ هنـا، لم تَقُـلْ شـيئًا، لم تُحـرِّكْ سـاكِنًا. كانـت الغرفـةُ مليئـةٍ بصـورِ آلهـةٍ كثيرةٍ مَنقوشـةٍ عـلى الجُدرانِ لا تعـرفُ لهـا اسـمًا ولا معنًـى. مـن النّوافـذ القوسـيّة

الّتي تقع في الشّريط العُلويّ للغرفة تسللّ بعضُ النّور، عرفتْ أنّها غرفةُ تعذيبٍ. سَمِعتْ فيما مَضَى أنّ زوجها كانَ ينتزعُ الاعترافات من ضحاياه هُنا قبلَ أن يُجهزَ عليهم، فارتعشَ كُلَّ شيءٍ فيها، تخيّلتْ صرخاتِهم في صَمْتِ الجدران السّميكة في اللّيالي الطّويلةِ فانخلع قلبُها، في وَسَطِ هذا الموتِ الّذي يفوحُ في كلّ شبرٍ من هذه الغرفة ظلَّ خيطٌ من الأمل يَشُدّها إلى الحياة؛ كانتْ تعلمُ مدى حُبِّ (هيرودس) لها فتعلّقتْ بِحَبْل الحُبّ، ولم تدرِ أنّ حبل الحُبّ أَوْهى من خيطِ العنكبوت!

دَخلَ (هيرودس) القاعة، عبرتْ أمامه صُوَر الضّحايا، كم مرّة دخلَ من هذا الباب بذاتِ الشّعور، لكنّه اليوم يدخله بشعورٍ مُختلفٍ، لأنّ الضّحيّةَ اليوم مُختلفة، لم تستأثرْ أيّةُ ضَحيّة من قبلُ بقلبه مثلَ هذه الضّحيّة، وإنّه إنْ كانَ قد أَسِفَ على بعضِ ضحاياه سابِقًا، فإنّه اليوم ربّما... رُبَّما يبكي!!

اتّخَذَ له مكانًا يُتيحُ له أن يرى كُلَّ شيءٍ بوضوح، وُضِعَتْ أمامه مِنضدةٌ خشبيّة يصطفُّ فوقَها أكثر من عشرِ كؤوس تَرقُصُ بما في قَعْرِها، دخلَ مِنْ بعده قائدُ الحَرَس، ومن بعده ثلاثةٌ من الجلاّدين الأشدّاء، كانوا مَفتولي العَضلات، صدورهم نافِرة، وأجسادهم كما لو كانت صخورًا راسِية. هالَها المنظر المُرعب، صَرَخَتْ، فابتسم الملك وأفرغَ كأسًا من الكؤوس المُتراقِصة في جوفه. قالتْ كلامًا مُختلِطًا لم يفهمه، فقال للحرس: قرّبوها. صارتْ على مقربةٍ منه. نظرَ إليها مُستطْلِعًا فرأى حبيبته ترتجّ من الخوف والهلع، أشاحَ بنظره عنها بعيدًا، لم يَدْرِ كيفَ تكونُ هذه الملكةُ تحت مِطرقة الرُّعبِ ولا يَقومُ بحمايتها!! لم يَكُنْ بمقدوره أنْ يفهَمَ نفسه: أهُوَ هُوَ؟! أَهُو الّذي قتَلَ كُلَّ مَنْ حَولَها لكي تسلمَ له ولا تُشاكَ بشوكةٍ؛ ثُمَّ ها هو يُريدُ أن يُمزّقها إلى أشلاء الآن؛ أَهُوَ هُوَ!!! لَمْ يَستَطِعْ أن يُوازِنَ بينَ جسدِ

محبوبةٍ كان يخافُ على خدّها مِن أَنْ يجرحه النّسيم، وبين ذاتِ الجسد يُقدّمه في هذه اللّحظةِ إلى الموتِ بأبشعِ صُوره!! فكَّر أكثرَ؛ فعجِزَ عن فَهمِ نفسِه، أو فَهْمِ ما يفعل، لكنّه هتفَ في أعماقه: «لَنْ أجعلَ الشّيطانَ يَنتصِرُ عَلَيّ».

أشارَ إلى الجلاّد الأوّل، تقدّمَ نحوها، فَصَعِقتْ، صرختْ مُتَوَسِّلةً من جديد، فعبَّ الملك كأسًا أُخرى، وأشار الملك بيده للجلاّد، فتوقّف. قرّبوها أكثرَ منه، قالتْ له والحروف تتعثّر من بينِ أسنانها المُصطكّة: «إذا قَتَلْتَنِي فَأَجْهِزْ عَلَيَّ بِسُرعةٍ ولا تُعَذِّبْني». ابتسم، ثُمّ هَزّ رأسه، وانكمشتْ صفحةُ وجهه، عَبَّ كأسًا ثالِثة، وحَطَّمها على الأرض، فصعد صوتها كزعيقِ أفعى تُداس: «سأُحقِّق لكِ هذه الأمنية، مع أنّني لم أُحقِّقْها لأحدٍ مِنْ قبلُ؛ هُمْ رُبّما لمْ يَحظَوا بفُرصةٍ كبيرةٍ كهذه، لكنْ أنتِ سَتَحظَين؛ لأنّكِ تستحقّين».

ذَبَحها الجلاّدُ الأوّل كما تُذبَح الشّاة، وسَلَخَ الثّاني جِلدَها، وفَصَل الثالِث لحمَها عن عَظْمِها!!

رفَعَ المَلِكُ عَظْمَ صدرِها، بَكَى، قَرَّبهُ إلى شفتيه، شَمَّ رائحتَه، قال في نفسه: «لو جِئتَني أيُّها الوزير بمثل هذه العِظام لَصَدَّقْتُكَ ولَسامَحْتُكَ!! أمّا عِظامُ حِمارٍ فلا!!». عَبَّ الكؤوس المُتبقيّة وخَرَج.

في ليلةٍ سحيقة؛ طرقَ بابَه الحاجِب: «هناك اثنانِ يريدان مُقابلةَ الملك أيأذنُ لهما؟!» صرخَ في وجهه: «أَفِي هذا الوقتِ أيّها الغبيّ!!» ردّ الحاجِب: «إنّهما مُنَجِّمانِ يا مَولاي، وإنّهما يَقولانِ إنّ لديهما أخبارًا تَهُمُّكَ». نَهَضَ المَلِكُ من فِراشه فَزِعًا، كان يُصَدِّق المُنجِّمين في كُلِّ ما يَقولونه، وافاهما في قاعةِ التّشريفات بثياب النّوم:

- ما وراءَكما؟!
- أخبارٌ لا يعرفُها سِوانا.
- مِنْ أينَ أنتُما؟!
- مِنْ بلادِ فارس؟!
- وأيَّ إلهٍ تعبدون؟!
- النّار.
- سأحرقكما بالنّار إنْ لم يَكُنْ لديكما ما يستحقّ أن يُوقظني من نومي في هذه السّاعة المُتأخّرة من اللّيل.
- لقد ظَهَرَ نَجْمُ الملك. وجِئنا لِنَسْجُدَ له ونذبحَ القرابينَ تحتَ قدمَيه.
- أيُّ مَلِكٍ وأنا المَلِك؟!!
- مَلِكُ اليَهودِ يا مَولاي.
- وأينَ ظَهَر؟!
- نَجمُهُ يقولُ إنّه ظهر في بيتِ لحم.
- وهل تستطيعان أن تَعرفا مَنْ هُوَ بالتّحديد؟!
- بلى، إذا تتبّعْنا نَجمه.
- اِفْعلا وأخبِراني؛ لأنّني أنا أيضًا أريدُ أن أسجدَ له، وأُقدّم له القرابين!!

خرجا مِنْ عنده يتتبّعان النّجم، أمّا هو فأمر قائدَ الحرس إذا عرفَ مِنَ المُنَجِّمين مكانَ الملكِ اليهوديّ أنْ يقتله ويُجهِزَ عليه دون أن يُخبِرَ أحدًا سِواه.

لم يَنمْ (هيرودس) في تلك اللّيلة لحظةً واحِدةً، ظلّ يتقلّبُ في فراشه وهو يُفكّر فيا سَمِعَه من المُنَجِّمين، لَئِنْ صَدَقا فلتكوننّ نهايتي؛ ولَئِنْ كانا

كاذِبَين فما يَضِيرُني، كلبانِ دَخَلا قَصري فَعَوَيا لحظةً ثُمّ غادَرا، قال ذلك لِنَفْسِه، ثُمّ هتف: إذا أردتَ لشجرةِ الشّرّ أنْ تنتهي فاقْطَعْ جُذُورَها من الأساس. لن أدعَ هذا الوليد يكبُرُ حتّى يسرقَ مِنّي مُلكي، سأغدِرُ به قبلَ أن يَغدِرَ بي.

قضى (هيرودس) ليلةً من بعد رحيل المُنَجِّمَين ينتظرُ خبرَهم، لكنْ ما مِنْ مُخبِر، وما جاءهُ منهما شيءٌ. ثمّ انتظر ليلةً أخرى... ثُمّ لم يعُدْ قادِرًا على الصَّبْرِ، فَغَضِبَ غضبًا شديدًا، واستقرّ في ذهنه أنّ هذين المُنَجِّمَين ما هما إلا مُشَعوِذان، وأنّهما كاذِبان... ظَنَّ لوهلةٍ أنّه يحلُم، وأنّ قِصّةَ دخولهما عليه كانتْ خيالاً تهيّأ له في غمرةِ إدمانه على الخمر، ثُمّ خطَرَ بباله أنّهما رُبّما دخلا قَصرَه بالفِعل وأنّهما خَدَعاه، لكنّه لم يَدْرِ لماذا يخدعه اثنان من الغُرباء جاءَا من بلادِ المَجوس، فلم يُحكِمْ فيهما رأيَه، ولم يَحزِمْ في تفسيرِ حالتِهما أمرَه، لكنّه عزَمَ على أن يحتاطَ لِما سَمِع. فنادَى قائدَ الحرس، وأمره أن يذهب بمئةٍ من الجُنود، ويَضُمّ إليهم مئةً أخرى من حامية بيت لحم، ويقوموا بقتل كلّ رضيعٍ يسكُنُ في البلدة، وكُلَّ طفلٍ يبلغ من العمر سنتَين أو أقلّ، إمّا بالخَنقِ أو بالذّبح.

قال الملك، لنفسه وصَرَخات المذبوحين تَصُمّ أُذُنَيه:

- دَفْعُ الشّرّ بالشّرّ أَشْفَى.
- أَمْرُ المَلِك كأمْر الآلِهة. (ردّ رئيسُ الحرس).
- هل قتلتمْ كُلَّ أطفالِ بيت لحم؟!
- فَعلْنا يا سيّدي.
- لعلّكم نسيتمْ رضيعًا هنا أو هُناك!
- كلاّ، لم نقتلْ أطفال اليهود فقط، بل قتلنا أطفال الرّومان كذلك. إنّ أَمْرَ الملك لا يُردّ. وإذا ضربتَ فأَوْجِع.

ابتسمَ الملك، رفع رأسه إلى القبّة، رأى الآلهةَ تطير وتضحك، لأوّل مرّة يراها هكذا، دعا بصوتٍ متأرجح ورأسُه مُلقًى خلفَ ظهره: يا آلهة أغسطس لقد مَنَحْتِني المُلكَ اليوم فامنحيني الألوهيّة غدًا». ثُمّ أرجع رأسه فوق كتفَيه، وراح صدى قهقهاته يرجّ القاعة فيبتلعُ حروفَ دعائه.

«فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب».

(١٧)

أخافُ عليكما الذّئبَ واللّيلَ وبُعدَ الشُّقّة

لم يَشْهدْ تاريخ (هيرودس) الدّمويّ أبشعَ من تلك المَجزرة، كان الرُّضّعُ يُذبَحون أمام أعينِ أمّهاتهم، بعضُ الأمّهات لم يَصمُدْنَ فَذُبِحنَ أسًى لِما شَاهَدْنَ، ولَحِقْنَ بأطفالهنّ. قال الملك: «لا تَأْخُذْكم بهم رأفة، دَعوا حواري بيتَ لحم تسيلُ بدماء الأطفال، إنّ عرشًا لا يقوم على الدّم سرعان ما ينبتّ». ثُمَّ أمر أن يُعَوَّضَ أهالي الضّحايا مئةَ دينارٍ من الفضّة بدلَ كُلِّ رضيعٍ ذُبِح، وأنْ تُقدَّم لهم التّعازي، وأن يتفهّموا أنّ ذلك كان من أجل مصلحة الشّعب والأمّة!!

ثُمّ شاعَ خبرُ مجزرةِ بيت لحم، فصار كُلُّ أهلِ بيتٍ يُخبِّئون أطفالهم. وكنتُ أنا وأمّي في الناصرة، وكان لنا جارٌ يُدعى (يوسُف) يعمل في النّجارة، وكان قريبًا لأمّي. وقد أخذ على عاتقه أنْ يكفينا مؤونةَ العيش، حتّى يتقوّى جسدُ أمّي، وتتفرّغ للعمل. ولم يكنْ يبغي من وراء ذلك من أجرٍ أو غايةٍ إلاّ تَبرُّكًا لما رآه من الآياتِ فِيَّ بقلبه. والحقّ يُقال إنّه كانَ طاهِرًا شريفًا يأكل مِن تَعَبِ يده، يعمل نهاراً كامِلاً في حانوته، يصنع المناضد، والنّوافذ، والمحاريث، والأَنْيرة، وكُلَّ ما له علاقةٌ بطبيعة وظائف أهل النّاصرة وما حولها. وكانَ جَادًّا تعلّمتُ على يديه فيما بعد.

فلّما شاعَ خبرُ ذَبح الأطفال في بيتِ لَحم، جاءَ فَزِعًا إلى أمّي، وقَصَّ عليها القَصَص، وطلبَ منها أن تُغادر بي خوفًا من أن تطالني سكاكينُ هيرودس، فرَجَّعتْ، لكنّها لم تَعزِمْ على الرّحيل، فقد كانَ يقينُها بالله في

حمايتي عظيـمًا، وإنْ كانَ قلبُها الرّؤوف قد ارتجفَ لهولِ ما سَمِع... فإذا كان اللّيل، نامَتْ، فجاءها جبريل، فأخبرها أنْ ترحل بي إلى مِصر، فعلمتْ أنّ الله يدعوها لذلك وأنّى لها ولي أنْ نُماطِلَ في أمر الله.

فلـمّا صار الصّباح، جاءنا (يوسف) النّجّار بحمارٍ له، وقال: لقد رأيتُ ما رأيتُما، وقد علمتُ أنّكما بحاجةٍ إلى راحلة، وهذا حماري، فارتحِلاه إلى مصر، ثُمّ دفع إلينا بصُرّةٍ من المال، ورجا أمّي أن تقبلها فأنِفَتْ، وقالتْ: «أنتَ أفقرُ مِنّا»، ولكنّها قَبِلتْ منه الدّابّة:

- إنّها بلادٌ بعيدة. (قال لأمّي)
- لكنّها قريبةٌ على الله.
- أخافُ عليكما الذّئبَ واللّيلَ وبُعدَ الشُّقّة.
- خَفِ الذّنبَ؛ فإنّه أشدُّ فتكًا.

فتنهّد، واستسلم، وغادرَنا إلى عمله، ولا ندري من بعدُ من أينَ نبدأ، ولم نكنْ نعرفُ طريقَ مصر، ولا غيرها، لكنّ شيئًا ما في أعماقنا كان يملؤنا رِضًى وعزيمة، وكان لي من العمر آنذاك سنتان، وأنا أرى وأسمع وأعرفُ كُلّ ما يدور، ولا أقومُ بشيءٍ إلاّ بِقَدَرِ الله وبِخُطّته، فإنّ الله كان في بصري وسمعي وفؤادي. وكُنتُ مُبارَكًا أينما كُنتُ. ومَضَينا.

رَكِبْنا الدّابة، هَبَطتْ بنا جنوبًا، باتّجاه السّامرة، وَحْدَنا وَالطّريق؛ لم يَكُنْ من بشرٍ في العالَمَ الأرضي يُدرِكُ أنّنا نبيّان، كُنّا في نظرهم مُجرّدَ مُسافِرَين. ولا أنّنا سنأخذ بيد هذا الكون الضّالّ الغارق في شَهَواته ومآسيه إلى النّجاة، كُنّا في نظرهم مجرّد اثنَين، أمّا وطفلاً مِسكينَين يستحقّان الشّفقة في عيونِ كُلّ مَنْ رآنا... لكنْ مَنْ يدري أنّ العالَمَ المُتخبِّط في ظُلُماته سيُنقذه ذلك الطّفل الّذي يتهادَى قابِعًا خلف أمّه الصّدّيقة يَحمِلُهما حِمار!!!!

أمّي تمشي في الطّريق الّتي مَشَتْها أُمُّها من قبل، وقفتْ عند بئر يعقوب من جديد، هذه المرّة لا لِكَي تُسقَى بل لكي تَسقِي، تذكّرتْ جدّتي، فانهمرتْ من عينَيها دمعتا بِرّ، مِنْ أمّي تعلّمتُ البِرّ مُبكِّرًا؛ كانتْ في كلّ دُعاءٍ تجعلُ لأبوَيها نَصِيبًا وافِيًا، ومِنْ صَبْرِها المُفعَم بالرّضى تعلّمتُ معنى الصّبر، كانتْ جسدًا لو أراد الصّبر أن يتجسّدَ لكانَه.

كُنتُ أعلمُ ▯ وأنا ابنُ السَّنَتَين - أنّ رحلةً كهذه لا تُقطَع إلاّ في قافلة، قافِلةٍ من أجل الحماية، وهداية الطّريق، وتحمُّل التّعب والضّنى، ففي القافِلة يحملُ الواحدُ الآخر، ويُعينَ القَويُّ الضّعيفَ، وتُطعَمُ القافِلةُ مِمّا يُنضَجُ على النّار في أوقاتِ الاستراحات، وفي منازل التّوقّفات. وكانتْ أمّي وحدها قافِلة؛ وكانتْ قافِلتُها تتشكّل من الإيمان العميق، والثّقة المُطلَقة بالله، والصّبر على البلاء، والأمل بالنّصر، والوفاء بالعَهد، والإيقان بتحقُّق الوَعْد، وَعْدِ الفوز بعد التّضحيات. نعم كانتْ هذه قافِلتَها؛ وأَنْعِمْ بها من قافِلة!

تجاوزتْ أمّي السّامرة مُسرِعةً دونَ أن تدخلها، وصرنا ذاتَ مساءٍ في (عَمْواس)، ونظرتْ أمّي إلى الغرب حيثُ أورشليم، فخفق قلبُها إلى محرابِ عِبادتها، وهبّتْ نسائمُ عذبةٌ من تلك الجهاتِ المُقدّسة، فملأتْ أمّي رئتَيها من تلك النّسائم، وطافَ ببالها فَضلُ زكريّا عليها فدعتْ له، وحدّثتْ نفسها: سلامٌ عليكَ يا زكريّا، سلامٌ عليكَ في نَسْلِ الأنبياء المُبتَلَيْن الطّاهِرين... وسمعتُ صوتَ نَفْسِها، فأمّنْتُ على دُعائِها.

حتّى إذا صرنا قريبًا من هضبةٍ تُطلّ على بيتِ لحم، نزلْنا عن الحمار، وربطتْه أمّي إلى جذع شجرةٍ، وأنزلتْ عنه الحِلْس، وجعلتْه فراشًا لنا، ونامتْ مُتكوّرةً بعد أنْ وضعتْني في حِضنها ولَفّتْني بذراعَيها، وسَمِعتُ صوتَ الله آنذاك: حِضنُ الأمّ روضةٌ من رياضِ الجَنّة. ومرّ بنا مُنتَصفُ

الّليـل، ثـمّ عـبر، حتّـى إذا صـار الثُّلُـثُ الأخـير مـن اللّيـل، قامـتْ إلى جـرّة صغـيرةٍ ركنتْهـا إلى قـاع الشّـجرة، فتوضّـأت، ثُـمّ ذهبـتْ في صلاتهـا تدعـو وتبتهـل وتحمـد الله حتّـى طلـع الفجـر!!

ثـمّ رأيتُهـا قـد زيّنهـا اللهُ بالتّقـوى، وشرّفهـا بمُناجاتـه، فلـم تكـنْ تُحدِّثُ أحـدًا إلاّ نـادرًا؛ كانَ كُلُّ حديثِهـا مـع الله، وجـدتْ فيـه أُنسَـها، ونَسِيَتْ عنـده يُتْمَهـا، وذهـبَ عنهـا رَوْعُهـا مـن أذى النّـاس حـينَ خاضُـوا في عِفّتهـا، وأكثـروا فيهـا القَـول عـن جهـلٍ وضـلال، وقـرّتْ عينُهـا في رِحـابِ مَلكوتـه، ونَعِمـتْ عـلى الـبرد بـدفءِ لُطفِـه.

كان الفصـلُ شـتاءً، وكانـتِ الشّـمسُ قـد تسـلّلتْ مـن بـين القمـم البعيـدة جهـةَ الشّرق، تُقاومُ مدّ الـبرد الّـذي رافـقَ اللّيلـة الفائتـة، وظـلّ مُسـترًا في عِظامنـا، كان يبـدو أنّهـا تسـتعجلُ الوقـتَ لتبعـثَ بعـضَ الـدّفْءِ في أوصالِنـا المَقـرورة. وانزاحـتْ بعـضُ الغيـومِ عـن طريقهـا فوصلـتْ إلينـا أشـعّتُها دون أيّ عَقَبـاتٍ، ورُويـدًا رويـدًا عَمّنـا الـدّفءُ السّـماويّ فَنَشِـطتْ جوارحُنـا. ومَضَينـا.

صَعِدنْـا جِبـالاً، وهَبَطْنـا أوديـةً، وأرْجَحَنـا الحِـمارُ في تَهاديـه ونحـنُ نرتحلـه، ومـع التعـب الّـذي ظـلّ عُنـوان رحلتنـا الأوّل كانَ الله يُنادِينـا: مَـنْ عـرفَ قَـدْري عرفـتُ قـدْره. وكانـتْ عـينُ الله ترعانـا في كلّ حـين. ولاحـتْ لنـا مـن بعيـد الـدّورُ الّتـي تغفـو بـين يَـدَي (حَـبرون) بلـد الخَليـل إبراهيـم، كانـتِ الطّريـق الخرسـاء تضعُهـا عـن يسـارنا، فسـلّمْنا عـلى أرواحِ سـاكِنيها مـن الأنبيـاء، وتابعنـا نزولنـا جنوبًـا حتّـى شـارفْنا عـلى الوصـول إلى طَريـق القوافـل.

كانـتْ طريـقُ القوافـل لا تخلـو مـن السّـالكين الباحثـين عـن حيـاةٍ أخـرى في مكـانٍ آخـر. بعضُهـم قَـضى فيهـا لأنّـه تـاه، وبعضُهـم نجـا بأعجوبـة، وآخـرون دَفَنـوا في رمـال هـذه الطّريـقِ ذكرياتِهـم الحزينـة وعـادوا مُنكـسري

القلـوب، كانَ كُلُّ شـبرٍ فيهـا يحـوي حِكاية. كثيرٌ مـن الحكايـات صنعتْهـا أنفـاسُ العابريـن مـن هنـا، ثُـمّ غاصـتْ هـذه الأنفـاسُ في ذرّات الـتّراب ونُسِـيَتْ كأنّ مَـنْ مَـرَّ مِـنْ هُنـا لم يكـنْ روحًـا ولا بشرًا ولا نَسَـمةً قـذفَ بهـا قَـدَرُ الله القديـم إلى الوجـود. ومِـنَ الـتّراب إلى الـتّراب، منـه ابتـدأ الرّحلـة، وفيـه خَتَمَهـا!!!

في هـذه الطّريـق تذكّـرتْ أمّـي (يوسـف) وهـو يُبـاع عنـد البئـر بدراهـمَ معـدودة. ثُـمّ يُسـاق كعبـدٍ، ليُصبِـحَ مـن بعـدُ مَلِـكًا. مـن أيـنَ يصعـدُ الإنسـانُ للقِمّـة؟! مِـنَ القـاع. لا قِمّـةَ دونَ قـاع. لقـدْ أدركـتْ أمّـي ﷺ كذلـك - سُـنّةَ الله في الأنبيـاء: لا تمكيـنَ بغير ابتِـلاء؛ والذّهـبُ الخالِـص لا يلمـعُ فيأسِرُ النّاظِريـن إلاّ بعـد أن تُذيبـه النّـارُ في جوفهـا. عـلى طريـق القوافـل لانـتِ الأرضُ تحـت راحلتنـا، وتزوّدْنـا بالمـاء، وبعـضِ الطّعـام مِـن خَشـاش الأرض. هـا أنـذا أتعـرّف - مُبكّـرًا - عـلى نـوع الطّعـام الّـذي يليـق بي كَنَبِـيّ! ومضينـا.

لم يكـنِ اللّيـل عـدوًّا لنـا؛ كان صديقًـا!! وأمّـي تاريخهـا مع اللّيـل طويل، ويصعـبُ أن أُفسّره لكـم؛ في اللّيـل جاءهـا الوَحـي، وفيـه عرفـتِ الله، ومـن سِرّه صـارتْ سِرًّا، ومِـنْ سِـحره مـلأتْ قلبَهـا فـرأتْ بعيـنِ القلـب مـا لا يُـرى، وحيـنَ كان العـالَمُ البشريّ يغـطُّ في سباتٍ عميـقٍ غافِـلاً عـن الله، كانـت تنفـرد وحدهـا بـه، فتسـمعُ منـه ويسـمع منهـا. ولم يَكُـنِ الله ليُعطـي سِرّه لأيّ أحـدٍ، ومـا كان ليهـبَ جلالـه إلاّ للخُلّـص والصّفـوة، وكانـتْ أمّـي في مُقدّمتهـم. والعجيـب أنّهـا كانـتْ تبـدو امـرأةً عاديّـة لـكلّ مَـنْ خالطَهـا في البيـت المُقـدَّس، ولم يـروا ذلـك الـسّرّ الموهـوب فيهـا؛ لسـببٍ بسـيط: كان النّـاس ينظـرون ولا يُبـصِرون، ويسـمعون ولا يَعُـون؛ وكانـتْ غِشـاوةٌ أسـمكُ مـن القلـوب الغافِلـة تُغطّـي عـلى أعينهـم. ووحـدي عاينـتُ معهـا الـسّرّ أو بعضـه؛ وذلـك لأنّنـي سـمعتُه ورأيتُـه لطـول صُحبتـي لهـا.

مضتْ عشرةُ أيامٍ في القرّ والبرد. واللّيل والوَحدة. وطول الغاية، وقِلّة الصّديق. والجوع والعطش. كُنّا نتبلّغ بما نَجِد، ونشربُ من بعضِ الآبار المَبثوثة في دروب المُرتحلين. وقطعنا يهوذا كاملةً وصِرنا جنوبيَّها. وارتأتْ أمّي أن ترتاح ليلتَين من أجلِ أن يتقوّى جِسمها على المرحلة القادمة من الطّريق، وهي المرحلة الأخطر والأطول. وكانَ لها ما أرادتْ. وألقينا رِحالَنا على مشارف بئر السّبع. وبِتْنا في خيامِ بعضِ البَدو الرُّحّل.

استضافنا رجلٌ كريمٌ من أهل المنطقة، تركَ لنا خيمةً نأوي إليها، وطعامًا وشرابًا، ورحل مع شِياهه، وقال إنّه لن يعودَ قبل أسبوع منتجِعًا ليشبع القطيع الّذي يرعاه، وبالغَ في إكرامنا، وودّعنا كأنّه يعرفنا من زمنٍ طويل. ووجدنا فِراشًا نظيفًا، وطعامًا هَنِيئًا، وشرابًا مريئًا. ولم تتركْ أمّي رغم هذه الظّروف الصّعبة حَظّها من اللّيل وحديثَها مع الله. وعرفتُ وأنا أرقبُها من تحتِ غطِائي كيفَ أحبّها اللهُ وأحَبَّتْه. وأدركتُ أنّ هذه الدّرجةَ لا يَصِلُ إليها إلاّ مَنْ نزعَ من قلبه أيَّ تعلّقٍ بأيّ بشرٍ وملأ ذلك القلبَ أجمعه بحبّ خالقه. وسمعتُها تقول واللّيل مُصغٍ معنا: يا ربّ لا تبتلني بِحُبّ سِواك؛ أحبّ نوحٌ ابنه ▯ مرّةً ▯ أكثر منكَ فابتلتَه بإغراقه. وأحبَّ إبراهيمُ ابنه إسماعيلَ ▯ مرّةً ▯ أكثرَ منكَ فابتليتَه بذبحه؛ وأحبَّ يعقوب ابنَه يوسف ▯ مرّةً ▯ أكثرَ منكَ فابتليته بِفَقده. فلا تجعلْني أحبّ ابني أكثرَ منكَ فتبتليني فيه. ثُمّ إنّي وجدتُ للّيل حفيفًا، وسمعتُ هاتِفًا يقول: لقدْ أحببنا ابنكِ أكثرَ مِمّا تُحبّين. فسلامٌ عليه وعليكِ في الخالِدين.

نَهَضْنا بعدَ يومَين لكي نُتابعَ طريقنا. كان صباحًا مُختلِفًا. خفّفتِ الأرضُ من برودتها، وأشفَينا على الصّحراء المُمتدّة امتدادَ الأفق، كانتْ صحراء النّقب حينَها تمُدّ يديها مُرحّبةً بنا وهي تستقبلُ القادِمَين الغريبَين. ومضينا.

(١٨)

صبيّ يصنع المُعجِزات

صباح هذا اليوم العشرين، كُنّا قد صِرْنا في وسطِ الصّحراء، يا لَها مِنْ رحلةٍ!! تعبُ الأجسادِ عُنوانُها وراحةُ القلوبِ مضمونُها. ويا لَها من طريق!! ظاهرها الوَحشةُ والجَدبُ، وباطِنها الأنسُ والخُضرةُ باطِنها. ويا لَها مِنْ أمّ؛ لو كانتِ الجبال مكانها لخرّت، والسّماء لجأرتْ، لكنّها أمّي؛ أمّي الّتي كانتْ كُلّ عقبةٍ تزيدها حمدًا، وكُلّ تعبٍ يدفعها شُكرًا؛ إنّها تُربّي في أعماقي ذلك النّبيّ الّذي هو جَدِيرٌ بأنْ يُغيّر بوصلة العالَم، بالصّبر، والعزيمة، والكِفاح، والله.

كانتِ الصّحراء تَلفُّنا من كلّ الجهات، وكُنّا عُصفورَين صغيرَين يُحطّان على بحرها المُنبسطِ مدى البصر، يسيران كنُقطتَين في صفحة الكون تكادان لا تظهران إلاّ للعليّ الّذي لا يَخفَى عليه شيء. ولم نجد في نهاية اليومِ ملجئًا. كانتِ الأرضُ فِراشَنا، والسّماءُ غِطاءَنا. ونمنا بعد أنْ هجع الحمار على مَقرُبةٍ مِنّا أيضًا؛ فلقد ناله من التّعبِ مثل ما نالنا وزيادة. لم نأكل أنا وأمّي منذُ ثلاثةِ أيّام، لم يكنْ معنا غير قربةٍ صغيرةٍ نتناوبُ على شُربِ الماءِ منها بِمقدار، جعلتْ أمّي لنا الثّلاثة جرعةً في اليوم الواحد، تُؤخَذ في منتصف الظّهيرة حيثُ يكون العطشُ على أشدّه؛ تبدأ بي، ثُمّ الحمار، ثُمّ تنتهي بنفسِها. وكنتُ أُحسّ أنّها تَحتَجِنُ من جُرعتها حتّى تُوفّر لنا نحن الاثنين جزءًا من نصيبها في الماء!!

والصّحراء الّتي وهبَتْنا شيئًا من دِفئها في النّهار، عادتْ فسلبَتْه مِنّا مُضاعَفًا في اللّيل، وكان البردُ سِكّينًا يَحُزُّ العَظْمَ، ويَصُرّ الأسنان، ويُرعِشُ

الجوارح، وهربتُ من جديدٍ إلى حِضنِ أمّي، ووهبتْني في حِضنها ما أخذتْهُ الصّحراء؛ دِفئًا إلهيًّا خالِصًا، وتركتْ ظهرها للصّحراء العارية تأكُلُ منها عُمرَها الّذي تُضحّي به من أجلي. وشاء الله أن يقول لنا: إنّكما بَشَرِيَّيْن؛ يجري عليكما ما يجري على البشر؛ غيرَ أنّني أستخلصكما لنفسي، فما ابتليتُكما به في الفانية ادّخرتهُ لكما عندي في الباقِية، وستُدركون أنّني أجزلتُ لكما المثوبة، وأنّني اشتريتُ منكما ضَعْفَكما وعناءَكما وانتقاصَكُما بثمنٍ غالٍ هو عندي في الغيب. وقالتْ أمّي: رضينا، والغيبُ عند الله خيرٌ من الدّنيا وما فيها عندَ البشر!!

كانتِ الشّمسُ في النّهار ذُخرنا في اللّيل القادم، نأخذُ منها ما يُعيننا على قسوةِ البردِ في اللّيل، ونأخذُ من نورها ما يدلّنا على الطّريق في العتمة. ومضينا. كانَ صوتُ الرّيح حينَ تبدأ العزف موسيقى عُلويّة، ونشيدًا ملائكيًّا، لم تكنِ الخَلوةُ معه مُرعِبة، ولا الاستماع له وحده في سُكونِ اللّيلِ مُفزِعًا، رُبّما يكون لآخَرين كذلك؛ لكنّه كان لي ولأمّي طُمأنينة، كانَ فيه حديثُ الله، والله لا يخفَى عن شيءٍ ولا في شيء. وكُنّا نسمَعُ صوته في كلّ صوت، ونرى أثره في كلّ موجود!! ومضينا.

وصلْنا إلى (العريش) تبدّلتِ الحياةُ حولها، وتخلّتِ الصّحراء عن ثوبها الأصفر، ولبست الأخضرَ في بعضِ المواضع بدلاً منه. ووجدنا قُرىً ظاهرة، وأناسًا يعملون حولَ البحر. وعلى قنواتٍ مُتعرّجة من الماء وممتدّة قامتْ مزارعُ كثيرة، وكان لنا أكثرُ مِن أسبوع لم يدخُل أنا وأمّي إلى جوفنا شيءٌ مِنَ الطّعام. فعملتْ أمّي في إحدى هذه المزارع تُنظّفُ أطرفَها من الحشائش الضّارّة باقتِلاعها، وكانَ الاتّفاق بينها وبينَ صاحبِ العمل على أن تأخذ أجرتها في نهاية الأسبوع قِطعةً فضّيةً واحدة، وكُنّا نأكل ما يأكله الخدم الآخَرون العامِلون في الحَفْر أو الزّراعة أو جَنْيِ الثّمار.

واتّخذنـا للمبيـت غرفـةً صغـيرةً مـن القـشّ مُهمَلـة، ليسَ فيهـا سريـر، قائمـةً في طـرفِ المزرعـة، وفيهـا غِطـاءٌ مـن صـوفٍ بـدا أنّ العُـثَّ قـد أكلَ مـن أطرافـه لطـول العَهـدِ باسـتعماله، وكان الهـواء يصفُـر مسـتمتعًا بأدائـه ألحانَـه، وخاصّـةً في اللّيـل، وهـو يدخـل مـن بـينِ فَجَـواتِ القـشّ والقصـب الّتـي تُشـكّل جـدران هـذه الغرفـة؛ ومـع ذلـك فقـد بـدتْ لنـا جنّـةً بالنّسبة لليالينـا السّابقة الّتي قضيناهـا في الصّحـراء. وصـار هنـاك رُكـنٌ – وإنْ كان غـيرَ شـديدٍ – نـأوي إليـه.

واسـتقرَرْنا نِسـبيًّا في المزرعـة، وصـارتْ عـالَمَ أمّـي. وبـدا أنّنـا سـنمكثُ هنـا زمنًـا هـو في عِلـم الله، وارتـأتْ أمّـي ألاّ نُغـادِر هـذا المكان الّـذي وجـدتْ فيـه الأمـان إلاّ إذا ألجأَتْنـا الأقـدار لذلـك. كانـت المزرعـةُ عـلى الشّريـط السّـاحليّ للبحر؛ البحرِ الّذي هُوَ خليجٌ تُحيطُ به الصّحراء من ثلاث جهات مكشـوفة، وكُنّـا قـد نزلنـا في هـذه المزرعـة الواقعـةِ في الجهـة الشّـماليّة القصيّـة مـن هـذا البحـر. واسـتمرّتْ أمّـي في عهدهـا الّـذي لا ينقطـع مـع الله.

صـارتْ هـذه القِدّيسـة تصحـو في اللّيـل رغم عملهـا المُضني في النّهار، فتبـدأ سـاعاتها الأجمـل في مُناجاتهـا الّتـي لـو أردتُ أن أكتـبَ فيهـا الكلـمات الّتـي تنسـابُ مـن فمهـا العَـذبِ المُطَهّـر لاحتـاج ذلـك مِنّـي إلى كُتُـبٍ طويلـة. ولقـد ضـاعَ أكثـرُ مـا قالـتْ في عـالَمِ البشر، لكنّـه صعـد إلى السّـماء، فكلّـما نظـر الله إلى قلـبِ عبـدٍ مـن عِبـاده فَعَلِـمَ فيـه صِـدْقَ سريرتـه وَهَبـه بعـضَ مـا وهـبَ أمّـي، وأنـزلَ مـن السّـماء عـلى لِسـانه بعـضَ مـا كانـتْ أمّـي تقولـه؛ لأنّهـا – والله شـاهدٌ – كانـتْ تقـول كلامًـا لا يعـرف الصّدّيقـون والعارِفـون بـالله أن يقولـوا مِثلـه ولـو اجتمعـوا!! فـأيُّ سِرٍّ فيـكِ يـا أُمّـاه!!

مكثْنـا في المزرعـةِ مـا يقربُ مِنْ عـام، ثُـمّ إنّ الله نـادَى أمّـي في إحـدى مُناجاتهـا، وطلـبَ منهـا أن تمْـضي بي جنوبًـا، لتشـهدَ مواطـنَ آبائهـا وأجدادهـا،

وتسير في ذات الطّريق الّتي سارَ فيها مُوسَى من قبل. ولمْ تَكُنْ أُمّي لتتأخّر عن أمرِ الله، فسلّمتْ ما كان في عُهدتها من أدواتِ الزّراعة لصاحب المزرعة، واستأذنتْه في الرّحيل، فتركناه يأسَى من بعدنا على فِراقنا، فقد كان يشعر بأنّ المزرعة كانتْ شيئًا، ثُمّ صارتْ شيئًا آخر بعدَ مجيئنا. ولكنّ قَدَرَ الله ماضٍ، وما نحنُ إلاّ أدواته. ومَضينا.

كانَ الحِمارُ قد استعادَ صِحتّه تمامًا في العام الّذي قضيناه في تلك المزرعة، فقد أكل من حشائشها حتّى امتلأ، وشرب من ترعتها حتّى ارتوى. ولم نكُنْ نُتعبه إلاّ قليلاً في بعضِ أعمال أمّي، فقد كانت تحملُ فوقه الحطب أحيانًا من أجل أن نوقِدَ تحته لنستدفئ في اللّيالي الباردة. ركبناهُ وانطلقنا غربًا نمخُرُ عُبابَ الصّحراء؛ الصّحراء الّتي احتاجَ قومُ موسى إلى أربعين سنةً يتيهون فيها من أجل هلاكِ الجيل الفاسد، وخروج الجيل الجديد لعلّ فيه صلاحًا يُعينُ موسى على ما تبقّى في كأسِ العمر من ماء. وَمَضينا.

وكنتُ أنا أيضًا قد كبرتُ؛ فقد تجاوزتُ الثّالثة، صرتُ أمشي كما لو كنتُ فتىً، أركضُ، وأمرحُ في الحقول، وأستمتع بلَهوي، وألعب مع الآخرين مِمّن كانوا في سِنّي أو أكبر قليلاً، وأُعطيتُ لسانًا بليغًا، وحُجّةً بالغة، وآتاني الله الحِكمةَ والنُّبُوّة وأنا طفلٌ، وكنتُ من الأنبياء الّذين يعرفون نُبُوّتهم قبل أن يُعهدَ إليهم بالرّسالة. وَمضينا.

صارتْ فلسطين كُلّها خلفَنا، وصارتْ مصر بين أيدينا، وكانتِ البوصلةُ تُشير إليها. حتّى إذا مرّتْ ليالٍ هي في عِلم الله من طولها وشدّة ضَنكها، أشرفْنا على طور سَيناء، وأصابتْ أمّي رِعدة، وعرفتُ دون أن أحدّثها في الأمر؛ لقد وقفتْ في المكان الّذي وقفَ فيه موسى وناجَى ربّه، فكانَ من يومها كليمَ الله، وآتاه الله القبَسَ على الطّور؛ قَبَسَ الهداية، المشعل الخالد الّذي أضاءَ له ولأمّته الطّريق، لكنّهم آثروا الظّلمة على هذا القَبَس،

وفضّلوا العَمَى على الهُدى. هُنا في الأعالي علّم الله موسى التّوارة، وكتب الوصايا إلى يوم السّاعة على الألواح، وسيُؤتيني أنا بفضله مثلَ ما آتاه، لكنّني لم أَكُنْ جاهِزًا بعدُ، وكانَ كُلّ ما حدثَ معي ومع أمّي، وما سيحدُثُ في المُستقبل من عَنَتٍ ونَصَبٍ هو تدريبٌ على التّلقّي العظيم الّذي سأتلقّاه فيها بعدُ. ومضينا.

وبعدَ عشر ليالٍ ما بينَ مسيرٍ طويل ومَبيت، دخلنا مصر، وهتفَ بنا هاتفٌ من السّماء أعرفُ أنّه الهاتِفُ القديم ذاته، وسرتِ الكلماتُ على قلوبنا بردًا وسلامًا، وقال الله: «اُدخُلُوا مِصرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنين». وبدا النّيل يترقرق على أشعّة الشّمس في مساءٍ دافِئ، وبَثَّ فينا النّيلُ الحياةَ كما بَثّها في مصر، وكان لكلّ واحدٍ مِنّا نِيلُه الّذي لا ينضُب. ومضينا.

وصلْنا إلى (منف) عندَ الغُروب، كانتْ حقول النّخيل تمتدّ فيها امتداد البصر، بدت جذوع النّخل أشباحًا تقف وادعةً كأنّما تُريد أن تُظِلّنا تحتها كما فعلتْ من قبلُ في بيت لحم. ودلفْنا إلى حقلٍ من هذه الحُقُول، وطلبتْ أُمّي من صاحبه أن تعمل مع العامِلات هنا في جمع الثّمار. وقبل بنا صاحب الحقل لِما رأى من صِدقنا. ومكثْنا هناكَ عامًا آخَر.

كانتْ أمّي تَصحُو من شروق الشّمس، تجتمع مع العامِلات، ويتوزّعْنَ على أنحاءٍ مختلفة من الحقل الكبير، وكان الحقل مَهولاً يمتدّ مسافةً بعيدة، ويعمل فيه آلافٌ من الخَدَم في مِهَنٍ شَتّى، من الزّراعة، والحِراثة، والبِذار، والنّظافة، والتّحطيب، والسّقاية، وغيرها... وظلّ عيشُنا هانِئًا، إلى أنْ دخلتْ أمّي مرّة وهي مهمومة، فعرفتُ ذلك في وجهها، فسألتُها عن الأمر، فقالتْ: إنّ صاحبَ الحقل قد فقدَ ماله الّذي يدّخره في الخِزانة المُثبّتة أعلى غرفته. وإنّني أخافُ أن يتّهمَ بريئًا فيُؤخذ بجريرة المُذنب. فقلتُ لها: لا تخافي يا أمّي، وأنا سأدُلّكِ وأدلُّ صاحب الحقل على ماله بإذن

الله، فتعجّبتْ أُمّي من قولي، وكان ذلك أوّل ما أجرى الله من المُعجِزات على يدَيّ، وكنتُ في الخامسة.

فأتينا صاحبَ الحقل، فقلتُ له اجمع أهلَ بيتِك، واجمَع مَنْ يُجالِسكُ في هذه الغُرفة، فقال صاحب الحقل، إنّما هما أعمى ومُقعَد، فأمّا الأعمى فلا يرى، وأمّا المُقعَد فلا يمشي، فَأَمِنْتُ أن يدخلا غرفتي، وأنْ يراني المُقعد أضعُ في الخِزانة مالي. فقلتُ له: إنّما هُما مَنْ سرَقاك. فشَكّ صاحبُ الحقلِ فيما أقول، ورآني طِفلاً فأنكر ذلك مِنّي، فقلتُ لأهلِ الدّار ضَعُوا المُقعدَ على كتفَي الأعمى، ففعلوا، فقلتُ للأعمى: قُم ليدلّك المُقعَد على المال فتُوصِله إليه. فقال الأعمى: أنا أضعفُ من أنْ أحمله وأمشي به. فقلتُ له: وكيفَ فعلتَ ذلك أمسِ؟! فأُسقِطَ في يده، واعترفَ بفِعلته، وردّا المال لصاحبِ الحقل، ثُمّ إنّ صاحب الحقل قال لأمّي: خُذي نِصْفه فلولاكِ لما وجدتُهُ أبدًا، فقالتْ له: ما جِئنا من أجلِ ذلك، فأبتْ. فقال لها: فليأخذه هذا الصّبيّ، فقالتْ: هو أعظم مِنّي شأنًا، فإذا أنا لم أقبلْهُ فكيفَ يقبله هو!! فتعجّبَ مِنّا أيَّ تَعَجُّب.

ثُمّ إنّ أمّي في الصّباح نوتْ على الرّحيل إلى مكانٍ آخر. وعبثًا حاوَل صاحبُ الحقل استِبْقاءَها. وكنتُ أعرفُ سببَ رحيلها. لقد بدأ الحديثُ عن صبيّ يصنع المُعجِزات ينتشرُ في الحقل وما جاوره، فخافتْ أن يشيع ذلك بين النّاسِ فيتكاثَرون علينا، فرحلتْ بي خوفًا عليّ، واتّقاءَ طلبٍ لم يحِنْ بعدُ وقتُ الاستِجابة له. ومضَينا.

(١٩)

كيفَ ينال العابِدُ درجة النُّبُوّة؟!

بـدأ زكريّـا يجد مـن (قَيافـا) عَنَتًـا شـديدًا، وكان يُلجِئـهُ إلى الخُصومـة، ويدعـو أتباعـه مِمّـن أدمنـوا مثلـه حُـبَّ اللّجـاج أن يسـخروا منـه كلّـما رأوه، وأن يضحكـوا مـن هيئتـه ومشـيته. ووافـقَ أنْ فقـدَ زكريّـا بالموتِ كثيرًا مِـن المُخلصين الّذيـن كان يركـنُ إليهـم؛ فـما عُمِّـروا مثلـما عُمِّـرَ هـو، فأصبـحَ يتعـرّض للسّـخرية كلّـما مَرّ مـن النَّـدِيِّ الّـذي يرأسـه (قَيافـا).

ونشـأ (يحيـى) في ظـلّ أبويـه في البيـتِ المُقـدَّس، يـرى أبـاه يُخاطِـبُ الله، فيجـدُ في مُخاطبتـه روحَـه، وكـبر الطّفـل في سـنواته الأولى وهـو بـين أكنـاف المسـجد، رأى عبـادةَ أبيـه، وصلاتـه، وصِيامـه، وقِيامـه، وصـبرَهُ في اللّيـالي المُدلهـمّات، والبـاردات القارِسـات عـلى الوقـوف في المحـراب بـين يـدَي ربّـه، فانـسربَ إليـه هـذا الحُـبّ الإلهـيّ المُقـدّس.

فلـمّا صـارَ ليحيـى مـن العمـر خمـسُ سـنين، خـافَ عليـه مكـرَ (قَيافـا) وجماعتـه. ورُئـيَ في وجـه الصّبـيّ، وفي نَظَراتـه، وفي حَرَكاتـه إرثُ النّبـوّة، فعلـمَ زكريّـا أنّ شـأنَ ابنـه سـيكونُ عظيـمًا، وكان أُخـبِرَ بعـضَ ذلـك مـن الله في أوّل البُـشرَى، وأدركَ زكريّـا أنّ بقـاءَ ابنـه في المعبـدِ عـلى نظـر هـؤلاء الكَهَنَةِ الفاسِـدين سيُؤذيه؛ فالبَيضـةُ الفاسِـدة لا يقتـصرُ ضررُهـا عـلى صاحِبهـا؛ فارتـأى أن يرحـل بـه مـن هنـا، ولكـنْ إلى أيـن، والشّـيخُ كبيرٌ ولا يسـتطيع أن يغـادر البيـتَ المُقـدَّسَ وهـو في هـذا العمـر، وخاصّـة أنّ زوجتـه الّتـي كان مِـنَ المُمكـنِ أنْ تُعينـه بعـضَ الشّـيء كانـتْ قـد فارقـتِ الحيـاةَ منـذُ زمـنٍ. وأصبـح الولـدُ وأبـوه يتيمَـين. الولـد صغـيرٌ لا ظهـرَ يحميـه، والأب عجـوزٌ لا أصدقـاء يُسـندونه!!

وبعدَ أنْ قلّب زكريّا الأمر على وجوهه، نصحه أحدُ العابِدين في المسجد أنْ يدفعَ بابنه إلى إحدى المدارس السّرّيّة الّتي تُعلّم شريعة مُوسَى بعيدًا عن انحرافات مَنْ غَيّروا في التّوارة وبَدّلوا، فارتاح للأمر. ومَضى به إلى (قُمران) ناحيةَ البحر الميّت.

كانتْ مدرسةُ الحِكمة لا تقبلُ أيَّ أحدٍ، ولا يعرفُ عن وجودها الكثيرون، لكنّ سيرةَ الأب شفعتْ للابن فَقُبِل. وخضعَ يحيَى من يومها لتعليمٍ مُنضبِطٍ شديد. ورأى فيه المعلّمُ الأوّلُ نجابةً بحثَ عنها في تلميذٍ قبله على مدى أربعينَ عامًا ولكنّه لم يحظَ به؛ فكانَ قُدومُ يحيى عليه استجابةً لرغبةٍ عُمرها أربعة عقود لم تتحقّق إلاّ في هذا الصّغير المملوء حِكمةً وعِلمًا وفَهْمًا.

دخل يحيى في طريقِ التّعليم تجاربَ لا تُتاحُ للكثيرين، ولم يكنْ ذلك إلاّ تحقيقًا لنبوءة الله فيه لأبيه: «وآتيناهُ الحُكمَ صَبِيًّا». كانتْ مدرسةُ الحِكمة مدرسةً منحوتةً في الصّخر، تقع تحت الأرضِ قربَ البحر الميّت، وكانَ يُدخَلُ إليها بمغارةٍ بابُها مَخفيٌّ ببعضِ جذوع الأشجار المُمَوَّهة، كان البابُ يُفضِي إلى سِردابٍ، والسّرداب يُفضي إلى درجٍ هابِطٍ إلى أرضٍ فسيحة مُقَسّمةٍ إلى غُرفٍ، غُرفٍ يجلسُ فيها التّلاميذُ على هيئةٍ دائريّة على الأرض، وأمامهم يجلسُ المُعلّم. وكانت الغُرف تَحظَى بتهويةٍ تصعدُ عبر نوافذ خاصّة مَقصوصةٍ في الصّخر على هيئة دوائر تلامسُ سطح الأرض الصّخرية القابعة خلف باب المغارة المَخفيّ!!

وفي المدرسة الّتي تتكوّن من عشر غُرَف تعليميّة، كُلّ غرفةٍ يُعلَّمُ فيها فَنٌّ من فنون العِلم، كان هنالك أيضًا غرفٌ للمبيت، بعضُها خُصّص للتلاميذ، وأخرى للمُعلّمين. إضافةً إلى غُرفِ الحمّامات، والمطبخ، وغرفةٍ واسعةٍ للمواعظ والتّعاليم. وكان كُلُّ شيءٍ من التّدريس والقراءة والحفظ والتّسميع والنّوم والأكل والشّرب والنّوم يتمّ هناك في هذه المدرسة السّرّية.

وكان للطّلبة يومُ راحةٍ واحدٌ في الأسبوع؛ هو يوم السّبت، يخرجون فيه من مدرستهم السّرّيّة، فيطوفون في الجبال القريبة، بعيدًا عن أعينِ النّاس وقريبًا من عيون الشّمس والله، ولربّما باتوا ليلتهم تلك فوق الأشجار وعادوا إلى مخبئهم صبيحةَ الأحد. على أنّ وقتَ الرّاحة هذا لم يكنْ وقتَ راحةٍ بالمعنى الكُلّي، فقد كان الغرضُ منه زيادةَ الطّاقة الرّوحيّة من خلال طقس التّأمّل بينَ أحضانِ الطّبيعة، كان هذا الطّقس التّأمّلي يشحنهم بعاطفة قويّة يستعينون بها للتغلّب على الصّرامةِ الّتي يُواجِهونها بقيّةَ أيّام الأسبوع.

أدخلَتِ المدرسةُ يحيى في اختباراتٍ صعبة، كانت التّعاليم تقضي بأنْ تتخلّص من نفسِكَ خارج هذه المغارة، فإذا دخلتَ فأنتَ لستَ لك. قال المُعلّم الأوّل في الدّرس الأوّل لجميع الطّلابّ الّذين جُمِعوا في القاعةِ الكبيرة:

- أبغِضِ الدّرهم كما تُبغِض الأفعى، واحتقر الثّروة كما تحتقر الجَدْيَ الميّت. وعادِ أصحابَ الاكتِناز لأنّهم وَقَعوا في الشِّرْك.
- والقرابين الّتي تُقدّم للرّبّ. كيفَ يطلبها الله منّا وهي تحتاج إلى امتِلاك، وأنتَ تطلبُ مِنّا ألاّ نملِكَ شيئًا. (قال أحدُ التّلاميذ الّذين أُذِنَ لهم بالسّؤال).

همّ المعلّم الأوّل أن يجيب، لكنّ نظرةً منه حانتْ إلى الصّبيّ الجالس عن يمين المجموعة ذي السّنوات السّتّ، عرفه؛ إنّه يحيى، قرأ في عينَيهِ جوابًا أشفى من جوابه، ابتسم يحيى، وأشار له المُعلّم الأوّل أن يُجيب:

- القرابين ليستْ أغنامًا تُذبَح؛ قدّمْ نفسكَ قُربانًا لله. فالأعمال الصّالحة خيرٌ من الشّياه الثّاغِية.

- وكيفَ ينال العابدُ درجة النُّبوّة؟! (قال المعلّم الأوّل ليحيى الطّفل).
- إذا تخلّصَ مِمّا له في الدُّنيا فلم يملك إلاّ قلبه. وجعل حَظّه فيما عند ربّه.
- فما رأسُ البِرّ؟!
- طوبَى، ثُمّ طُوبَى للمرء الّذي يبرّ والدَيه ويُكافِئهما؛ فليسَ له شبيهٌ في الدُّنيا.
- فما رأسُ الصّدق؟!
- رأسُ الصّدقِ ألاّ تحرفَ الكلام.
- فما رأسُ الإيمان؟!
- رأسُ الإيمانِ أنْ تُؤمِنَ بأنّ الله مُقيمٌ في الفضائلِ كُلّها.
- فما رأسُ الاستِقامة؟!
- رأسُ الاستِقامة أَنْ تُدِينَ نفسكَ في اللّحظةِ الّتي يُضخّمُ لك فيها الشّيطانُ أعمالكَ فتظنّ أنّكَ خيرُ مَنْ على الأرض، وأنتَ في الحقيقةِ أبأسُهم لو عَلِمت!!

فما رأسُ المعرفة؟!

رأسُ المعرفةِ ألا تتسلّطَ عليكَ أهواؤُك. فتردّكَ جاهِلاً.
- فما رأسُ العِلم؟!
- رأسُ العِلم ألاّ تُلقِي بنفسِكَ في التّهْلُكَة. فتعرفَ موطِئَ قَدَمِكَ في كُلّ خُطوة؛ قدمِكَ الّتي عندَ الرّب؛ ليسَ الّتي لك في العاجِلة.

كان المُعلّمُ الأوّل يسمعُ مُترَنِّمًا، ويهتزّ طربًا لما يقوله يحيى، فكّر حينَ أجابَ يحيى عن الأسئلة هل كانَ قد سَمِعها منه فيما مَضى، أمْ أنّه دخل إلى عقله وسَرَقها من هناك؛ سرقَ خُلاصة تجربةِ أربعين عامًا من الانكِباب على

كُتُبِ الحِكمة والعلم. هل يُمكن لأحدٍ أن يسرقَ ما في عقلِك؟! هل يُمكن أنْ يدخل إليه ويعيشه، وينطقَ بما فيه!!!

صارَ يَحيَى أثيرًا في مدرسةِ الحِكمة، وللعلم الّذي وعاه حتّى قبل أن يأتي، خَصّه المُعلِّمُ الأوّل بالصُّحبة، فكانَ يرى فيه خليفتَه، وكان يحيى يرى في رسالة الله غايته. فلم يَكُنْ ليمكُثَ في هذه المدرسةِ السّرّيّة إلاّ ما شاء الله له أن يُمكث. إنّ معلّمه الأوّل لم يكن ذلك الّذي لا يرفع رأسه عن الألواح يقرأ ما فيها، بل كان اللهُ هو مُعلِّمَه الأوّل. وعلى هذا صار حكيمًا وهو ابنُ السّادسة، ولم يكنْ ذلك لبشريّ، ولا حتّى لي أنا على ما كانَ بيننا من تشابُه في أمورٍ كثيرة!!

(٢٠)

الماضي لا يَنساكَ وإنْ حاولتَ نِسْيانَه

هَـرِمَ المَلِـك ولم تهـرم سَـطوتُه، وشـاختْ جوارحـه لم يَشِـخْ جَبَروتُـه، وضعُـفَ جسـدُه ولم يضعُـفْ بَطشُـه. لكـنّ المـوتَ لا يسـتثني أحـدًا، ولـو كان يُفـدَى بـأرواحِ الآخريـن، لـكان مثـل هـذا الجَبّار مُستعِدًّا أن يُفنِـيَ كُلَّ مَـنْ في مملكتـه لقـاء يـومٍ آخـر يُمَـدُّ لـه في عُمُـره. ولمْ يكـنْ يسـتطيع لا أنّـه لا يُريـد.

أرادَ أن يدفـنَ ماضِيـه الفظيـع مـع (مريمنـى) والأطفـال والضّحايـا الكثيريـن، فـتركَ قـصره في أورشـليم، وطلـبَ مـن حُرّاسـه أنْ يذهبـوا بـه إلى قَـصره في أريحـا، فغانِيـاتُ أريحا يرقُصْنَ أفضـل مـن غانِيـات أورشـليم، والخَمـر في أريحـا أكثـرَ تعتيقًـا، والجـوّ في الشّـتاء أقـلّ قسـاوةً.

لكـنّ المـاضي لا يَنسـاكَ وإنْ حاولـتَ نِسْـيانَه، فبـدأتِ الضّحايـا تطلُـع لـه في النّـوم، وتـبرز لـه الـكأس كوابيـسَ مُفزِعة، وصـار الهـروبُ منها مُستحِيلاً، فداهمـه الجُنـون، وبـدأتِ الخيـالات والأوهـام تمـلأ عقلـه فخَلَّـطَ ، وامّحـى عنـده الخيـطُ الفاصـل بـينَ الحقيقـة والوَهـم، فصـارَ يهـذي.

جَمَـع أولاده الّذيـن زادوا عـن الأربعـين. رأى أنْ يتخلّـص مـن بعضهـم بالذّبـح ففعـل. أبقَـى عـلى ثلاثـةٍ حولـه هُـمْ: هـيرودس أنتيبـاس، وهـيرودس أرخيـلاوس، وهـيرودس فيلُبُّـس. قـال لهـم في حَمْاةِ جُنونِـه: «أترونَ هـذا القصر.. كلّ هـذه المظاهـر الملكيّـة... لقـد أفنيـتُ في سـبيلها عُمـري، وقضيـتُ مـن أجـل التّـاج نضـارةَ شـبابي، وحاربـتُ مـن أجـل أنْ أرفـعَ النّسر الرّومـانيّ عـلى أعمـدة معبـد اليهـود ليظلّـوا أذِلاّء، فـلا ترفعـوا لهـم رايـةً واسـحقوهم مـا استطعتم،

فإذا أحدثتُم فيهم مَقتلةً عظيمةً فَأَرْضُوهم بتزيين معابدهم بالذّهب، فإنْ رَضُوا وإلا فاخْفِقوهم بالسّيفِ من جديد». ثُمّ أردف: «أنا أعلمُ أنّكم ستتقاتَلون من بعدي، ولا يهُمّني تقاتُلُكم فيما بينكم أكثر مِمّا يهُمّني أن تُحافِظوا على اسمي؛ فاسمي وُلِدَ عظيمًا، وعاشَ عظيمًا، ولا يَمُوت. تعالَوا اقتربوا مِنّي أكثر، سأقسِمُ المملكةَ بينكم على أنْ تضعوا اسمي قبل اسمكم في المراسم الملكيّة، وفي الأعياد، وفي التّأريخ وفي المُخاطَبات والمُراسَلات؛ فماذا تَقولون؟!». قالوا: نَرضَى، وكانوا يقولون ذلك لِيُسْرِعوا في التّخلُّصِ منه.

وكانَ كُلُّ مَنْ في مملكته يكرهه؛ أوّلُهم اليهود الّذين أعملَ فيهم سيفَه، وآخرُهم أبناؤه الّذين فقدوا إمّا أمّهاتهم أو عمّاتهم أو أحدَ أقربائهم بسببه.

وانتشرَ المرضُ في جسد هيرودس، ولم يكُنْ أحدٌ ليعرف ما نه هذا المرض، ولا سببه، ولا عِلاجه. كانَ جِسمُهُ يَفُورُ بالقَمل، كُلّما تحرّك أفرزَ جيوشًا من القملِ تمشي على جنبَيه، وتخطو على خَدّيه، وتدخل في فمه وعينَيه، فإذا صارتْ هُناكَ صاحَ صيحةً عظيمةً أفزعتْ كُلَ مَنْ في القصر، ثُمّ يهْرَعُ الخدم والأطبّاء، فيُنظّفونه، ويُعقّمونه، ويملأ الأطبّاء جِسْمه بالكُحُول لتقتل هذه الحشرات، فيختفي القَمْلُ زمنًا قصيرًا ثُمّ يعود، وتعود معه الحكّة من آثاره ومن آثار الكُحول المُحرِق، ثُمّ يُعاودُ الصّياح من جديد، فيغسلونه ويُحمّمونه فلا ينقطع عنه القَمل إلاّ قليلاً.

وشاعَ في أورشليم ويهوذا والسّامرة أنّ (هيرودس) الكبير قد مات، فعمّتِ الفرحة قلوبَ الشّعبِ اليهوديّ، ورقصوا في المعبد والسّاحاتِ والشّوارع طربًا وفرَحا. ثُمّ تجرّأ بعضُ الكهنةِ فقاموا بإنزال النّسر الرومانيّ المُذَهّبِ عن أقواس المعبدِ وأعمدته ليبقَى بيتُ الرّبّ للرّبّ لا للوثنيّين

مـن أحفـادِ المُهرطِقـين كـما كانـوا يقولـون. وبلـغَ الخـبرُ (هـيرودس) وهـو في النَّزْعِ الأخير، فبعـثَ لسُكّان أورشليم ولكهنـةِ المعبد بجيشٍ جرّار، فخـرجَ بعضُ الثـوّار في بعضِ المدنِ يتصَدَّون للجيش الرّومانيّ، وظنّوا أنّ شيخوخة (هـيرودس) تنسـحب عـلى الجيـش فيكـون في شـيخوخةٍ مثلـه، لكـنّ الجيشَ سَـحَقَهم، وأبـادَ الكثـيرَ منهـم، ومـات في تلـك المواجهـات المِئـات، فرضـخ اليهـودُ مـن جديـد، وأعيـدَ رفـع تماثيـل النسر الرّومـانيّ عـلى المعابـد.

حتّـى إذا جـاءَ المـوتُ فجلـسَ إلى جانـب (هـيرودس) ينتظـر لحظـةَ الفتـكِ بـه، نـادَى أبنـاءه الّذيـن نَجُـوا مـن مقصلتـه، وقـال لهـم: «إذا مِـتّ فاذبحـوا ثلاثمئةٍ في أنحـاء المملكـة، مئةً في كلّ ناحيةٍ مـن العُظَـماء والأعيـانِ في قومهـم، حتّـى يكـونَ يـومَ مـوتي مناحـةً عظيمـةً، يبكـي فيهـا كُلُّ أهـلِ فلسـطين». ثُـمّ سـكَت فسـكتوا. ثُـمّ نطـق فَعـدّدَ القِسـمة بلسـانه قائـلاً: أنـتَ يـا (أَنْتِيبـاس) لـكَ مـن مملكـةِ أبيـكَ الجليـل وشرقَ الأردنّ، أمـيرًا عـلى الرُّبـع؛ رُبـع المملكـة. وأنـتَ يـا (أَرْخِيلاوس) لـكَ اليهوديّـة والسّـامرة. وأنـتَ يـا (فيلُبُّـس) لـكَ جبـل الشّـيخ والجـولان وحـوران وشـماليّ الأردنّ. وقـد رأيتُـم أنّنـي سأموت، فسـيروا بسـيرتي يَخلُـد اسـمُكم. إنّـما تقـوم الممالـك عـلى الـدّم، فمَـنْ ظَـنّ أنّ الرّحمـة تبنـي الـدُّوَل فهـو واهِـمٌ. وَمَـنْ أرادَ أن يمـشي بالعـدل في رَعِيّتـه فـلا أعـدلَ مـن السّـيف. وإنّـه لـو كانـتْ لي أمنيـةٌ يُمكـن أن تتحقّـق، فهـي أن أعـود بعـد المـوت ولـو يومًـا واحِـدًا لأرى مـا فعلتُـم، فمَـنْ لم يَسِرْ بسـيرتي بطشـتُ بـه، وأخـذتُ منـه مـا وهبتُـهُ وأعطيتُـه لمـن مَشـى في طريقـي. إنّنـي أعَرّفُكـم بالمُلـك. ولـو كان في عـالَمِ المَوتَـى مملكـةٌ لكنـتُ أنـا عـلى عَرشِـها!!».

ثُـمّ أُغـشِيَ عليـه، فخـرجَ القمـل مـن فمـه، وظـنّ أبنـاؤه وحرسـه أنّـه قـد مـات. فهمّـوا بحملـه مُتقزّزيـن مـن منظـره، ثُـمّ إنّـه لمّـا صـاروا قريبـين منـه، فتـحَ عينَيـه، فَجَفِلـوا، فخاطـبَ قائـدَ الحَـرَس:

- هل أنتَ والدُ (أنتيباس)؟!

- ....!!! (ظَلَّ قائدُ الحرس ساكِتًا مبهوتًا).

- كُـنْ شُـجاعًا لمـرّة واحـدةٍ وقُـلِ الحقيقـة أيُّهـا الجَبـان، هـل (أَنْتِيبـاس) ابـنُ حـرامٍ.

- هو ابنُكَ يا سيّدي.

- كَذّاب، إنّه نتاجُ نومِكَ مع أمّه في ليلةٍ حمراء.

- ماذا تقول يا سيّدي!؟

- إنْ كُنـتَ صادِقًـا في أنّـكَ لم تنـمْ مـع زوجتـي في تلـك اللّيلـة فاقْتُلْـه.

- أأقتُل (أنتيباس)؟!!

- هذا برهان صِدقِكَ إنْ لم يكن ابنَ حرام.

- وهـل أنـتَ ابـنُ حـلالٍ يـا (هـيرودس)؛ أيّهـا العَجـوزُ العَفِـن!! (ردّ أنتيبـاس بسـخرية).

- الآنَ وجبَ قتلُك. أيّها القائد أغمِدْ في قلبِه حَرْبَتَكَ.

- دَعـه يَهـذي يـا (أَنْتِيبـاس)، يبـدو أنَّ الهذيـان عنـده وصـلَ حـدًّا لا يُمكـن تصـوّره. (قـال قائـدُ الحـرس)

انكفـأ الملـك العَجـوز، قَلـبَ عـلى جنبِـه، حـاولَ النّهـوض ليأخـذ سيفًا مُعلّقًـا فـوق رأسـه فيقتُـل بـه ابنَـه، لكنّـه خـار، صرخ: أنـتَ ابـنُ حـرامٍ يـا (أنتيبـاس)؛ أنـا أعـي مـا أقـول. مـدّ يـده المُرتجفـة إلى السّـيف، لكنّهـا سقطتْ في مُنتَصـف الطّريـق. مـاتَ الملـك!!

في الصّباح دُفِنَ في أريحا دون أيّةِ مراسم. حـضر الملوكُ الثلاثـةَ لحظةَ إيداعـه الثّرى. وبعـضُ الخدم ليرمـوه في الحفـرة السّـحيقة الّتـي أُعِـدّت مُسـبقًا حتّـى لا يصعـدَ مـن جوفهـا القمـل فيـأكل القَـصْرَ ومَـنْ فيـه.

لم يكـد الثّلاثـةُ يجلسـون عـلى كـراسيّ الحُكـم، حتّـى تنافسـوا فيـما بينهم، أمّـا (أرخيـلاوس) فقـد أرادَ أن يَفـوقَ أبـاهُ فنـادَى في قائـدِ حرسِـه أن يقتـل ثلاثـة آلافِ رجـلٍ مـن ذوي النّفـوذ؛ قتَـلَ العُلـماء والـوزراء والقـادةَ والأمـراء. وبـرّر فعلتـه قائـلاً لقائـد حرسـه:

- الشّجرة المُثمِرة إذا نبتَ الدّودُ في جذعها، فما الحلّ لها؟!
- أنْ تقتلَ الدّود. (ردّ قائدُ حرسه)
- لا.. بـل أنْ تقطـعَ الشّـجرة، لأنّ الـدّود قـد يعـودُ إذا بقيـتِ الشّـجرة، ولكـنْ إذا قطعتهـا ذهبـتْ هـي ودودُهـا.
- لكنّ هؤلاء الّذين أمرتَ بقتلهم هم رِجالٌ صالِحون.
- صدقـتَ... وقـد أخبرتُـك؛ إنّهـم شـجرةٌ مُثمِـرة أصابهـا بعـضُ الـدّود، فدواؤهـم أن تَجتثّهـم مـن جذورهـم اجتِثاثًـا أيّهـا القائـد.

ونَفَـذَ أمـرُهُ فذُبِـحَ عـلى أيـدي جُنـودِه ثلاثـةُ آلافِ مـن الأخيـار. ووصـل الخبر إلى الإمبراطـور (أغسطس) فـرأى أنّـه مختـلٌّ عقليًـا، فأمرَ بخَلْعهِ ونفيـه إلى بـلاد الغـال، وكان ذلـك في السّـنةِ السّادسـة لميـلادي.

أمّـا (فيلُبّـس) فنـأى بنفسـه وبمملكتـه بعيـدًا عـن أَخَوَيـه، ولم يطـرفْ لـه جفـنٌ عندمـا سَـمِعَ بـما حدثَ لأخيـه (أرخيـلاوس). كانَ مولَعًـا بالبنـاء، بنـى قيصريّـة الّتـي استقبلتْ بعـضَ تلاميـذي ذاتَ تاريـخ.

(٢١)

مَمْلكتُه ليستْ على الأرض؛ مَمْلكتُه في السّماء

رحلتْ بي أمّي من جديد إلى بعضِ قُرى (أسيوط). وعِشْنا هناك زمنًا مقدورًا، عملتْ أمّي في الغَزْل. اكْترَينا غرفةً في بيتِ أحدِ المُلاّك. وكُنّا نأكل ونشربُ مِمّا تكسبه أمّي من الغَزل. وبدأتْ أسرار العالَم وخفاياه تظهر لي. قالتْ لي أمّي: «يا بُنَيّ؛ أتعرفُ مَنْ أنت؟!». فأجبتُها: «أعرفُ وأنا في بطنِك؛ الآنَ تسأليني؟!». «أقصدُ هل تعرفُ ما سيُصيبُكَ بسبب مَنْ أنت؟!». «بلى. إنّ ما كُتِب بيد الله لن تغيّره أيدي البشر». «فكيفَ الصّبرُ على ما سيكون». «برؤية ما عند الله بعينِ الحقيقة فعندها يَهُون كُلّ عذاب». فاطمأنَ قلبُها كصِدّيقة، وارتعشَ كأمّ، وما بينَ الاطمِئنان والارتِعاش عاشتْ أمّي كُلَّ حياتِها!!

ثُمّ إنّها كانتْ ذلك الشّهرَ قد صامَتْهُ كُلَّه، فلمّا كانَ الفِطر، دعتْ لي. فلمّا صار اللّيل قامتْ بين يدي الخالِق، فجاءَها صوتُ الوحي. وسمعتُهُ أنا معها: «لقد ماتَ مَنْ كان يريد قتلَ الصّبيّ فعودي به إلى النّاصرة، فإنّ مخلبَ الذِّئبِ قد قُصّ».

وتجهّزْنا للعودة، وشعرتُ أنّها البدايةُ بالنّسبة لي، فلم تكن العودة إلاّ إيذانًا من الله لي ببداية الدّعوة.

كانتْ أمّي يومَ العودة تمتلئُ بالغِبطة، لقدْ أدّتِ المهمّةَ الأولى بنجاح بعد صَبْرٍ ولأي، وإنّ طريقَ العودةَ إلى الوطن أجملُ بكثيرٍ من طريقِ الاغترابِ عنه وإنْ كانتا الطّريقَ نفسها، ذلك لأنّكَ في طريق الاغتراب

يُنتزَع مِنكَ قلبُك؛ أمّا في طريق العودة فيعودُ إليكَ ذلك القلبُ المُنتزَع، فتعودُ إليكَ الحياةُ كُلُّها.

صعدْنا شمالاً بمحاذاة النّيل بصُحبةِ الحمار الذي كان وفِيًّا لنا طوالَ هذه الرّحلة، حتّى صارتْ (أشمونين) إلى الشّرق مِنّا، فاتّجهنا نحوها، وتطلّب مِنّا ذلك نهارًا بأكمله، فاسترحْنا في تلك البلدة، ونِمْنا فيها ليلةً تحتَ ظلّ نخلةٍ مزروعةٍ على جانب الطّريق. لم يَكُنْ في تلكَ البلدةِ أحدٌ ليعرفنا، ولا ليعرفَ حقيقتَنا، واكتفينا بمعرفة الله لنا، وكانتْ تلكَ المعرفة خيمةً تُظِلّنا من الرّيح، وتحنو علينا من هُوجِ العواصف.

ثُمّ أَخَذْنا طريق البحر على شاطِئِه الشّرقيّ، واتّجهنا جنوبًا، كانَ بحر سُوف رفيقًا جميلاً، مشينا بمحاذاته ثلاثةَ أيّام كامِلة، بَدَتِ الرّحلةُ بِصُحبته لطيفة مُمتِعة، كُلّما هَمَزَنا فيها التّعب أراحَنا نسيمُ البحر، وصوتُه العذب، وطيورُه المُحلِّقة. في اليوم الأوّل بِتْنا في (سدر)، وفي اليوم الثّاني بِتْنا في (إيليم)، وقضينا اليومَ الثّالثَ في مُلتَقَى البحرَين قريبًا من (حوريب) الّتي شهدتْ آثارَ موسَى، وكانَ أهلُ المنطقةِ لُطَفَاء معنا، عرفَ شيخُهم أنّنا عابِرو سبيل، فبعثَ امرأتَه تعتني بأمّي وتُجالِسُها، وشوى لنا جَدْيًا أكلناهُ عِشاءً على شاطِئ البحر، وكانتِ النّار المُتراقِصةُ تحته تُضيءُ وجوهَنا، وتحملنا على الابتِسام. ليلتَها شَبِعْنا وارتوينا ونِمنا في بيتِ الشّيخ دافِئين. وعندَ الشّروق انطلقْنا وأمّي تلهجُ بِشُكرِ سيّدة الدّار.

أوقَفَتْنا السّيّدةُ لتهمِسَ في أُذن أمّي: ابنُكِ هذا سيكونُ مَلِكًا. وستمتدّ مملكتُه من مصر حتّى نينوى. رَدّتْ أمّي عليها: مَملكتُه ليستْ على الأرض؛ مَملكتُه في السّماء. تراجعتِ السّيّدة إلى الوراء ونظرتْ إلينا باستغراب، ثمّ رفعتْ حاجِبَيها، وهَزّتْ أكتافَها، وقالتْ بصوتٍ خفيض: لا

بُدّ أنْ يكون هبطَ من السّماء حتّى يعودَ إليها. خفضَتْ أمّي رأسَها، وشدَّتْ على حِمارها، وتركنا خلفنا السّيّدة تغرق في بحر الدّهشة والحُبّ.

صعدنا شمالاً وعلى يميننا خليجُ أَيْلَة، كانت الأرضُ صحراء، ولكنّ رمالها قاسِية مَتينة لا تغوص فيها الأقدام، فلم يبذل الحمار جهدًا كبيرًا وهو ينقلُ حوافره عبرها، وساعَدَنا ذلك على قَطْعِ مسافةٍ أكبرَ في النّهار، حتّى وصلْنا إلى بلدة (حظائر) وكانتْ قريبةً جدًّا من البحر، أرحْنا فوقَ صخرةٍ ضَخمة لم تأخذْ منها عادِياتُ الزّمان إلاّ قليلاً. قالتْ لي أُمّي، إنّها الصّخرةُ الّتي نَسِيَ عندها موسَى طعامه هو وغُلامه يوشع بن نون، ولم يكنْ يا بُنيّ نسيانُ الطّعام إلاّ نِسْيانًا لفضل الله الّذي كان لا ينقطع من بيوته عن بني إسرائيل، وما عودة موسى إليه إلاّ لكي يتذكّره، ووجدَ من فضل الله الخَضِر الّذي علّمه ما لم يَعلم، إنّما الأنبياء مَراتب، أَعلاهُم أَعلمُهم بالله، والعِلمُ عندَ الله يُؤتيه مَنْ أحبّ، ولا يُحبّ إلاّ مَنْ أحبّه حتّى وهبَ كُلَّه له، فإذا أنتَ أحببتَ الله حتّى لم يبقَ منكَ لكَ شيءٌ أعطاكَ عِلمًا لم يُعطِه لسواكَ، ورفعكَ عنده درجاتٍ لا يبلغها إلاّ مَنْ أحبَّ كحُبِّك. فيا بُنيّ كُنْ لله يكنِ اللهُ لك.

ارتقَيْنا الصّخرة وجلسنا حيثُ جَلَسا، وأحسستُ أنّ أُمّي تعلّمني فوقَها ما علّمه الخضرُ لِموسى في رحلتهما الّتي اختصرتِ الحياةَ البشريّة ورموزها ومعانيها. وحدّثتني أمّي فوق الصّخرة حتّى أقبلَ اللّيل، وبقينا نتسامر، وقد بدأ الله يقذفُ في قلبي عظمته اللامُتناهية، ويعرّفني ضَعَةَ الدُّنيا وحَقَارتَها. فلمّا اسودّ اللّيلُ تمامًا بدتْ لنا من مكاننا بيوتُ أهل (حظائر) عُلبًا من الطّين تُنيرها المشاعل، وتناهَى إلى سمعنا صوتُ الرّعاة يسوقون الأغنام إلى زرائبها. ونُباحُ الكلاب من بعيد، يصلنا ليهمس في آذاننا: الحياةُ مستمرّة، والله يرسمُ لعباده كُلّ شيء. وكنتُ قد تعلّمْتُ في ليلتنا الّتي

قضيناها في مُلتَقَى البحرين إيقاد النّار، فجمعتُ الحطب حتّى صار كُتلةً عاليةً، وسوّرتُها بحجارةٍ سوداء، وأشعلتُ النّار، وسَرَى الدّفْءُ في أوصالِنا، وحدّثتْني أمّي طوال اللّيل أحاديثَ الأنبياء، حتّى إذا حانَ الثُّلُثُ الأخيرِ من اللّيل، كانَ النُّعاسُ قد شغلَ عينيَّ عن أيّ شيءٍ آخر، فدثّرتْني أمّي بغطاءٍ من الصّوف، ورحتُ في نومٍ عميق. أمّا هي فنهضَتْ لتأخذ حظّها من اللّيل على عادتها حينَ تُناجي الله.

يا ربّ أنا أَمَتُك وهذا عبدُك، وإنّكَ ما قذفْتَ في أرواحنا شُعلةَ الحياةِ إلاّ لنؤدّي حقّكَ فيها، فَأَعِنَّا على ما حمّلْتَنا، فلولاكَ لما كُنّا، ولولا تكاليفُكَ لكانتِ الرّاحةُ سبيلَنا، ولكنّك عَهِدْتَ إلينا بما لم تَعْهَدْ به إلى سِوانا، فلا تجعلنا كَسِوانا، قَوِّ ظهورنا على حَملِ رسالتِك، وألسِنَتَنا على قَوْلِ الحقّ فيك، وأرجلَنا على السّير إلى غايتك، ولا تجعلْ لنا حظًّا سِواك، وهَوِّنِ الدُّنيا في أَعْيُنِنا حتّى تعودَ أهونَ علينا من شَرَكِ النّعالِ البالي. واجعلْنا إذا أخذْنا منها أخذْنا بما يُعينُ على التّفكّر فيك والتّأمُّل في مَلَكوتك، وعونًا على رؤية الحقّ الّذي هو أنت، والسّير في الدّرب المُوصلة إليك، وإليكَ وحدك.

ثُمّ إنّها غفتْ، ولم تَصْحُ إلاّ في ضُحى اليومِ الثّاني.

وتجهّزْنا للمسير. صعدْنا شمالاً عابرين صحراء سيناءَ من جديد. كانتِ الجبال الّتي تُحاذينا من جهة الغرب جرداء، كأنّها غربانٌ ضخمةٌ ميّتة. لا أثرَ للحياةِ فيها، وكانَ الموتُ علامةَ كلّ شيءٍ هناك، وتوجّسْنا ونحن نسمع أصواتًا لهوامّ تطرقُ سمعَنا في سُكُون الصّحراء القاتِل. لكنّ الله كان في قلبَينا فلم نأبهْ لِما سَمِعنا، وإنْ كان البشريُّ الّذي يسكُنُنا يُنازِعه الخوفُ من حينٍ لآخر جرّاءَ ما نَسمعُ من قَعْقعاتٍ وهمهماتٍ أغلبُها من الشّيطانِ الّذي لا يتركُ عبدًا لله إلاّ دخل بينه وبينَ الله.

نِمْنا ليلتَين في الصحراءِ، وكانتا من أصعبِ اللّيالي الّتي مرّتْ على أمّي، لكنّني لم أسمع من فمها كلمةٍ واحدة تدلّ على الضّجر أو السّأم أو الشّكوى، ولا حتّى همسة. ظلّتْ راضِيةً حتّى كانتِ الرّضا. لم يكن البرد وحده الّذي عانَينا منه في تلكما اللّيلَتين، كانَ الغُبار الّذي تدور به الرّيح في عواصِفَ هو الأنكَى؛ لأنّه كان يحملُ الحُصيّات الصّغيرة، فتقذفها الرّيح في عيوننا وآذاننا وأنوفنا، وتدخل بيننا وبينَ ثِيابنا، فأقمْنا اللّيلتَين، ونحن ننزِعُ آثار الأذى الّذي أصابَنا، وكانتْ أمّي تنشغل عمّا أصابَها بِي، فكانت من الحذْبِ أنْ لم يكن عندها في الكون كلّه غيري لتهتمّ به، وتقوم على رعايته في كلّ حين.

ثُمّ إنّنا وافَيْنا صُعودًا تاركينَ ماءَ أيلةَ خلفَنا، حتّى أتينا (جَوْقات)، فأنخْنا رِحالَنا في بعضِ نواحِيها، ثُمّ نِمنا، فلمّا كان الغدُ كانَ يومَ السّبت، تناهتْ إلى مسامِعنا تراتيل الإنشاد، يترنّم بها العُبّادُ منْ أسفارهم، فجذبتْني أمّي من يدي، فلحقتُ بها، فلمّا وسّعتْ خُطُواتِها هرولتُ خلفَ ردائها، حتّى إذا كان المعبد الّذي تُتلَى فيه الصّلَوات، دخلنا من البابِ الكبير، وظللتُ مُتعلّقًا بكفّها فاتّخذتْ لها رُكنًا قَصِيًّا، ورُحنا نستمعُ معًا

«في ذلكَ اليومِ يَكونُ غُصْنُ الرّبِّ بهاءً ومجدًا...

وثَمَرُ الأرضِ فخرًا وزِينةً للنّاجينَ مِنْ إسرائيل...

ويكونُ أنّ الّذي يَبقَى في صِهْيَوْن والّذي يُترَكُ في أورشليمَ يسمى قُدُّوسًا...

كُلُّ مَنْ كُتِبَ للحياةِ في أُورشليم...

إذا غَسَلَ السّيّدُ قَذَرَ بَناتِ صِهْيَونَ...

ونَقَّى دَمَ أورشليمَ من وَسَطِها بِرُوحِ القَضاءِ وبروحِ الإحْراقِ...

يَخْلُقُ الرّبُّ على كُلِّ مكانٍ من جبلِ صِهْيَوْنَ وعلى مَحْفَلِها سحابةً نهارًا...

ودُخانًا ولَمعانَ نارٍ مُلتَهِبَةٍ ليلاً...

لأنَّ على كُلِّ مَجدٍ غِطاءً...

وتكونُ مِظَلَّةٌ للفَيْءِ نَهارًا مِنَ الحَرِّ..

ولِمَلْجَأٍ ولِمَخْبَأٍ مِنَ السَّيْلِ ومِنَ المَطَرِ...».

ثُمّ إنّ أُمّي قامَتْ مُسرِعةً، وكأنّني سمعتُها تقول: ستكون أنتَ الغاسِلَ والمِظَلّةَ والمَلْجَأ والمَخبأَ. وشَدَّتْ على يدي ونحنُ خارجان، وظلّتْ كذلك حتّى خرجْنا إلى أطراف البلدة. وقالتْ لي: سنبيتُ اللّيلةَ في العَراء. وفي الصّباح تابعْنا الرّحلة.

لم أعهدْ صمتًا ثقيلاً في أُمّي أكثرَ من ذلك الّذي أصابها بعد حضور التّرانيم في (جَوْقات)، ظلّتْ على هذه الحال ثلاثَ ليالٍ، تسيرُ وهي ساهِمة، ولا تكادُ تُحوّل نظرها عن الأفقِ البعيد. ولم أشأ أنْ أُكلِّمها في شيء، حتّى إذا أشعلْنا النّار في اللّيلة الرّابعة، قالتْ لي: يا بُنَيّ: إنّ الشّيطانَ يكونُ من الواحدِ أقرب، إلاّ عندَ فَسَدةِ بني إسرائيل، كانَ الشّيطانُ مع جماعتهم، ولا أدري كيفَ تمالؤوا على أن يؤمِنوا ببعضِ الكتاب ويكفروا ببعض!! وإنّ الشّيطان ليُحسِنُ القَول، ويدعو إلى اتّباعه بالحُجّة، ولا يأتيكَ إلاّ فيما تحذَر. فإنْ أدّى الله إليكَ الرّسالة، فَاجعلِ الله في قلبِك يَصْرِفُ عنكَ عدُوَّك؛ فإنّه لا يجتمع الله والشّيطان في قلبٍ واحدٍ معًا.

فلمّا كانتِ اللّيلةُ الخامسة، صارتْ فلسطين بين يدينا، ووجدْنا على اللّيل نسيمَها عَذبًا مُنعِشًا، وماءَها صافِيًا رقراقًا، تغيّرتِ البلادُ فتغيّرتِ الأنفُس. وقادَنا الحُبّ إلى أن نسجُدَ على ترابها، فنصلّي لله شُكرًا. وكانتْ أورشليم على بعدِ ليلتَين أو ثلاثةٍ مِنّا، لكنّنا لم ندخُلْها حتّى لا ننشغل في زحمة الاضطرابات الكثيرة الّتي حدثتْ بعدَ موت (هيرودس). وتجاوزناها إلى النّاصرة. وصلْنا إليها ضُحَى، فاستقبلَنا يوسفُ بالأشواق، وبكَى فرحًا إذْ رآنا ناجِيَين، واندهشَ لمنظري، فقد صرتُ فتًى بعد أنْ كنتُ طفلاً صغيرًا. وكان قد أعدّ بيتَ أمّي وجَدَّيّ ليكون صالحًا لاستِقبالِنا. وهكذا تَمّ لنا في هذه الرّحلة ما يقربُ من أربعِ سنواتٍ قضيناها في الجوع والعطش والبرد واللّيل ومرافقة الوحوش والذّؤبان. «وكانَ أمرُ الله قَدَرًا مَقْدُورًا».

(٢٢)

هذه القدّيسة أفنتْ لله كُلّ جسدِها

بعثَتْ بي أُمّي إلى مدرسةِ النّاصرة، وكانتْ مدرسةً دينيّة تابعةً لسلطة المعبد الكبير في أورشليم. كُنّا نتعلّم فيها التّوارة، وشرائع موسَى، ونحفظُ سِفرَ (دانيال)، ونتلو بعضَ المزامير، ونِدرسُ علومَ الدُّنيا من الجَبر والفلسفة والمنطق. كان أثرُ الرّومان في بعضِ المناهجِ واضِحًا، وإنْ كانَ الطّابَعُ الدّينيّ هُوَ الغالِب.

كانتِ المدرسة تَقَعُ على سفح الجبلِ المُقابِل، وكنتُ أقطعُ الطّريقَ إليها مَشْيًا، وقد ينضمُّ إليّ بعضُ الأصدقاء في الدّرب، وأتذكّر أنّ أحدهم كبر معي، فلمّا انقطعتْ عنّي أخباره، ومضى في سبيلٍ غير السّبيل الّذي مضيتُ فيها، التقيتُه بعد أكثَر من عَقدَين من الزّمان وصار أحدَ تلاميذي، إنّه وستعرفونه فيما بعد (مَتّى) العَشّار.

أجملُ الدّروبِ هِيَ الخاليةُ إلاّ من الله، اللهُ يرافقكَ في الأثَر؛ في تفتُّحِ الورود، وفي غِناءِ الطُّيور، وفي صفير الرّياح، وفي خرير المياه، وفي حفيفِ الأشجار... كانتِ الطّريق إلى المدرسة تمرّ عبرَ مسربٍ مُتعرّج مرصوفٍ بحجارةٍ صلبة، تمتدّ على جانبَيه حقول الزّيتون والعنب واللّوز والرُّمّان، وغيرها...

في صباحِ يومٍ ربيعيٍّ دافِئ، استوقفَتْني في منتصفِ الطّريق الخالِية شجرةُ لوز، كانَ نوّارها قد تفتّح بعضُه، وتساقطَ بعضُه على الأرض، فشكّل دائرةً صغيرةٍ من الثّلجِ النّاعم. تركتُ أسفاري على الأرض، واقتربتُ أكثرَ

مـن الشّـجرة، كانَ شيءٌ مـا فيهـا يُناديـني، هـل تتكلّـم الأشـجار؟! بـلى، بـأيّ لغـة؟! بلغـة الله الّـذي أنطـقَ كُلَّ شيء، ومـا عليـكَ سِـوَى أن تعـرف هـذه اللغـة، وهـيَ سِرُّ الله لا يُعطيـه إلاّ لأصفِيائـه.

لمّـا صرتُ بحيثُ تلتقي عيوننـا قالـتْ لي شـجرةُ اللّـوز: النّـاسُ هلكَـى إلاّ العالِمـون، والعالِمـون هلكَـى إلاّ المُخلِصـون، والمُخلِصـون هلكَـى إلاّ المُبتلَـوْن، والمُبتلَـوْن هلكَـى إلاّ الصّابـرون، والصّابـرون هلكَـى إلاّ المُتِمّـون، والمُتِمُّـونَ هُـمُ المُجتبَـون؛ فهـل سـألتَ الله أن تكـونَ منهـم؟! أجبتُهـا: أريـدُ أن أكـونَ منهـم. قالـتْ لي: أنـتَ لا تُريـد أنـتَ تسـأل. ومضيتُ؛ لقـد تعلّمـتُ درسًـا جديـدًا، لم أتعلّمـه في تلـك المدرسـةِ القابِعـة في ذلـك السّـفح. وعُـدتِ نهـاري ذلـك بِحِكمة.

خرجْنـا عـصرًا مـن البيـتِ أنـا وأمّـي نسـتقي. كانـتْ عـينُ المـاء تقـعُ في الـوادي الفاصـل بـين الجبلَـين، الجبـل الّـذي يكتنـفُ منزلنـا، والجبـل المُقابـل الّـذي يكتنـفُ مدرسـتي. هَبَطْنـا المنحـدرات الضّيّقـة بحـذر، أمّـي مشـتْ عـلى رجلَيْهـا بـلادًا بأكملهـا؛ هـذه القدّيسـة أفنـتْ لله كُلَّ جسـدِها، عـلى هاتَـين القدَمـين وقفـتْ في محرابهـا تدعـو الله حتّـى تشـقّقَتا، وعليهـا كذلـك قطعـتْ سـهولاً وصحـاري وهبطـتْ وديانًـا وقيعانًـا وصعـدتْ جِبـالاً وآكامًـا هربًـا بدينهـا وبي مـن بطـش الطّاغيـة (هـيرودس) حَتَّـى دَمِيَتـا. نظـرتُ إلى قدَمَيهـا المُدرَّبتَـين عـلى الشّـقاء، والمنذورتَـين لخدمـة الـرّبّ، وتبسّـمتُ: فيـمَ يُعطـي اللهُ الإنسـانَ الآخـرةَ إذا لمْ يَزهـدْ لـه في الدُّنيـا!!

وصَلْنـا إلى عـين المـاء الّتـي تتدفَّـقُ مـن بعـضِ الشّـقوق الصّخريّـة في قـاعِ الـوادي، وتتجمّـع في مَـوْرِدٍ واسـع، ثُـمّ تسـيلُ متّخـذةً طريقهـا جنوبًـا، كانَ هديرُهـا يعلـو كلّـما اقتربْنـا، شيءٌ مـا أغضـبَ المـاءَ حتّـى هَـدَر عـلى هـذا النّحـو (حدّثَـتُ نفـسي). اقتربْنـا أكثـر، صـار الصَّـوتُ مُتفجِّـرًا، يُغطّـي عـلى صِيـاح النّسـاء وهـنّ يتنافَسْـنَ عـلى الـدّور في مَلْءِ الجِـرار. شَـقَّ المـاءُ طريقـه عـبر

الصّخور الجامدة ورَسَم مشهدًا جَلِيًّا من مشاهد الحياة، كانَ الماء وِلادة، مَيّتٌ قبل أن ينبجسَ من الصّخر؛ حَيٌّ حينَ ينفجرَ ويهبُ الحياة لسِواه.

رأيتُ عددًا كبيرًا من الأطفال يضحكون، ويتراشَقون بالماء، وصلَ إليّ صِياحُهم من مسافةٍ بعيدةٍ فطرب قلبي لهذه الأصواتِ الطّفوليّة، ووجدتُ أقدامي تحثُّ السّير باتّجاه العَين. كانتْ نِساءُ النّاصرة يملأْنَ الجِرارَ الكبيرة بالماءِ حتّى تدومَ في خدمة أهل البيتِ زمنًا أطول، وكنتُ أشاهدُ بعضهنّ يحملْنَ أطفالهنّ الرُّضَّعَ بيد، وبعضَ الحطب باليدِ الأخرى، والجرّة حُرّةٌ لكنّها مركوزةٌ بثباتٍ فوق الرّأس، وكُنّ يَصعدْنَ طريقًا صعبةً ليصلن إلى البلدةِ البعيدة الّتي تنام بعضُ دورها على كتف الجبل، وتأكّدتُ من هذا المشهدِ: أنّ الدُنيا ليستْ للحياة؛ إنّها عُبُور، وأنّ هذا العناءَ لن يَطول.

لعبتُ معَ الأطفال لُعبةَ الأحجار السبعة، كانتْ تقضي بتثبيت سبعةِ أحجار بعضُها فوقَ بعض، وتُرمَى بكرةٍ كثّةٍ من القِماش بيدِ رام يقفُ على بُعدِ عشرةِ أذرُع منها. كانتِ اللُّعبة مُبهجةً لنا؛ لأنّها تَشِي بقوّة الذّراع القادرة على إيقاع الأحجار المُتراكِمة، وقوّة الذّراع تَشِي برجولةٍ مُبكّرة يتوقُ إليها مَنْ كانَ في سنّ العاشرة مثلنا. وكانَ من أحكام اللّعبة أنّ الفائِزَ الأخير يحكمُ على الخاسِر الأخير، فإذا كانَ هُناكَ أكثر من فائزٍ قبل أن يخسر أحدُنا، فإنّهم جميعًا يحكمون عليه، وكانتِ الأحكام تتراوح في قَساوتِها أو طرافتها، فقد كانَ مِنَ المُمكن أنْ يحكم عليكَ الفائز بالزّحف على بطنك، أو بالصّعود على صخرةٍ كانتْ تتمركزُ قريبًا من العين والقفزِ من فوقها، أو بالحَجْل على رِجلٍ واحدة، أو.. وخسرتُ مرّة، فحكمَ عليّ الفائزُ الأخير بالاستِحمام بالماء، كان عليّ أن أغطسَ في القناة حتّى يغطّيَ الماءُ جسدي كلّه، ثُمّ أقفُ على قدميّ في وسطِ القناةِ حتّى يخسرَ مُتسابِقٌ آخر فأخرجَ من هُناك. كانوا يرونها عقوبةً، وكنتُ أحسُّ أنّها طقسٌ تعبّديّ، شعرتُ أنّ

شيئًا ما قد نَظُفَ في أعماقي، كأنّني كنتُ أتوقُ إلى فِعل ذلك من زمن، أو كأنّ الله رَتّبَ ذلك لي. غير أنّ الجَوّ كان بارِدًا شيئًا ما فارتَجَفَ بدني بعد وقوفي في النّبعِ للحظاتِ، لكنّ تنفيذَ العُقوبةِ يجبُ أن يتمّ، فغطستُ بقوّة من شدّة البردِ، فعثرتْ رِجلي بحجرٍ في قعر القَناة، فوقعتُ على صَدْري، فتلقّتْني حديدةٌ حادّة يبدو أنّها ألقِيتْ في القناةِ من سِلاحٍ رومانيّ، فغاصتْ في صدري، فصرختُ مِنَ الوجع، ثُمّ نهضتُ وأنا أصرخ، فسَمِعَتْني أمّي فَهُرِعتْ إليّ والقلقُ الشّديد يبدو على وجهها، فلمّا رأتِ الدّماء تسيلُ من صدري، حارتْ ما تفعل، فصارتْ تُنادي، فلقيها رجلٌ صالحٌ فهمّ بأخذي إلى الطّبيب، فقلتُ لهما بهدوء: الأمرُ لا يتطلّبُ ذلك، فوضعتُ يدي على صدري، ودعوتُ بما ثقفْتُ من دعواتِ أمّي، فتوقّف الدّم، وسكتَ النّزيف، والتأمَ مكانُه؛ كأنّ يدَ جرّاحٍ خاطتْه. لكنَّ أثرَه في الصّدر ظلّ ظاهِرًا، فكانتْ أمّي من بعدُ تقول لي وهي تُداعبني: يا ذا الجُرح. ثُمّ كانتْ في أكثرَ من مُناسَبةٍ حينَ تُعطيني ثوبًا جديدًا لألبسه، تسألني: «يا ذا الجُرحِ ما أخبارُ الموضع؟!». فأقول لها: «على حاله». «أيؤلِمُك؟!». «لَمْ يُؤلِمني يومَ سقطت؛ فهل سيُؤلمني من بعد!!». ثُمّ أخذتْ بيدي وهو أخوفُ ما تكونُ عليّ» هَيّا يا بُنيّ. كانتْ قدْ ملأت جرّتها، بعدَ أن انتظرتْ طويلاً. تركتُ خَلفي هِياجَ الأولادِ وصِياحَهم، وتناهَتْ إلى مسامعي أصواتُهم وهم يحكمون على خاسِرٍ جديد!!

في اللّيل، كالتْ أمّي ثلاثة مكاييل من الطّحين، أضافتْ إليها الماء والخَميرة في وعاءٍ نُحاسيّ، وراحتْ تعجنها، يداها تُطعِمان كُلّ جائع، وجهها يُنير السّبيلَ لِكُلِّ مُدلِج، في عالمَها السّاحر وجدتُ نفسي، كانتْ أُمّي غامِضَةً واضِحة، قريبةً بعيدةً، كنتُ أشعرُ أنّ الحِكايةَ كُلّها عندها، لكنّها لم تَقُلْ لي منها إلاّ البِدايات!! غَطّتْ أمّي العجين.

في الصّباح انتفشَ، هل وَهَبَتْهُ أمّي الحياة؟! ذهبتْ إلى تَنّور البلدة، ذهبتُ معها، كانت النّار الموقدة تلتهبُ على طَرَفيه الصّلصاليَّين، أخذتْ أمّي من العجين قِطَعًا تملأ الكفّ، رَقّتْها على قاعدة حجريّة، مُغطّاة بالدّقيق، راحتْ أصابعها تُدير الرقاقة حتّى تشكّلتْ على هيئةِ كرةٍ، العَجينةُ تُشبِهُ شيئًا ما؟! القمر مثلاً. لا. قلبَ أمّي؟! لا. السّماءَ؟! ربّما. ثُمّ دفعتْ بها وبأخرياتٍ مثلها إلى النّار، فلمّا نَضِجتْ أخرجتْها خُبزًا شَهِيًّا؛ من جديدٍ تَهَبُ أُمّي الحياةَ، ملأتْ وعاءَها بأرغفةِ الخُبزِ تاركةً الدّور في التَّنُّورَ لامرأةٍ أُخرى. في الطّريق طافتْ أمّي بعشر دور، طرقتْ أبوابَهنَّ جميعًا، وأعطتْ لكلّ أرملةٍ برزَ وجهها عندَ الباب رغيفَين؛ أمّي تُوزّع الحياة أيضًا. حينَ وصلْنا إلى البيت كانتْ أمّي قد فرّقَتْ ثُلُثَي ما تخبِزُ في العادة. لم يَكُنِ الأمر غريبًا، الخُبز الّذي يكفينا ثلاثة أيّام دون أن نوزّع منه شيئًا، كفانا هذه المرّة بعد توزيعه أسبوعًا كامِلاً.

في العُطَل، كثيرًا ما كنتُ أصعدُ قِمّةَ الجبل، الله يبدو هناكَ أقربَ؛ إنّه على مسافةِ قلبٍ منك!! في القِمّة كنتُ أستمع إلى نشيدِ الطّبيعة، بعضُ ما كنتُ أسمعه كانتْ تقوله الأشجار والرّيح والطّيور، وبعضُها شككتُ في أنّني أنا الّذي قلتُه وأنشدتُه؛ ليسَ مُهِمًّا؛ صوتي هو صوتُ الطّبيعة، هُوَ صوتُ الله، ولا يهمُّ مَنْ هو المُتكلّم في هذه اللّحظة، فأنا أهُمُّ بالقول والله يقولُ عنّي!!

كانتْ هُناكَ شجرةُ تينٍ عتيقةٍ، لم يكنْ أحدٌ ليعتني بها هُنا في القِمّةِ الجرداء لهذا الجبلِ، نَمَتْ وحدها فوقَ القِمّة، كانَ الله يُنمّيها، لِمَنْ؟! أسندتُ ظهري إلى جذعها الغليظ الأملس، شعرتُ بدفءٍ يسري في جسدي، سقطتْ ثلاثُ حبّاتٍ بينَ يدَي، أكلتُها، كانتْ من تين الجنّة لا الدُّنيا. مَرَّ سِرْبٌ من الحساسينِ المُلوّنة، تابعَ طريقَه، التفتَ واحدٌ مِنها نحوي، تلاقتْ

عُيُونـنـا، إنّـه يعرفنـي، عينـاه تقـولان ذلـك، تـركَ سِرْبَـه وجـاءَ إليّ، تخـلّى عـن جَماعتِـه، لأنّني أنـا جماعتُـه، وعـن حياتـه لأنّني أنـا حياتـه!! لا أدري كيـفَ أقـولُ هـذا الـكلام؛ الأمـرُ جـليّ: الله الّـذي في داخـلي يقولـه عنّـي.

حَـطَّ الحَسُّـونُ عـلى كَتِفـي الأيمـن، همـسَ في أذني: النّـاسُ أطيـار، مُرتَحِلـون، إنّهـم لا يمـرّون في الدُّنيـا إلاّ كمُرورهـم بـك، ولا يَمكُثـون فيهـا أكثـرَ مِمّـا مكثه هـذا السّربُ الّـذي عـبَر الفضـاءَ أمامَـك، نـادِرون أولئـكَ الّذيـن يغـادِرون سِرْبَهـم ليحمـوا أنفسـهم مـن المصـير الّـذي يسـير إليـه السّـربُ دون أن يـدري. سـألتُه: «إلى أيـن يسـيرون؟!». «إلى الهـلاك». «وأنـتَ؟». «في الجنّـة، أنقـذتُ نفسـي». تعلّمـتُ حِكمـةً جديـدةً. سـألني العُصفـور: «أتعطينـي عـلى ذلـك عهـدَ الله؟!». أجبْتُـهُ: «أعطيـك، لكـنْ عـلى أيّ شيءٍ؟!». «عـلى أنْ تَهَبَنِـي الحَيـاة». «كيـف؟!». «أنـا طين. إنْ نفخـتَ فِيَّ سرتِ الرّوح في جسـدي فـصرتُ حَيًّـا بـإذن الله». نفضـتُ رأسي؛ تسـاءلتُ: هـل كنـتُ أتخيّـل. مـددتُ يـدي إلى كتفـي، لم يكـنِ العُصفـور موجـودًا. نظـرتُ إلى السّـماء، كانَ هنـاك، سـمعتهُ هاتِفًـا: سـنلتقي، فكُـنْ عـلى العَهـد.

عُـدتُ إلى البلـدة مشـدوهًا، شيءٌ مـا غـير الحِكمـة صـار يجـري عـلى يَـدَيّ، في نـزولي رأيـتُ كُلَّ شيءٍ مختلفًـا، هـل اختلفَـتْ طريـقُ الجبـل بـين لحظتَـين حقًّـا؟! كلاّ؛ الّـذي اختلـفَ ليسـتِ الطّريـق، القلـبُ الّـذي يمـشي في الطّريـق هـو الّـذي اختلـفَ، أنـا أمتلـئُ بحكمـة الله في كُلِّ حـين، وحكمـةُ الله عـينٌ تـرى الأشـياءَ عـلى غـيرِ مـا تـراهُ أعـينُ البـشر!!

واصلـتُ هبوطـي حتّـى مـررتُ بالسّـوق، السّـوق الّـذي يُقـامُ في الأسـبوع مـرّة، وتُبـاعُ فيـه الموجـوداتُ بأثـمانٍ زهيـدة. وفي الازدِحـام وصيـاح الباعـةِ والمُشـترين تناهَـى إلى سـمعي صـوتٌ ليـسَ غريبًـا عنّـي؛ صـوتٌ مألـوف. آه إنّـه العصفـور الّـذي أسـمعني كلامًـا يُشـبه كلامَ الأنبيـاء عـلى قِمّـة الجبـل، كانَ

صاحِبهُ ينادي عليه لكي يُباعَ بفَلْس...!! آه ما أظلمَ الإنسان، هذا العُصفور المملوء حكمةً وعِلْماً يُباعُ بفَلس؛ أينَ هي عدالةُ البشر!! هتفَ بي الطّائر: «يا عيسى يا نبيّ الله أنقِذْني، إنّهم سيبيعونني ليذبحوني ويأكلوني». هتفتُ بصاحبه: «أعطني هذا العصفور». أجابني: «ثمنُه فَلسٌ». «ولكنّني لا أملكُ ثمنَه». «وما شأني؟!». «هل من طريقةٍ لِتهَبني إيّاه؟!». «نعم؛ إذا عملتَ معي بالسُّخرة، وحملتَ لي المعروضات إلى أصحابها سحابةَ النّهار كامِلاً». أجبتُه دون تردّد: «أَقبَلُ». قال لي العُصفور مُتعَجِّباً: «قبلتَ أنْ تعمل عنده عبدًا؟!!» أجبتُه: « عُبوديّتي من أجل حُرّيّتك». في نهاية يوم من العمل الشّاقّ، صار العُصفور لي، قلتُ له قبل أن أُطلِقه، عِلّمني حِكمةً قبل أن تطير. قال لي: كادُوا أن يذبحوك مثلي قبل أن يُطلقك الله كما أطلقْتَني. قلتُ له: هذا نبأ، وليسَ حِكمة، فأردف: «لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ عَقْلٌ سَلِيْمٌ لَمْ يَجْمَعْ شَيْئًا لِنَفْسِهِ». وطار.

(٢٣)

لِمَنْ تصنعون هذه الصّلبان؟!

صارَ يتعيّنُ عليّ أنْ أساعِدَ أُمّي في مهمّتها الرَّسوليّة؛ كُلُّ ما كانتْ تَجنيه من الغَزْل، كانتْ تشتري به دقيقًا، وتخبزه وتُطعِمُ الفُقراء، لم تكنْ لتدّخر شيئًا يُذكَر لنأكله، كانتِ هذه العبارةُ كثيرًا ما تتردّدُ في المسامِع: «أَغْنِيَاءُ العالَمِ عَلَى رَخَائِهِمْ جِيَاعٌ وَسَيَهْلَكُونَ». فكانتْ تفتقر لتغنَى، وتبذل كلّ ما تجني لكي لا تَهلِك.

والتحقتُ بحانوت (يوسف) النّجار، وعملتُ صَبِيًّا عنده، كانَ حانوتُه غرفةً واسعة، وأمامها فِناءٌ كبير، في الغرفة كان يعمل ما يُطلَب منه، وفي الفِناء كانَ يضعُ ما يُنجِزه. كان أكثرَ ما يُطلَب منه الموائد الخشبيّة الممتدّة، أو الّتي توضع في قاعات التّشريفات في مجلس الشّعب عند (أنتيباس)، إضافةً إلى الخزائن الّتي تطلبها الأُسَر الميسورة في النّاصرة والجليل. وكان إلى ذلك يصنع الصُّلبان الّتي يُعَلّقُ فوقَها الخارِجون عن القانون في الدّولة، أو الثّائرون على سُلطتها.

كانتِ الصُّلبان أربحَ تجارةٍ يومئذٍ، فقد كانتْ مطلوبةً بكثرة، وكانَ يُنفَقُ عليها من خزينة الدّولة، فلا يُتأخّر في دفع أثمانها إلى صانِعيها. وكان يحدثُ في أيّامٍ ما أن تمتلِئ السّاحة الخارجيّة بهذه الصُّلبان، وتكتظّ بها متكوّمة تنتظر العربات الرّومانيّة لحملها، وكان منظرها يملأ قلبَ النّاظِرِ إليه بالرّعب.

كنتُ أكنُسُ أرضَ الغرفةِ بعد يومِ من العمل من قُصاصاتِ

الأخشاب، وأجمع نُشارته في كيس، عندما دخل إليّ فتىً في أواسط العقد الثّاني من عمره، كان ذا لِحيةٍ حمراء خفيفة، وكانتْ عيناه ملتهبتان تقدحانِ نارًا، وكان ينقلُ خطواته بسرعة لخفّة جسده، أمّا عنقه فكانت طويلةً صلبة. قفز بخطواته السّريعة مُتجاوِزًا الفِناء حتّى صار عندنا في الغرفة، أمسكَ بطرفِ ثوبي وتَلَّه إليه، وقال بصوتٍ مملوءٍ غضبًا: «لِمَنْ تصنعون هذه الصّلبان؟!». نزَعَ يوسفُ يدَ الفتى عن طرف ثوبي، وقال بعدَ أن نفضها بعيدًا: «وما شأنُكَ أنت؟!». فهتفَ غاضِبًا: «تصنعونها ليُعَلَّقَ فوقها أبناء جِلدتكم، وتزعمون بعد ذلك أنّكم أبناءُ إسرائيل». «إذا كانتْ لكَ حاجةٌ فقُلْ؛ لأنّنا نريدُ أن نغلِقَ الحانوت». «نعم، لي حاجةٌ، لا تَكُنْ جَشِعًا يا يُوسُف؛ أنتَ كذلك يجب أن تطلبَ الحُرّية لشعبِك، أتزعمُ أيّها النّاصريّ أنّك تنتمي إلى شعب الله المُختار». «ليسَ لديّ وقتٌ لأردّ عليك، دَعْني من مواعِظِك واخرجْ». «أنا لا أقولُ مواعِظ، هذا الصّبيّ الّذي إلى جانِبك قد يعظ، أمّا أنا فأفعل، أنا أحمل السّيف، لا صليبًا. وسأقول لك كلمةً أخيرة: إمّا أنْ تتركَ صِناعةَ الصُّلبان، وإمّا سأحرقها لكَ كُلّها». قدحتْ عيناهُ شررًا قبل أن يخرج، تارِكًا خلفه عاصِفةً من الأسئلة تدور في ذهني. سألتُ يوسف: «مَنْ هذا يا عمّي؟!». «إنّه يَهُوذا». «وما قِصّته؟!». «إنّه يُطالِبُ بثأرِ أبيه»!!

في قمّة الجبل في نهاية الأسبوع عادتْ صورة يهوذا الغاضِب تملأ خيالي، كنتُ أرى في كلامه بعضَ الصّواب، ورأيتُ أنّ توقه إلى التّحرير لاقى قَبولاً لديّ، وتساؤله عن صُنعِ الصُّلبان أثار تساؤلاً أضخم منه في ذهني، فعزمتُ على أَنْ أطلبَ من (يوسف) أن يتركَ فِعْلَ ذلك، أو أنْ أترك أنا العملَ عنده؛ فأنا جِئتُ لرفع الظُّلمِ عن الإنسان لا لإيقاعه به.

كانتْ أمّي تنتظر هُبُوطي من القِمّة لأشارِكها عشاءَ السّبتِ الّذي أعدَّتْ؛ حينَ جلسنا إلى الطّعام، قالتْ لي: لقد أحرقَ يهوذا كُلَّ الصّلبان الّتي

صَنَعها يوسف. لم أُجِبْ بكلمة، غير أنّني شعرتُ براحةٍ قلبيّة كبيرة حينَ سمعتُ ذلك، وقرّرتُ أنْ أعرفَ يهوذا أكثر.

كانَ شيءٌ ما في داخلي يَشُدُّني إلى السّماء، وكانَ ينمو كلّ يوم، وكانَ لا بُدّ أن يكونَ هذا الشّيءُ خاليًا من أيّ هدفٍ إلاّ هدفَ العُروج إلى الأعالي حيثُ الشّريعةُ العادِلةُ الّتي لا يَشوبها أيُّ ظُلم؛ ولِذا قلتُ ليوسف: «لَمّا كانَ كُلُّ شيءٍ هِبَةً مِنَ الله كانَ على الإنسانِ أن يصرِفَ كُلَّ شيءٍ في محبّةِ الله. فإذا كانتِ الصُّلبان تُغضِبُ الله فلا تصنَعْها، ولا تكُنْ كأبِ إبراهيم؛ كانَ يصنع التّماثيل ليعيش؛ يفعل شرًّا ليُحصِّلَ خيرًا، هل رأيتَ خيرًا يُتَحَصَّلُ مِنْ شرّ؟! كلاّ يا يُوسف. يَجِبُ عَلَى مَنْ يَخَافُ اللهَ أَنْ يَنْفَصِلَ في كُلِّ عَمَلٍ صالِحٍ عَنْ أعمالِ العالَمِ لكيلا يُفسِدَ العَمَلَ الصّالح». دُهِشَ يوسف لما سَمِع، وأدركَ أنّ كلامَ الله بدأ يجري على لِساني.

ولكَي يطرُدَ يوسفُ الخطيئةَ قرّر أن يَحُجَّ إلى أورشليم في هذا العام، ويشهدَ في المدينةِ المُقدَّسةِ عيدَ الفِصح. ونوتْ أُمّي ذلك أيضًا وقد شاقَها محِرابُها، وذهبْتُ أنا كذلك معهم، وذهبَ معنا خَلْقٌ كثيرٌ مِنَ النّاصرة.

في الطّريق الّتي قطعناها بين الجبال، وفي أحضان الطّبيعة، كانتِ قافِلتنا ترتاح عندَ بعض الآبار لتتزوّدَ بالماء والطّعام، وكانتْ تنضمّ إليها قوافل أخرى قادمة من أماكنَ شَتّى من أنحاءِ فلسطين، كانت الأعداد تتضّخم وتتزايد بشكلٍ كبير، وكانتِ البهجةُ تملأ قلبي، وهتفتُ: إنْ كانوا يحجّون إلى الله ليُخلّصوا أنفسهم من الآثام كما أراد فإنّهم بذلك يرتحلون إلى الجنّة لا إلى أروشليم، وإنْ كانتْ لهم أهدافٌ أخرى من البيع والتّجارة والاحتفالات وأكل الطّعام ومجادلة الطّوائف، فلن تكون أورشليم أكثرَ من ترابٍ وطين، والطّين وخم، والوخم يجذب إلى الجحيم. لو كانتْ قلوبهم

معلّقـة بالسّـماء لرفعهـم الله إلى السّـماء، وإنْ كانـتْ عيونُهـم مُعلّقـةً بـالأرض فسيغوصون فيهـا.

ركضـتُ باتّجاه أحد الجبال المُطلّـة عـلى طريـقِ القوافـل، فلـمّا وصلـتُ إلى القّمـة نظـرتُ إلى الطّريـق؛ كان منظـر الجمـوع المُتوافِـدة والمُتقاطِـرة يخلـبُ الألبـاب؛ أإلى الله؟! تسـاءلت؛ فـالله لـن يردّهـم خائبـين. كانـوا يتحرّكـون إليّ؛ كأنّما كانـوا ينتظرون مِنّـي كلمـةَ الله، فتَنحْنَحـتُ، وعدّلـتُ مِـن وِقفتـي، وبـدأتُ موعظتي كأنّـما قلوبهـم أصغـتْ لي؛ هكـذا خُيّـل إليّ، إنّهـم يـزدادون اقترابًـا منّـي، هـل كانـوا يعـبرون الطّريـقَ المُلتفّـة حـول الجبـل، أم كانـوا يعـبرون الطّريـقَ إليّ؟! هتفـتُ بصـوتٍ سـمعتْهُ السّـماء: «أعطُـوا خـيرَ مـا عِندكـم حُبًّـا في الله. ألاّ تُعطُـوا شـيئًا خـيرٌ مِـنْ أنْ تُعطُـوا شـيئًا رديئًـا». الحـقّ أقـول لكـم: «عـلى مَـنْ يُريـدون أن يعملـوا أعـمالاً صالِحَـةً أن يُلاحِظـوا أنفسـهم؛ لأنّـه لا يُجْـدي المـرءَ نفعـا أن يربـحَ العـالَمَ ويخسرَ نفسـه». «وعـلى مَـنْ يطلبـونَ الله أنْ يهربـوا مـن مُحادثـةِ البشر». وهنـاكَ سنلتقي يـا إخـوتي. ظلّـتِ الجمـوع سـائرة في طوفانهـا الّـذي ملأَ الطّريـق، وفـاضَ عـلى الآكام مـن حولهـا، وانتـشر الهارِبـون إلى الله في كلّ مـكانٍ.

لم أَزُرْ أورشـليم مـن قبـلُ، ولم أمكـثْ فيهـا بعـدَ ولادتي شـيئًا يُذكَـر، هربـتْ بي أمّـي في هروباتهـا المُتعـدّدة خوفًـا عـلى الرّسـالة الّتـي أحملهـا مِـنْ ألاّ تُبلَّـغ. وعليـه فلـم يَكُـنْ ارتِباطـي بأورشـليم عـلى أنّهـا موطنـي أو المـكان الّـذي ترعرعـتُ فيـه؛ كان ارتباطـي بهـا ارتباطًـا سـماويًّا، كانـتْ صلـواتي إلى الله تصعـدُ عبرهـا؛ إنّهـا معـراج الأنبيـاء جميعًـا إلى السّـماوات، مـا مـن نبـيّ إلاّ مـرّ فيهـا قبـل أن يُتِـمّ طريقـه إلى السّـماء؛ فالأنبيـاء جـاؤوا من السّـماء وعـادوا إليهـا، وفي المجيء والعـودة عـبروا بـالأرض في لَحَظـاتٍ حالكـةٍ مـن الضّـلال ليأخـذوا بأيديهـا إلى النّـور، لا تُصدِّقـوا أنّ نبيًّـا موطنُـه الأرض، وأنّ لـه كرامـةً عـلى أرضـه، النّبـيّ عُلـويٌّ ولذلـك لا يقبـلُ بـه أهـل الـدُّون!!

أمّـا أورشـليم بالنّسـبة لأمّـي فموطـنُ النّشـأة؛ وحجّهـا إليـه بعـد سـنواتٍ مـن الغيـاب والعـذاب، يُعَـدُّ جائـزةً كُـبرَى مـن الله لقلبهـا الطّاهـر. كانـتْ تحـرصُ أنْ تظـلّ يـدي معلّقـةً بيدهـا، ولم تُـدركْ بعـدُ أنّنـي صرتُ مُلهَـمًا، وأنّ عـلى يـدي أن تكـون حُـرّة لأهبهـا هـي وكلّ جوارحـي لخدمـة الله.

رابـطَ الحجيـج عـلى مقربـةٍ مـن المدينـةِ المُقدّسـة وانتظـروا الجمـوع الأخـرى لتلتحـقَ بهـم، فيدخلـوا مـرّة واحـدةً، وفعلـوا. في اليـوم الّـذي ولجـوا فيـه مـن بـابِ دمشـق كانـتِ السّـماء تـرى هـذه الأعـداد الغفـيرة الّتـي ضجّـتْ بهـا جنبـاتُ البيـتِ المُقدّس حتّـى لم يَعُـدْ فيه موطـئٌ لقـدم، آلافُ الآلافِ وفـدوا إلى البيـت، ليقدّمـوا أنفسـهم قربانًـا إلى الله. وبعـدَ أن أدّوا الصّلـوات، وسـمعوا المواعـظ، وذبحـوا القرابـين، وبكـتْ قلـوبُ بعضهـم خوفًـا مـن الله، ورفـعَ كُلُّ حـاجٍّ إلى الله مَسْـألته، غـادروا المـكان بعـد يومَـين، وأقامـتِ الأسرُ في خيـمٍ عـلى مشـارف القُـدس تنتظرُ مَـنْ جـاء معهـا، حتّـى إذا اجتمعـتْ كُلُّ أسرةٍ بأفرادهـا عـادوا إلى المـكان الّـذي قَدِمـوا منـه.

أمّـا أنـا فـكان لي شـأنٌ آخـر؛ رأيـتُ اللهَ يُحـارَبُ في المدينـة، ورأيـتُ الحـقّ يُذبَـح في المذبـح، ورأيـتُ الكهنـةَ وهـم يملـؤون جيوبهـم مـن أمـوال المسـاكين الواهِـين الّذيـن ظنّـوا أنّ أموالهـم تذهـبُ إلى الله، لا إلى هـؤلاءِ الجَشِـعين الطّمّـاعين. فلـمْ أصـبرْ على مـا رأيـتُ، وبـدا أنّ العلاقـةَ بيني وبـينَ هـؤلاء الكَهَنة سـتزدادُ شِـقاقًا، وأنّ أهـمّ رسـالةٍ لي أن أخلّـصَ المعبـدَ مـن زَيفِهـم.

وصعـدَ الكَهَنَـةُ الشّرفـاتِ المُطلّـةَ عـلى السّـاحة وعـلى رأسـهم (قَيافـا) بلبـاس الواعظـين، وكانَ يُمكـن للمُجتمعـين تحتهـم في السّـاحةِ أن يسـمعوا ويسـألوا مـا بَـدا لهـم. وبـدأ الكهنـةُ يتحدّثـون؛ فعلمـتُ أنّهـم يخلطـون الـكلامَ حقّـه بباطلـه، وحقيقتـه بزيفـه، ويُوهِمـون النّـاسَ بـما لديهـم مـن العِلـم، والعِلـم سـطوةُ العـالِمِ أمـام الجاهِـل، فلـمّا كان الجهـلُ فاشِـيًا لم يجـرؤ أحـدٌ مـن الجالسـين

في السّاحةِ أن يقول شيئًا، فوقفتُ من بينِ الجموع، وقلتُ مُوجِّهًا كلامي للكَهنَة: «لا يَحسُنُ أنْ يُؤخَذَ الخُبْزُ من أيدي الأطفال ويُطرَح للكلاب». فصمتوا لِما سَمِعوا، ووقفوا حيرى يُحاولون أن يُفسّروا ما قلتُ فلم يهتدوا؛ فأكملتُ موجّهًا كلامي لـ (قَيافا): «إنّ الجَمْعَ كثيرًا في هذه الحياةِ يكونُ شهادةً أكيدةً على عدمِ وجودِ شيءٍ يُؤخذُ في الآخرة». فانزعج (قَيافا) من كلامي، وبدا أنّه يقول لنفسه: مَنْ هذا الصّبيّ المُتعالِم الّذي يعترض كلامَنا ويتجرّأُ على مُخاطَبتِنا، ألم يبقَ في هذه الجموع إلاّ هذا الصّبيّ الصّغير ليوجّه هذه الكلماتِ إلى العُلَماءِ الكِبار. ثُمّ إنّني تركتُه في غمرة اندهاشه وهتفتُ به: «إنّكَ تعرفني يا قَيافا، فَلِمَ الإنكار!!». فصُعِق، ثُمّ إنّه أَحَدَّ النّظرَ فيّ ورجع في السنّين إلى الوراء، فأسعفتْه الذّاكرة بذلك الرّضيع الّذي تكلّمَ في المَهْدِ وكانَ شاهِدًا على ما قلتُ، فعرفَ فارتجَف، ثُمّ تمالكَ نفسه، قائلاً وهو يتظاهر: «آه... أنتَ يسوعُ النّاصريّ... لقد أعطَينا أُمّكَ فوقَ ما تستحقّ... قضتْ شبابها بين ربوع هذا البيت المُقدّس وغادَرَتْنا دون كلمة شُكرٍ واحدة». فقلتُ: «إنّ كُلَّ شَرٍّ إنّما دخلَ العالَمَ بوسيلة الشّيوخ». فلم يحتمل لَمّا سمع ذلك، ولفّ جُبّته على جسده السّمين، وطلبَ من الكَهَنَةِ أنْ يُعلِنوا انتهاءَ الموعظةِ، ويدخلوا إلى بيتِ الرّبّ. فقذفتُ في ظهره كلماتي الأخيرة: «ما أشقاكُم لأنّكم تُظهِرون للآخرين أشدَّ الطُّرُقِ وضوحًا ولا تسيرونَ فيها». ومن يومِها امتلأ قلبُ قَيافا على الحقّ الّذي أحمله، ونقله إلى شخصي فعاداني وأمّي أيّ مُعاداةٍ!!

كانَ الحجيج قد بدؤوا يعودون، وفي غمرة المدّ البشريّ الهائل، فقدتُ أمّي، وكانَ الموعدُ في الخيمة المُخصّصةِ لأسرتنا على أطراف المدينة. لكنّ التّطوافَ في البيتِ المُقدّس أخّرني عنهم، فمضوا وهم يعتقدون أنّني سبقتُهم إلى هناك، فلّما صارَ لهم يومٌ في الطّريق، ولم يَجِدوني انخلعَ قلبُ أمّي، وعادتْ إليها وساوس اختطافي أو قتلي؛ فقد كانتْ تعلم شأني،

وكانتْ تنتظر اليومَ الّذي ستؤدّي فيه أمانةَ الله في حقّي حتّى لا يسألها اللهُ يومَ تقفُ بين يديه فلا تجدُ جوابًا.

وعادتْ إلى أورشليم تبحثُ عنّي، وظلّتْ ثلاثةَ أيّام تسأل القافِلين عن ذلك الفتى ذي الثّانيةَ عشرة من عمره، وكم من فتىً كانَ في مثلِ سِنّي!! فألفتْ نفسَها تبحثُ في الوجوه حتّى أضناها البحثُ، وشَحُبَ لونُها، وكنتُ لا أزالُ في المعبد أحاورُ الكهنةَ، وأناقِشُ العُلَماء، وأنصحُ العُبّاد، وأبيتُ هناك في الزّوايا المُخصّصةِ لِمَنْ فاتته قافِلته؛ فلمّا كان اليوم الثّالث ألفتْني أمّي في إحدى حَلَقاتِ الذِّكر، فوجمتْ أوّل ما رأتْني، وركضتْ نحوي، تسألني: «يا بُنَيّ لماذا فعلتَ بِنا هكذا، لقد كُنّا نطلبكَ مُعَذّبين». «لا تخافي يا أمّي، أنا بين يدي الله، إنّما الخوف على الّذين فقدوا أنفسهم في حضرته». «ولكنّ قلبَ أمك لا يحتملُ». «إنّه أوّل اختِبارٍ يا أُمّي، أفلا نصبر، وإنّه أوّل الطّريق أفلا نمشي». «يا بُنيّ قلبي يُظلّلك، وجناح جبريل يُظلّلك، وروحي لك، لا تَفارق الدُّنيا قبلي، فأفقدَ معنى وجودي». «يا أُمّاه، لقد بدأ عهدي بالقَول، وإنّما يجبُ أن أكونَ فيما لله مِنْ خِدمة. فاسأليه أن يُعينني على الصّدق؛ فإنّني أرى الظّلامَ قد عمّ، وأرى البشرَ مُوغِلين فيه؛ إنَّ مَنْ يسيرُ في الظّلامِ يشتهي النّورَ لا لِيراه، بل ليرى الصّراطَ المُستقيم فيسيرَ آمنًا». ثُمّ إنّها حضتنْني طويلاً، وعُدْنا من ليلتها إلى النّاصرة.

(٢٤)

إنّه مجرّدُ فتًى حالِم

اجتمعوا في الصّحراءِ بعيدًا عَنِ الأعين، ما تَبقّى من عهد (عادِياء) من (فُرسانِ المَسِيّا)، وما انضمّ إليهم من الجيل الجديد من أصدقاء (يهوذا) ومَنْ آمنوا بِفكرته، وكان أبرزهم (باراباس). ظَلَّ ثأرُ أبيه نصبَ عينيه، كلّما تخيّله مرفوعًا على الصّليب أقسمَ أن يأخُذَ بحقّه، وأنْ يقتُلَ كُلَّ رومانيّ يقع تحتَ قبضته بذنبٍ أو بدون ذنب؛ فلا ذنبَ أكبر من احتلالهم لهذه البِلادِ الطّاهرة.

هذه المرّة اختبؤوا خلفَ كثيبٍ عالٍ مِنَ الرّمل، ينتظرون وصول القافِلة الرّومانيّة المُحمّلة بالحُبوب والقادمة من الشّمال لِتُؤمّن الغِذاء لحاميات الجنوب. ما إنْ علتْ أصواتُ العرباتِ الّتي تجرّها الخيول العادِية، حتّى تحفّز عشرةٌ من فرسان المَسِيّا للانقِضاض على القافِلة. صَوَّبَ (باراباس) رُمحًا حديديًّا خاصًّا إلى عجلاتِ العربةِ الأولى، فدخل بين قُضبانها، فأوقف العجلة المُسرعة بشكلٍ مُفاجِئ، أمّا العجل الّذي على الطّرفِ الآخر فتباطأ فجأةً لوقوفِ العجل الّذي يوازيه، ففقدتِ العربةُ توازُنها فسقطتْ بِمَنْ فيها وما فيها. أحدثَ سُقوطُها دويًّا عالِيًا، وثارتْ سحابةٌ كبيرةٌ من الغُبار، ورذاذ الشّعير المُتطاير والقمح المُندلِق... كانَ قائدُ العربةِ الأولى قد سقط، نهضَ بسرعةٍ ليتداركَ الموقف، صاحَ به (يهوذا): أيّها الرّومانيّ القَذِر، التفتَ ناحيةَ الصّوتِ فعاجله سَهمٌ وقعَ بينَ عينَيه واخترقَ جمجمته فسقط ميّتًا على الفور. بدأ الصّياحُ والهياجُ يعلو بينَ الجُنود. لم يرَوا أيًّا من المُهاجِمين، كانتِ العربات الأولى قد سقطَ مُعظَمها نتيجة التّدافع النّاشئ عن وقوف العربة

الأولى. أخذ باراباس ثلاثةً من الثُّوّار وتوجّهوا مُسرعين إلى آخر القافِلة، كانتْ بين أيديهم المشاعل المُغطّسة بالزّيت، أوقدوا فيها النّار، ورموا كلّ واحدة على العربات الثّلاثةِ الأخيرة، فاضرمتْ فيها النّيرانُ بسرعة... نزلَ أكثرُ الجنود مُستسلِمين، كانَ أحدُ القادة قد وقفَ وسطَ المعركة الّتي ما زالتِ النّار ناشِبةً فيها، وصاحَ وهو يخفضُ رأسه خوفًا من سهمٍ يُرديه قتيلاً: «مَنْ أنتم؟!». ردّ عليه يهوذا بصوتٍ ممتلئٍ بالكبرياء: «نحنُ فرسانُ المَسِيّا». «كائِنًا مَنْ تكون؛ أتجرؤ أن تتحدّى سلطةَ أنتيباس أيّها الأحمق». «وأتحدّى سُلطة القيصر طيباريوس أيّها المُحتلّ». ثُمّ لم يُمهله ليقولَ كلمةً أخرى، كانَ الرُّمحُ بعدَ الكلمة الأخيرة يواصِلُ سيره نحو عُنُقِ الرّومانيّ، فسقطَ وسط بركةٍ من الدّماء.

نَظّمَ العشرةُ أنفسهم، جَمَعوا الغنائمَ في عربَتَيْن، وسلبوا أسلحةَ الجُندِ، وجمعوا الأسرى في عربةٍ ثالثةٍ، وكانَ عددُهم ثلاثين جنديًّا، اقتيدوا إلى وسط الصّحراءِ بعيدًا عن الطّريق المأهولة.

- ماذا نفعل بهم؟! (سألَ يهوذا).
- فاوِضْ (أَنْتِيباس) على أرواحهم، مُقابل السّلاح أو المال أو الطّعام. (ردّ أحدُ الفُرسان).
- إنّه لو عَلِمَ بوجودهم لديك، لأحرق كُلَّ قُرى الجنوبِ ليؤدّبنا. (قال ثانٍ).
- اخرس أيُّها الجبان. (قال باراباس).
- أنا أقترح أن تقطعَ خبرهم، فيعود وجودُهم حكايةً أو خيالاً؛ لم يرهم أحد، لم يسمع بوجودهم أحدٌ، ولم يبعثهم أحدٌ إلى أيّ مكان. (قال ثالث).
- ماذا تقصد؟! (سأل يهوذا).

- اجمـعْ عليهـم مِثلَهـم مـن الحَطَـب، وصُـبّ الزّيـتَ عليهـم وأَحْرِقْهـم جميعًـا.

مـرّتْ دقائـق ثقيلـة، قبـل أنْ يرمـي (باراباس) كومـاتٍ مـن الحطـب المملـوء بالزّيـت عـلى عربتهـم، ويَقـذِف المِشـعل المُحـترِق داخلهـا.

مشـى يهـوذا في المقدّمـة، وتبعـه الفُرسـان التّسـعة، ظلّـت صرخـاتُ اسـتغاثة المحروقـين تُلهِـبُ ظهورهـم. في المسـاء اجتمعـوا في مخبئهـم في الصّحـراء؛ صـار بإمـكان المزيـد مـن الفرسـان الانضِـمام إليهـم، فسُـمعتهم الّتـي أرعبتِ المُحتلّـين، والغنائـم بـما فيهـا الخُيـول والسّـلاح مُؤهّلـةٌ لقبـول المزيـد مـن المُتطوّعـين في جماعـة (فرسـان المَسِـيَّا).

في اللّيـل رَقَصُـوا وغنّـوا وشَرِبـوا عـلى ضـوء الشّـموع، وأحـضرَ باراباس مـن (مجدلـة) عـددًا مـن الرّاقِصـاتِ الماهِـرات ليُسـلّين الفُرسـان. سـأله يهـوذا: «مَـنْ هـؤلاء؟!». «طبيبـات القلـوب» رَدّ باراباس مُقهقِهًـا. «خيرٌ لـكَ ألاّ تـأتي بهـم إلينـا ثانِيـةً». «ولِمَ لا يـا أخـي؟! أليـسَ مـن الأفضـلِ بـدلَ أن يبعـثَ بهـنَّ قَيافـا إلى أنتيبـاس وإلى فيلُبُّـس ليكسـبَ وُدّهـم أنْ نبعـثَ نحـن بهـنّ إلى أنفُسِـنا؟! أَلَسْـنَ إسرائيليّـات أيضًـا». «إنّ قَيافـا يَبيـعُ لحـم بنـاتِ شـعبه ليأمـنَ شرّ عـدوّه باسـمِ خدمـةِ الـرّبّ!!». «وهـل أنـتَ معـه في ذلـك؟!». «أنـا لسـتُ معه ولا مـع الصَّدُوقيّـين المُنافِقـين، لـو استطعتُ لأحرقتهُ هـو وبناتـه، ولعلّقتُ عِظامـه عـلى بـاب المَعبـدِ الكبـير».

اتّبـع (يهـوذا) في (فرسـان المَسِـيَّا) التّرتيـب الهرمـي في القِيـادة، كانَ هـو رأسَ الهـرم، ويـأتي مـن بعـده (باراباس)، ويظـلّ ينـزلُ الهَـرَم حتّـى القاعِـدة، وأمـرُ القائـد لا يُـردّ حتّـى ولـو خالـفَ الإجمـاع، ولا يُناقَـش فيـما يـرى إلاّ إذا طلـبَ هـو ذلـك؛ فالدّيمقراطيّـة لا مـكانَ لهـا في الثّـورة.

أعطى (يهوذا) للثّورةِ أهدافًا برّاقة، جعلتِ الكثيرين ينضمّون لها، كان أكبرِ هدفٍ خطّهُ في كِتابها: تحرير شعب إسرائيل من ظلم الرّومان واحتلالهم لبلادهم. وأنجعُ وسيلةٍ لتطبيق هذا الهدف عو الإغارة على القُرى والمُدُن لقتل الرّومان، وسَحْقِ خونة إسرائيل الّذين يقبلون مع التّعايش مع الرّومان كالصّدوقيّين.

في الصّباح، سأل يهوذا: «أسمعتَ بأمر يسوع النّاصريّ؟!». رَدَّ باراباس مُستخفًّا: «بلى، وما شأننا به». «إنّ أمره يُقلِقني». «إنّه مجرّد حالمٍ، فتىً وادِعٌ يدعو إلى تناول الطعام مع الوحوش في الغابة». «دعوته يا باراباس أخطرُ دعوةٍ يُمكن أن تمرّ على إسرائيل، أتعرفُ ماذا يقول؟!». «هه، وماذا يقول؟!». «إنّه يقول: لا تُقاوِموا الشّرّير؛ مَنْ لَطَمك على خَدّكَ الأيمن فاعْرِضْ له الآخر، وَمَنْ أرادَ أن يُحاكِمَك ليأخُذَ ثوبَك، فاتركْ له رِداءَكَ أيضًا. وَمَنْ سَخَّرَك أن تسيرَ معه ميلاً واحِدًا، فَسِرْ معه مِيلَيْن. مَنْ سألكَ فَأَعْطِه، ومَنِ استقرضَكَ فلا تُعْرِضْ عنه». «لا بُدّ أنّه جَبانٌ إلى الحدّ الّذي يطلبُ فيه مِنّا ألا نُقاوِمَ الشّرير؟! فماذا نفعل نحنُ إذًا، نُقاوِمَ الشّرّير لينعُمَ هو وأمثاله بالسّلام؛ لولا السّلاح الّذي نرفعه لتطايرت رِقابُنا تحتَ المقاصل». «إنّه ليسَ جبانًا يا باراباس؛ إنّ دعوته كما قُلتَ لك خطيرةٌ جِدًّا؛ إنّها دعوةٌ لاجتثاث جذور الحقد والكُره من النّفوس، وإذا ما تخلّصتِ النّفسُ من أحقادها عَمّ الأمن، ولم يعتدِ أحدٌ على آخر». «وهل أنتَ مُستعدٌّ لأنْ تتخلّص من الحقدِ الّذي يأكل قلبكَ يا يهوذا». «كلا يا باراباس؛ إنّني أعيشُ عليه، وأغذّيه في كلّ يوم بالذّكرى حتّى لا يموت، وهذا أكثر ما يُزعجني، لكنّني لا أستطيعُ أن أقاومه؛ إنّ مَنْ قتلوا أبي هُناكَ في القصور يأكلون ويشربون وينامون مع الفاجِرات، ويُقهقِهون، لا نامتْ لي عينٌ قبلَ أنْ أفقأ عيونَهم جميعًا». «إذًا دعْكَ من هذا الفتى ومن تعاليمه». «لا يا باراباس، يجب أن ألتقيه من جديد، وأختبره». «وهل التقيتَه سابِقًا؟!».

«بلى، عندَ صانِع الصُّلبان». «إذًا أنتَ الّذي أحرقتَ كُلّ ما صَنَعا؟!».
«بلى، لكنّ عينَيه يومَ جذبتُه من ثوبه كانت تقولانِ كلامًا لا يُفهمَ لكنّني أحسستُ به يدخل إلى قلبي، يدخل عميقًا هناك، كما لو كان ألقَى بِذرةً في تُربة». «لكنّ تربةَ قلبِكَ يا يهوذا لا تُنبِتُ غير الثّأر؛ ففيمَ المُحاولة؟!!». «إنّ لقاءَ هذا الفتى الغريب يستحقّ المحاولة، غدًا نلتقيه معًا؛ ما رأيُك؟!». «كما ترى أيّها الزّعيم... كما ترى يا أخي».

نامتْ عيون (باراباس)، أمّا عُيُونُ (يهوذا) فاسترجعتْ كُلّ صُورِ الماضي، الماضي الّذي يُلقِي على القلبِ الكئيب مزيدًا من الكآبة، «آنَ لهذا القلبِ أنْ يحترقَ ليُولَدَ من جديد»؛ همسَ بذلك في نفسه، ثُمّ راح يغطُّ في نومٍ عتيق.

(٢٥)

رأسَ الرّجاءِ أنْ تتعلّمَ كلامَ الله وتُعلّمَهُ

مَشَيا في الوَعر، صاعِدَيْن الجبال وخلفَهما بقيّة التّلاميذ الأنبياء. كان الصُّعودُ صعبًا، وكانَ المُعلّم الأوّل قد جازَ الثّمانين، لكنّه احتمل الجروف الصّخريّة الّتي واجهتهم أثناء الصّعود بهمّة شابٍّ في العشرين. الأشواك كانتْ تنتشر مثل القنافذ في كلّ مكان، الأشجار تعرّتْ من زينتها فصارتْ جرداء، كُلَّ ما كان له ساق في طريق الصّعود كان شوكيًّا، الحشرات غطّتِ الأرض، وتربّصتْ بالقادِمين من فوق الجذوع اليابِسة لتهبّ في وجوههم وتبدأ بلسعهم، تَحاشَوها، لكنّهم لم ينجحوا تمامًا وحصلوا على بعضِ اللّسعاتِ المؤلمة في السّاقَين والصّدر والذّراعَين والوجه. الزّواحف انتشرتْ في كُلِّ بُقعة وهي تزحف ببطونها بشكلها المتعرّج المُخيف، وكانتْ تَهُسُّ طَوال الوقتِ، حتّى إنّها لم تَدَعْ يحيى يسمع ما يقوله المُعلّم الأوّل تمامًا. الضِّباع كانتْ على حوافّ الجروف تتربّصُ بالصّاعدين لتنقضَّ عليهم. الأفاعي كانتْ فاغرةً فاها، لسانها يهتزّ بحثًا عن ضحيّة، ونابها يقطرُ سُمًّا استعدادًا لانتِهاشِ فريسةٍ. أحدُ التّلاميذ الّذي تأخّر به الرّكبُ في أسفل المنحدر الحادّ أعياه التّعب، كانَ العرق يتصبّبُ من وجهه، وصدره لم يكفّ عن الهبوط والصّعود بشكلٍ مستمرّ، وأنفاسه كانتْ تتقطّع، كانَ يريد أن يقول شيئًا؛ فتحَ فمه، لكنّ الكلماتِ لم تخرج من جوفه، قبضَ عليها اللُّهاث فأعادَها إلى داخل فمه، أراحَ جسده على صخرةٍ ملساء فانتشرَ فوقَها في الحال نملٌ كثيف، لم يكدْ يجلس لحظاتٍ حتّى غطّى النّمل كُلّ جسمه، وراحَ يحفر لحمه، ويدخل عميقًا إلى العَظم. صرخَ هذه المرّة: «يا مُعلّم، لا أستطيع أن أستمرّ». توقّفَ المعلّم حينَ سمع الصّوت: «احذرْ يا بُنيّ؛ فالكلمات

هي الميزان؛ الله يرفعك أو يضعك بها، كلماتنا حياتُنا. احذرْ يا بُنيّ؛ احذرْ».
صمتَ التّلميذ، وضعَ يده في فمه، وعضّها بأسنانه ليتفادَى صرخاتِ الألم الّتي يُسبّبها النّمل الّذي كان قد ملأ كلّ بوصةٍ في جسده. نَهَضَ، عَضَّ أكثر على يده، سالَ الدّم منها، هجمَ النّملُ على الدّم، ترنّح، فتح فمه لصرخةٍ أخيرة، لم تُسعِفْه الصّرخة، سقط، ظلّ يتدحرج، حتّى استقرّ في القاع، كان قد وصل إلى هناكَ أشلاء. لم يُعرَفْ له رأسٌ من رِجْل. تابعَ البقيّةُ صُعودَهم وهم يبكون بصمتْ. قال المُعلّم: لقد تخلّصَ من خطاياه؛ وقَرّبَ المسافةَ بينه وبينَ السّماء!!

حينَ وصلوا إلى القِمّة، كانوا قد انتُقِصوا، لم يصلْ أيٌّ منهم سليمًا. ولم يسلم من ذلك لا المعلّم الأوّل ولا يحيى. جلسوا في حلقةٍ دائريّة وقد أنهكهم التّعب، وأكلتِ الهوامّ من كُلِّ واحدٍ منهم شيئًا، قال المُعلّم: كُلُّ ما رأيتم في هذه الطّريق القاتِلة هو شيءٌ بسيط من رحلتكم إلى الخُلود؛ انظروا إلى أجسادكم، تلمّسوا أياديكم وأرجلكم وأعيُنكم، إنّها ما تزال هناك!! الوُصُول إلى الله يحتاجُ أنْ تتخلَّوا عن كلّ هذه الجوارح له. أن تموتوا لتَحيَوا.

سأل المُعلّم يحيى: «وكيفَ ترى النّهاية اللائقة بِقِدّيس؟!». «أن تتناهشَه السّباع في البريّة فيُصبِحَ كُلُّ عضوٍ منه في بطنِ وَحشٍ مِنَ الوحوش، فيجمعه الله يومَ القِيامةِ من بُطونها، فيُنزِله المنزلةَ الّتي تليق». «وأنتَ؟!». «لو حَظِيتُ بنهايةٍ مثلِ هذه لكنتُ ذا حظٍّ عظيمٍ». «إنْ كنتَ صادِقًا فلن يطول بكَ الزّمن حتّى تنالَها».

كانَ الجوعُ والعطش قد بَلَغَا بهم مبلغًا عظيمًا، خفتتْ أصواتُهم إلاّ صوتَ معلّمهم، وهمدتْ حركاتُهم، وسَهَمتْ نَظَراتُهم، وراحوا يسمعون ولا يَرون. يحيى تيبّستْ شفاهه من العطش، قال له المعلّم: «الماء موجود، ولو أردتَ أعطيتُكَ، ولكنّه عقبةٌ في الطّريق. ولكَ الخَيار». «لنْ أشربَ حتّى

تشرب». «ولن أشربَ أنا حتّى تقول». «وماذا أقول». «علّمكَ اللهُ الحِكمةَ وقذفها في قلبِكَ فعلّمْني». «أأعلّمكَ وأنتَ المُعلِّمُ الأوّل». «أعطاكَ اللهُ ما لم يُعطِني». لقد علمتُ أنَّ رأسَ الرّجاءِ أنْ تتعلّمَ كلامَ اللهِ وتُعلِّمَهُ؛ فَسَلْ يا سيّدي».

- فما رأسُ المروءة؟!
- رأسُ المروءةِ ألاّ تأخُذَ ما ليسَ لكَ حتّى لو اشتهيتَه.
- فما رأسُ النّقاء؟!
- رأسُ النّقاءِ أنْ تُنَزِّهَ نفسَك؛ فما أحدٌ يُطالِبكَ بذنبِه.
- فما رأسُ الفضائل؟!
- رأسُ الفضائل أن تنتصرَ على نفسِكَ، فكلُّ معركةٍ غير معركةِ النّفس لَعِب، والانتِصار فيها موهوم.
- قد صدقتَ، فهلْ ستُحِدِّثُ بهذه الحِكَم غيرَنا، أمْ أنّها تعاليمنا الّتي ستبقَى سِرَّنا الخاصّ بنا يتناقلَها مَنْ دخلَ مدرستَنا؟!
- قدْ حَذَرْتني من قبلُ؛ ويلٌ لِمَنْ يقولون ولا يَعملون، ولِمَنْ يعملون عَكسَ ما يَقولون، ولِمَنْ يُبطِنونَ عكسَ ما يُظهِرون. فأنّى لي أنْ أكتُمَ علمًا لم يكنْ باجتِهادي؛ إنّما كانَ بنعمةٍ من الله وفَضلٍ.
- قد بلغتَ أعلى مراتب الحِكمة، فدعْ نَهرَكَ يفيضُ بالخير على كُلِّ مَن يمرّ به في طريقه؛ تالله لقد آثركَ الله علينا!!

وقفَ المُعَلِّمُ فوقفوا جميعًا، قال لهم: أترونَ هذا الجبل الشّائك المُخيف، وما مرّ بنا مِنه؛ إنّه صورةٌ للدُّنيا، وإنْ كانتِ الدُّنيا أوحشَ من ذلك، والطّريق فيها أصعبَ مِمّا رأيتُم؛ أَفَسَمِعتُم هذا الّذي قالَه يحيى؛ إنّه

وسيلةُ النّجاة؛ كلماتُ الله. أترونَ تلكَ السّماء؛ إنّها الآخرة، والكلامُ هو الّذي يفصِلُ بين الدُّنيا والآخرة، بينَ الدّربِ الوعرة الشّائكة، وبينَ السّماء العالية الصّافية. فإنْ كانَ الكلامُ بنورٍ من الله صعدتُم إلى السّماء، وإنْ كان بِخَبثٍ من الشّيطان هبطتُمْ إلى الوادي!!

ثُمَّ تابَعوا السّير، فهبطوا النّاحيةَ الأخرى من الجبل، ثُمّ أدركهمُ اللّيل في الوادي فنامُوا. قال لهم المُعلِّمُ قبلَ أن يخلُدُوا للنّوم: «مَنْ كان بلا ذنبٍ فلنْ يسمعَ من أصواتِ الوحوشِ شيئًا». «وَمَنْ مِنّا بلا ذنب؟!». سأله يحيَى. «لَنْ أجيبَك؛ الوحوش أدرَى مِنّي بالجَواب؛ وعَلَى قَدْرِ أصواتِها يكون الذّنب؛ فكلّما علتْ عَظُمَ».

لَمْ يَنَمْ أحدٌ في تلكَ اللّيلة، بعضُ التّلاميذ وصلتْ إلى أسماعهم هَسهساتٌ، وبعضُهم أصواتٌ مرعبةٌ شديدةُ الوضوح، وآخرون تصارعتِ الأصواتُ وتلاطَمَتْ في عقولهم حتّى إنّهم لم يستطيعوا أَنْ يُغمِضوا أعيُنَهم ولو للحظة. جاءهم صوتٌ مِنَ الغيب في الهزيع الأخير من اللّيل: لولا ذُنُوبُكم ما عرفتُمْ رحمتي؛ غيرَ أنّي أغفرها جميعًا. ثُمّ إنّهم طافتْ بِهم سِنَةٌ من النّوم بعد أن سَمِعوا هذه العبارة.

أيقظَهم المُعلِّمُ الأوّل في منتصفِ اللّيل بِعصاه يضربُ بها جُنُوبَهم: قوموا؛ أمامكم ليلٌ طويلٌ أشدُّ ظُلمةً من هذا الّذي فيه تَهجَعون، أتنامون كأنّكم آمِنون!! مَنْ يَأمنِ الدُّنيا يَكُنِ الشّيطانِ في قلبه، أَسَرَّكُمْ أنّ الشّيطانَ يتربّع على قُلُوبكم الآن!! قُوموا أيّها الخاسِرون إنْ لم تتداركوا خَسارَتكم أضعتُمْ كُلّ ما عَمِلتُم». قامُوا فَزِعين كأنّ لهيبَ جهنّم في أطرافهم. هَبُّوا واقِفين على أرجلهم كأنّ حِرابًا من نارٍ غرزتْ ألسِنَتَها في جُنُوبِهم.

سارَ أمامهم المُعلِّم، فساروا خلفَه في خُشُوع، كانَ هُدُوءِ اللّيلِ

قاتِلاً. كُلُّ شيءٍ كانَ قد سَكَن، أحسُّوا أنّ الدُّنيا أجمعها تغوصُ في نوم عميق، وقلوبُهم وحدها المُستيقِظة؛ فرِحوا بذلك؛ شعروا بالتّفرّد، فسقطَ فرحهم أوّل ما أحسُّوا أنّهم تميّزوا عن سِواهم، «بالاتّضاع نرتفع» قال المُعلِّمُ الّذي يسير في المُقدّمة. «المُتواضِعُ ماءٌ مُنتشِر» أردفَ يحيى الّذي يسير خلفه مُباشَرة. فَهِمَ المُعلِّمُ الحكمة فسجد، فسجدَ من خَلفِه كُلّ التّلاميذ، قال يحيى في السّجود: «التّقيّ عينُ ماءٍ صافِية». رفعوا رؤوسهم بعدَ طول سجود، ومَضَوا من جديد.

توقّفَ المُعلّم الّذي يسير أمامهم فجأة، ودونَ أنْ يلتفتَ إلى الخلف أشارَ لهم رافِعًا يده فتوقّفوا كأنّهم حجارةٌ من حجارةِ الوادي، كان هديرُ البحر يَصِلُ إلى مَسامِعهم واضِحًا، صاروا على مسافةٍ قريبةٍ منه، جلسَ المُعلِّمُ على صخرةٍ فجلسوا على هيئته، بَدَوا طُيورًا سماويّة تأتلفُ في خطّ يشكّل نصفَ دائرة. صمتوا. حتّى دقّات قلوبهم لم تعدْ مسموعة، وحده هديرُ البحر كان يصنع موسيقَى اللّيل الهائم.

قال المُعلّم بصوتٍ رَخيم، دون أن يُدير وجهه باتجاههم: «البحر صورةُ الحياة، هديرهُ صَخَبُها، مُظلِمٌ مثلها، وهائجٌ كذلك. وضفّتاه هما الأولى والآخرة، ولا يُمكن أن تبلغَ الآخرةَ ما لَمْ تمخُرْ عُبابه، وإذا نظرتَ وأنتَ فيه إلى مُرجانه وخلبَ بَصَرَكَ لُؤلُؤه وتأخّرتَ في عُبُوره أكلتْكَ الحيتان، فكُنْ على عَجَلٍ فإنّ العُبُورَ ليسَ اختِيارًا، وإنّ الانشغال بكنوزه قاتلٌ، أفرأيتُمْ عابِرًا بينَ ضِفّتين يتباطأ والنّار تحته تشتعل!!». ثُمّ صَمَت، فسمعوا هدير البحر يعلو من جديد كأنّه يقول لهم بصوتٍ واثق: صدق!!

ثُمّ وقفَ فوقفوا، ثُمّ صعدَ جبلاً آخرَ فتبعوه، ثُمّ إنّهم سَمِعوه يقول لهم: «لا راحةَ لمُرتحِل». ثُمّ إنّهم لَحِقُوا خلفَه فما عَبِئَ بلُهاثهم، وظلّ يمشي حتّى بدأ يهبطُ القمّ، فلمّا صاروا في منتصف المسافةِ بين الوادي

والسّفح، أشارَ بيده، فوقفوا، ثُمّ إنّهم أشار أخرى فارتموا جُثثًا هامِدة، على تُرابِ الأرض، ولم يلحقْ أحدٌ منهم أن يُمَهِّدَ ما خالطَ هذا التّرابَ من شوكٍ وحجر. فناموا ما شاءَ لهمُ ما تبقّى من اللّيل أنْ يناموا.

في الفجر أيقظَهم، هُرِعوا إلى النّهر الّذي يسيل في بَطنِ الوادي، استحَمُّوا فيه جميعًا، قالوا وهم يَصعدُون من النّهر: مُتْنا فَأحيانا. هل المَوْتةُ الآخِرةُ تُشبه هذه؟! قال الصّوت: لو كانتْ تُشبه هذه لكانَ الأمرُ سهلاً؛ إنّما هِيَ نزعةٌ وسكرةٌ لم ينجُ منها أحدٌ مهما كانتْ مَرتبتهُ عند الله.

اصطفّوا في صَفٍّ واحدٍ خلفَ المُعلّم الأوّل؛ صلّى بهم صلاةَ الفجر؛ صلاةَ الحياة. حفّتْ بهم أشجارُ الرّحمة لِتَقِيهم بردَ الذُّنوب. بدا أنّ الطّريقَ طويلةٌ جِدًّا. نَزَعَتْ نَفْسُ أحدِ التّلاميذ إلى اليأس، حدّث نفسَه: «إذا كانتِ الطّريق إلى الآخرة طويلةٌ إلى هذا الحَدّ، ومُرعِبةٌ إلى هذه الدّرجة، فَلِمَ العمل؟!». ضَحِكَ الشّيطان؛ لقد استطاع أن يتسربّ إلى عقله. قال المُعلّم: «إنّ ساعةً واحدةً في مَلَكوتِ الله فيها مِنَ الهَناءةِ ما يُنسي كُلَّ عذابات الدُّنيا. وإنّ موضعَ قدم أحدنا في ذلك الملكوت يعدلُ الأرضَ وما عليها مِئةَ مرّة، وإنّ اللّحاقَ بالآخرة لَهُوَ أسرَعُ من وَميضِ البرق في اللّيلة الحالِكة؛ ففيمَ الخَوَر!!».

نهضنا، عُدْنا أدراجنا إلى مدرستنا، كان ذلك صباحَ الأحد، المسافة الّتي أخذتْ منّا يومًا وليلةً لم تأخذ منّا إلاّ سُويعاتٍ معدودةً في إيابِنا!!

(٢٦)

أنا أقتلُ كُلَّ مَنْ تلوّثَتْ يدُه بالصّليب

دَخَلا الدَّيْر، كانَ رئيسُ الدّير يستقبلُ الخاطِئين والعابِدين معًا، الدَّيرُ بيتُ الله، ولا أحدَ يرُدُّ ضيُوفه، بدا (باراباس) مُتهتّكًا، يقطع أغصان الأشجار بيده ويُلقيها بعيدًا، يقطفُ شيئًا من الثّمار فينهشُ منه نهشةً ثُمّ يسحقها تحتَ قدَمَيه، قال وهو يزدردُ لقمةٍ من إحدى الثّمار: «بيتُ الرّبّ مليءٌ بالطّعام». وقهقَه. نَهَره (يَهوذا) الّذي بدا عليه شيءٌ من الوقار، وإنْ كان بركانٌ من الغضبِ يعتملُ في أعماقه ولا يحتاج إلاّ لِعَثْرَةٍ صغيرةٍ من أجلِ أنْ يَفور.

قال لهم رئيس الدّير الّذي بدا قصيرًا سمينًا، يكاد يضيقُ به ثوبُ الرُّهبان الّذي عادةً ما يكون واسِعًا: مِنْ هنا، إنّه يَعِظُ في مجموعةٍ من الخُطاة. تبادلا نظرةَ استِهزاء، وتَبِعَا رئيس الدّير الّذي راحَ يتهادَى أمامهما، حتّى وصلَ إلى بابٍ حديديٍّ سميك، يُفتَح على قاعةِ المواعظ في الدّير، تنحّى عن طريقهما مادًّا يديه مُشيرًا إلى يسوع النّاصريّ - كما دأبوا على تسميتي لم يجِدْ (يهوذا) جُهدًا كبيرًا في التّعرّف إليّ، تَخَطَّيا الجمع الصّغير، حتّى صارا على مقربةٍ منّي، أشرتُ لهما بالجلوس، فهزّا كَتِفَيهما إشارةً للرّفض. قال يهوذا: «أتدعو إلى الخلاص وتصنع الصُّلبان؟!!». «لم أصنعها. كان يوسف يفعل، وكفّ بعدَ ذلك اليوم». «أنا أقتلُ كُلَّ مَنْ تلوّثَتْ يدُه بالصّليب». سحبَ خنجرًا من جانبه، فهاجَ الجمع الصّغير الّذي يقبع تحتَ أرجُلِنا، فأشهر (باراباس) سيفه مُحذّرًا من الإتيان بأيّ حركةٍ، وأشرتُ لهم أنا: أنِ اجْلِسوا. فامتثلوا. لمعَ الخنجرُ على ضوء الشّمسِ الغارِبة المُتسلّلة من

النّافـذة العلويّـة، حرّكـه يهـوذا في حركـةٍ دائريّـة، واقـتربَ أكثـرَ منّـي صـارتْ لحيتُـهُ الحمـراء تعانـقُ كتفـي، وأنفاسـه تلفـحُ وجهـي، كشـفتُ لـه عـن ظهـري، ومـددتُ لـه عنقـي ووضعتـهُ بـينَ يديـه: هـا أنـذا أُسـلّمكَ عُنُقـي. جفـل يهـوذا مـن رَدّة فعلـي، وضيَّـقَ عينيـه، وكادَ ينفجـر غضبًـا في داخلـه. ضحـك باراباس، وهتـف: «إنّـه يسـلّمك عُنقَـه للذّبـح فـماذا تنتظـر؟! «هَيّـا افعلهـا يـا يَهـوذا، أسْرِعْ إنْ كُنـتَ تسـتطيع». «أسـتطيع يـا يسـوع أسـتطيع، أتتحـدّاني؟!». «كلاّ أنـا لا أتحدّى أحـدًا؛ ولكـنْ كلّ شيءٍ في هـذا الكـونِ يسـير بِقَـدَرٍ». «وتُسـلِّمني عُنُقَـك بهـذه السّـهولة؟!!». «ليسَ لـكَ أو لي مِـنَ الأمـرِ شيءٌ». تراجـعَ يهـوذا إلى الـوراء حتّـى صـار بمحـاذاة (باراباس) الّـذي كان يرقـب المشـهد، ومـال عـلى جانبه الأيسر وهمس في أذنه: «إنّـه أمرٌ مُحيّر يا باراباس؛ ما الّذي يفعلـه هـذا الرّجـل!! انظـر في وجهـه جيّـدًا إنّـه ليـسَ جبانًـا، ولا خَـوّارًا، ولا ضعيفًـا، إنّـه رجـلٌ يفيـضُ حيويّـة وإيمانًـا، وهـذا مـا يُحيّرني يـا باراباس، أمعقـول بالفعـل أن يكـون هـو المَسِـيّا المُنتظَـر؟! إنْ كان كذلـك، فنحـنُ كلّنـا لا نرتقي أنْ نكـونَ عبيدًا يتفرّغـون لغسـل قَدَمَيه». ردّ باراباس: «ضـع حَرْبتـك في عنقـه، والحربـةُ تُخبِرك إنْ كانَ هُـوَ أم لا؟!». «إنّ الحربـةَ تُخبرني أنّـه المَسِـيَّا، أكادُ أسـمعها يـا باراباس؛ أكادُ أسـمعها بالفعـل، إنّنـي عـلى حافّـة الجُنـون. دَعنـا نتريّـث لنتحقّـق مـن أمـر هـذا الفتـى. يـا يسـوع أأنـتَ الّـذي تقـول: أَحْبِـبْ قريبَـكَ وأبغِـضْ عـدوَّك؛ كيـفَ يكـون ذلـك والعـدوّ يذبحنـا ويذبـحُ أهلنـا صبـاح مسـاء؟!!». «كلاّ يـا يهـوذا أنـا لا أقـول ذلـك، هـذا يقوله عامّـةُ النّـاس، «ولكنّـي أقـولُ لكـمْ أيّهـا السّـامِعون: أَحِبُّـوا أعداءَكـم، أَحْسِـنوا إلى مُبغِضيكُـم، بارِكـوا لاعِنيكـم، وَصَلُّـوا لأجـل الّذيـن يُسـيئون إليكـم». «ولكـنْ هـذا مـا لا نطيقـه يـا يسـوع». «أتريـدُ أن تنجـو يـومَ الدّينونـة دونَ مُقابِـل». «وأبي الّـذي ذهـبَ في لمحـةِ عـينٍ». «لا تـدع الحقـد يُعمـي بصيرتـك». «سـيفي يفتـحُ بصـيرتي ويـردّ لي حَقّـي». « الَّذِيـنَ يَأْخُـذُونَ السَّـيْفَ بِالسَّـيْفِ يَهْلِكُـونَ». «دعوتُـكَ لا تُناسِـبني». «إنّ الشّـيطانَ

يَجري في دمك، وأنا أريدُ لكَ أن تعودَ طاهِرًا؛ لو اتّبعتَني لعرفتَ الحقّ». «أنا لا أتّبع مَنْ يَبيعُ دمي». «دَمٌ سال في سبيل الحقّ لا يضيعُ عند الله». «أنتَ مُراوِغ». «الحَقَّ أقول لك، وإنّما أرسلني الرّبُّ لتعرفوه بي». «الرّبّ لا يحتاجُ مثلكَ لنعرفه». هَيّا بِنا يا باراباس.

خَرَجا، سأله (باراباس) وهُما يَعبُران الغرفة إلى بابها الحديديّ: أغمِدْ حربتَكَ فيه يا يهوذا؛ فإنْ كانَ المَسِيَّا المُنتظَر فستنبعجُ الحربة كأنّها عجينة إذا مسّتْ جسده الطّريّ». «مَنْ قال لكَ ذلك أيّها المُغفّل؟!». «الأنبياء لا يُقتَلون». «الأنبياء يُقتلون أيّها الأحمق ولكنّهم لا يموتون». «لم أفهم يا أخي». «إذا قُتِلَ على أيدينا ضاعتْ مِنّا فُرصةِ خلاصِ شعبِ إسرائيل». «هل تأكّدْتَ إذًا أنّه المَسِيَّا المُنتَظَر؟». «كلاّ. ما زالَ الوقتُ مُبكِّرًا لأعرف».

كانَ الهضبةُ الّتي يقعُ الدَّيرُ أعلاها مُنبسطةً، وتنتشر فيها صخورٌ صغيرةٌ مبعثرة على امتدادها، كانَتِ الأزهار البريّة تملأ المساحات الخضراء بينَ تلك الصّخور، بعضُ الأزهار عَلا بعدَ موسم ماطر حتّى وصل إلى وسط السّائر بينها، لَفَحها هواءٌ باردٌ أوّلَ ما خَرَجا، كانتِ الحربةُ لا تزالُ في يد يهوذا عندما عثرتْ رجله بحجرٍ أخفتْه الأعشاب، فسقط، نشبتِ الحربةُ في جانبه، فغاصتْ في لحمه قليلاً، خفّف من أن تَغوصَ بعيدًا حِزامٌ جلديّ كان يَتمنطَقُ به، كَظّ على أسنانه من الألم، وكتمَ صيحةً كادتْ تنفجرُ من أعماقه. أسرعَ إليه (باراباس)، أنهضه، وأمسكَ بالحربة؛ كانتْ تقطُرُ دمًا. مَزّقَ طرفَ ردائه وربطَ موضع الجرح، ثُمّ ركبا حِصانَيهما وانطلقا إلى مَخبئِهما وسطَ الصّحراء.

في الطّريق والفَرَسان تعدُوان بهما، قال (باراباس) ليهوذا: «كيفَ حدثَ ذلك؟!». «سقطتُ، هذا كُلّ ما في الأمر». «كلاّ؛ الأمر ليس بهذه

السّهولة؛ إنّها إشارة». «أيُّ إشارة أيّها العبقريّ؟!». «هذا الرّجل ساحِر، لقد سحركَ حينَ كلّمكَ، وألقى بكلماته في جوفك». «السّحر لا يجري عليّ يا مُتفذلِك». «فلم ظلّتِ الحربةُ في يدكَ إذًا، ولم تُعِدها إلى غِمدها». «لقد نسيتُها في يدي». «كلا؛ هو الّذي جعلكَ تنساها». «خيرٌ لكَ من أن تقول مثل هذا الكلام السّاذج، أن تمرّ بنا على واحةٍ نرتاحُ فيها قليلاً، ونبحثُ عن طبيبٍ يُخفّف النّزيف، ويُنظّف الجرح؛ لأنّني لم أعُدْ أحتملُ مزيدًا من هُرائِك».

رافقَ الجُرحُ (يهوذا) شهرًا كاملاً حتّى بَرِئ!!

(٢٧)

جسدُ الإنسان يُحبُّ الخطيئةَ كما يُحبُّ المحَمومُ الماءَ

مَضَى (باراباس) في أسلوبه الحياتيّ الخاصّ؛ يقطعُ الطّريق، وينهبُ القوافل، ويقتل العابرين، ويسلبُ أموالهم، ويأكُلُ ويشرب، ويُعربِد، باسم (فُرسانِ المَسِيًّا)؛ أتاحَ لهُ مِيثاقها أن يفعل ذلك، فكُلَّما نَهرهُ أحدُ الفُرسانِ الشُّرفاء، فصرخَ في وجهه:

- إنّني أعملُ على تحرير شعبِ إسرائيل، ولم أكُنْ أدري أنّ الله بعثكَ رؤوفًا رحيمًا بهؤلاء السّفّاكي، أنسيتَ ماذا فعلوا بنا؟!
- لَمْ أنسَ، ولكنّنا لا نقتل إلاّ مَنْ يحمل السّلاح، أمّا أنتَ فلا أراكَ تعدو إلاّ على الضّعفاءِ والنّساء!! أهذا هو مِيثاق الشّرف الّذي قطعناه على أنفسنا؟!
- إنْ لم تَصْمِتْ أيُّها القِدّيس؛ لأُلحِقَنّ رأسكَ برؤوسهم.

دخلَ عليهما يهوذا فجأةً فوجدهما يصرُخان، فجذبَ (باراباس) من كَتِفه وكان ضَخمًا، لكنّه لا يستطيع أن يرفعَ عينَيه في يهوذا فهو أعلى رُتبةً منه، قال له: أعرفُ أنّكَ سببُ هذا الهِياج كُلِّه يا باراباس؛ وأنتَ تعلم أنّه لا وقتَ لدينا لإضاعته في الجِدال، علينا أنْ نعمل بِجِدٍّ أكثر. ما زال أمر يسوع النّاصريّ يؤرّقني، يجب أنْ أراه من جديد؛ هل ما زال يَعِظُ في الدّير على عادته؟!». «لم يمكث بعدنا في الدير إلاّ أيّامًا قلائل؛ هو كما علمتُ من أحدِ الّذين يرافقونه، لا يمكثُ في المكانِ الواحِدِ إلاّ ريثما يتحوّل عنه».

«فأيـنَ هُـوَ الآن؟!». «لا أدري، دعنـا نبحـثْ بأنفسِـنا إذا كُنـتَ مُـصِرًّا».

رَكِبَـا فَرَسَـيْهِما، توجّهـا مـن الصّحـراء إلى النّـاصرة، قيـل لهـم لعلّكـم تجدونـه هنالـك، اهتـدَوا إلى بيـتِ جدّه عِمـران، بـرزتْ لهـم مريـم عنـد البـاب، كانـتْ تُغطّي رأسَـها بشـالٍ أبيـض، كانـتْ قَسَـمات وجههـا هادِئـةً تمامًـا، وعيناهـا تُشِـعّان نـورًا. سـألها يهـوذا: نريـدُ يسـوع يـا أُمّـاه. «وَمَـنْ أنتُـما؟!». «نحـن نبحـثُ عنـه ليَعِظَنـا». «لم يعـدْ يبيـتُ في البيـتِ كثيرًا، لعلّكـم تجدونـه في جبـالِ الجليـل». إنّهـا واسِـعةٌ يـا أُمّـاه، فعـلى أيّهـا يكـون؟!». «إنْ نويتـما أن تَجِـداه فلـن تَتْعَبـا في ذلـك؛ كونَـا صادِقَـينْ فحسـبُ، القلـبُ بوصلـةُ الصّـادق». «شـكرًا يـا أُمّـاه». نظـر يهـوذا إلى بارابـاس وهمـا يُحـوّلان وجهـةَ فرَسَـيهما: «لا بُـدّ أنّهـا هِـيَ الّتـي علّمتْـهُ الحِكمـة» قـال يَهـوذا. «النّسـاء لا تُعلّـمُ شـيئًا» ردّ باراباس. «اصمِـتْ أيّهـا الشّـقيّ؛ أنـا أبحـثُ عـن إجابـاتٍ لأسـئلتي، وعـن شُركَاء لقلقـي؛ وأنـتَ تقابـلُ الأمـر بهـذا التّهتُّـك؛ لـولا أنّنـا شريكـانِ في المحنـة لتركتُـكَ وحـدك». «أمِـنْ أجـلِ امـرأةٍ تغضـبُ مِنّـي يـا يهـوذا». «إنّهـا ليسـتْ أيّ امـرأة، إنْ صدقـتْ ظنـوني فإنّهـا خـيرُ امـرأةٍ تـدبُّ عـلى وجـه الأرض أجمعهـا». «جُنِنْـتَ». «أعـترفُ أنّ قلبـي عليـه بعـضَ الغِشـاوة؛ لكنّنـي مُتأكّـدٌ أنّـكَ بـلا قلـبٍ يـا بارابـاس». «القلـبُ الّـذي يتغـيّر لمجـرّد كلمـةٍ مـن امـرأة سـأنزعه مـن صـدري». «أنـتَ حجـرٌ يـا أخـي». «للحجـارةِ قلـوبٌ، لكنّهـا ليسـتْ ضعيفـة».

قَضَيـا نهـارًا كامِـلاً، يبحثـان عـنْ يَسـوع، حتّـى إذا أنهكهـما طـولُ البحـث، هتـفَ باراباس بيهـوذا: «أَمِـنْ أجـلِ أوهـامٍ سـيّرْتَنا كُلَّ هـذه الـدّروب الوعـرة». «ليسـتْ أوهـام» ردّ يهـوذا بحـزم. «إنّهـا بالنّسـبةِ لي أوهـام، ولسـتُ مُضطـرًّا لأنْ أُجاريـكَ فيهـا». «بالفعـل لسـتَ مُضطـرًّا، عُـد مـن لحظتـك إلى جُحـرِك». «لـولا أنّـكَ رئيـسُ الأخويّـة لتركتُـكَ مـن زمـنٍ».

كانـا كُلّـما مَشَـيا طريقًـا، توقّفـا بُرهـةً فناديـا في الجبـل: يـا يَسـوع...

ويـتردّد صـدى الكلمـة في الـوادي، لكنّـه لا يَجِـدُ مُجيبًـا. هَتَفـا باسـم يسـوع عـشراتِ المـرّات طَـوال نَهـارٍ كامِـل، فلـم يَكُـنْ لِيُجيبَهـم إلاّ الصّـدى. فلـمّا هَمّـا بالرّجـوع في نهايـة المَطـاف، ولَوَيـا عُنُـقَ فَرَسَـيْهما ألفيـاني واقِفًـا أمامهـما. جَفِـلا. خُيّـل إليهـما أنّني هبطـتُ مـن السّـماءِ فجـأةً. صـاحَ (باراباس) صيحـةَ خـوف، تبسَّـمْتُ في وجهـه، قلـتُ لـه: «أقَتّـالٌ وخَـوّاف؟!». «أنـا لا أخـاف» ردّ باراباس رافعًـا صـدره لأعـلى، ومُرجعًـا رأسـه إلى الـوراء قليـلاً. «الحـقّ أقـول لـك: مَـنْ يـزرعِ الخـوفَ في قلـوبِ النّـاسِ لا يَجْـنِ إلاّ الخـوف». نـزلَ يهـوذا مـن فـوره عـن فرسـه ثُـمّ اعْتنقَـني. قلـتُ لـه: «جِئـتَ لتتعلّـم، لَيْـسَ التِّلْمِيـذُ أَفْضَـلَ مِـنَ المُعَلِّـمِ فتحـلَّ بسـماتِ التّلميـذ تكُـنْ مثـلَ المُعلِّـم». «يـا يَسـوع، لقـد طُفْـتُ الجبـال، وقطعـتُ المفـاوز، وذرعـتُ الصّحـارَى، وقتلـتُ أخـذًا بثـأرِ أبي، لكـنّ ذلـك الّـذي في قلبـي لم يهـدَأ؛ فكيـفَ أقـرّ؛ إنّـني لا أسـتطيعُ النّـومَ في اللّيـل». «يـا أخـي إنّـكَ أهلكـتَ أجسـادَهم لكنّهـم أهلكـوا نَفْسَـكَ». «لا تمُـرُّ ليلـةٌ إلاّ وتظهـر لي فيهـا». «وكيـفَ تـراني؟!». «تبتسـمُ في وجهـي، وترحـل، أتبعـك، أتبـعُ أثـر النّـور الّـذي ظلّ بعـدَ رحيلـك، لكنّـني لا أعثـرُ عـلى أثَـرٍ، قُـلْ لي مَـنْ أنـتَ يـا يسـوع؛ أريـدُ أن أسـمع، لا تبتسـمْ في وجهـي وترحـل مثلـما تفعـل دائـمًا، هـا أنـتَ أمامـي، لا ترحـل قبـلَ أنْ تُجيبنـي؟!». كانَ باراباس يُتابـع تقلُّصـات وجـه يهـوذا وصوتـه المكسـور باستِغراب، رأى وجهًـا آخـر لم يعهـدْه في يهـوذا، كان يحمله عـلى فرسـه وينطلـق بـه قبـل أنْ يسـتفحل الأمـر، فقـد أحـسَّ أنّـه بعـدَ قليـلٍ سيجثو عـلى قدَمَيـه أمـام يسـوع. «الحـقّ أنّـني أنـا أيضًـا أبحـثُ مثلـكَ عـن شيءٍ يقـرّ بـه فـؤادي، يعترينـي مـا يعتريـكَ يـا يَهـوذا، لكنّـني بـلا خَطيئـة». «قُـلْ لي مَـنْ أنـتَ يـا يسـوع حتّـى الآنَ لم تُجِـبْ عـن سـؤالي». «لماذا لا تسـأل نفسـكَ أنـتَ أيضًـا هـذا السّـؤال؟! فـلا يهُمُّـكَ مَـنْ أكـونُ أنـا لـك، المُهِـمّ مـاذا تكـونُ أنـتَ لِنَفْسِـك». «أنـا خاطِـئ؛ غـارقٌ في خطيئتـي، لكـنّ خطيئتـي ليسـتْ بـلا سـبب؛ إنّني أقتـلُ قتَلَـةَ أبي». «يـا يهـوذا، الحـقّ أقـولُ لكـم: لا تُجـازُوا شَرًّا بِشَرٍّ؛

لأنّ ذلك ما تفعله شَرُّ الحَيَوانات كُلِّها، ولكنْ جازوا الشّرَّ بالخير وصَلُّوا لله لأجلِ الّذين يُبغِضونكم». «إنّك يا يسوع تطلبُ ما لا يُطاق». «النّارُ لا تُطفأُ بالنّار بل بالماء؛ لذلك أقول لكم: لا تَغلِبوا الشَّرَّ بالشَّرِّ بل بالخير». «إنّ جسدي لا يحتمل النّوم كُلّما ظهر لي أبي في المنام». «إنّه ليسَ أباك؛ إنّه الشّيطان في صورةِ أبيك؛ جسدُ الإنسانِ يُحِبُّ الخطيئةَ كما يُحبُّ المحمومُ الماءَ». «ليت لي قلبَك». «لو أردتَ لكانَ؛ إنّكم لراغِبونَ في أثْمارِ الحقلِ ولكنّكم لا ترغبونَ في حِراثة الأرض».

يا باراباس دَعْني أنا ويسوع وحدنا، اذهبْ من هنا أريدُ أنْ أقولَ كلامًا بيني وبينه. هتفَ باراباس لنفسه: كنتُ أنظرُ هذه اللّحظة، فهذا خيرٌ من الاستماع لحماقاتهما. لَوَى عِنان فرسه، وانطلق. صاحَ به يهوذا: «لا تبتعدْ كثيرًا». «أترى هذه الشّمس الحمراء بعد أن تصبغَ لونها على صفحة السّماء سآتيك؛ اتّفقنا؟!». «اتّفقنا».

اقتربَ يهوذا من يسوع أكثر، كان قلبُه قد بدأ يخفقُ بالحُبّ. الحواجز الكثيفة من الجفاء يُمكن أن تزول بلمسةٍ حانية. لفّ كَتِف يسوع بيُمناه، وأمال رأسه جهةَ أذنه، وهمسَ فيها بدفءٍ: «أريدُ أنْ أضعَ حدًّا للأخبار الّتي تصلني يا سيّدي». «لا تُصدِّقْ كُلَّ شيءٍ؛ الشّيطانُ مُدرَّبٌ على نقل الأخبار الكاذِبة». «أصحيحٌ أنّ الحجرَ يصيرُ في يديكَ وردة!! أصحيحٌ أنّ الميّتَ على يديكَ يقومُ من قَبْرِه!! أصحيحٌ أنّ الأرضَ الجرداء تُزهِرُ حينَ تبتسمُ في وجهها». «ما عملتُ شيئًا إلاّ بقدر الله». «يقولون إنّكَ ساحِر». «لستُ أوّلَ مَنْ قيلَ له هذا». «يقولون إنّكَ مجنونٌ». «قالوا ذلك لكلّ مَنْ سبقوني». «يقولون إنّك تُصابُ بالإغماء كُلّما رأيتَ مِسْكينًا». «إنّها الرّحمةُ يا يهوذا». «فلماذا لا يرقُّ قلبُكَ لشعبِ إسرائيل الّذي يُضطَهَدُ في كُلّ مكان؟!». «إنّما جِئتُ لأخلّصه من عذاباته». «فلماذا لم يُخلّصه الله من هذه

العذابات». «إنّه يشتري بها ويبيع، ويجترئ بها على الله». «فإلى متى». «حتّى يُحبّ الله حَقًّا؛ مَنْ يُحِبَّ اللهَ كانَ اللهُ لـه، ومَنْ كانَ الله لـه كانَ لـه كُلُّ شيءٍ».

نظر (يهوذا) بعيدًا في عينَي يسوع على ضوء آخر خيوطِ الشّمس، كانتا تَبْدُوان صافِيَتين، وعميقتَين، وودودتَين، فكّر في نفسه: «إنّ كُلّ آثامِ الحرب يُمكن أنْ يتعافَى منها الإنسانُ بكلمة، هل كانَ يسوع هو هذه الكلمة؟!». ركزَ باطنَ كَفَّيْه على كتفَي يسوع، ثُمّ انحنى كما لم يَنْحَنِ من قبلُ، وقبّله على جبهته طويلاً، ثُمّ خاطبه بعينَين دامِعَتَين: «أأنجو إذا اتّبعتُك؟!». «كُلُّ شعب إسرائيل هالِكٌ إلاّ مَن اتّبع الحقَّ الّذي أدعو إليه». «أفتقبلني تلميذًا وخادِمًا؟!». «إنّني ما أتيتُ لأُخدَم بل لأَخدِم».

وَقْعُ أقدام الفرس الّتي يركبُها (باراباس) يشقُّ السّكونَ الملائكيّ الّذي كان يغلّف المكان. حينَ صارَ قريبًا منهما صاح باستِهزاء: «أنهيتُما أيُّها القِدّيسان؟!» كان الظّلامُ قد حَلّ، تَبِعه يهوذا مُستهدِيًا بصوته الفَظّ، ودّعَ صاحِبَه، وغابا في أيكةٍ مُلتفّة، تارِكَيْنِ خلفهما شعلةً نُورانيّة، بدتْ في تلك اللّحظة الفاصِلة أمَلَ الكون في النّجاةِ مِنْ براثنِ الظّلام!!

(٢٨)

أرأيتَ ذهَبًا يلمعُ دونَ فِتنة!!

مكثتُ في النّاصرة هذه المرّة أسبوعًا بينَ يدَي أُمّي أقومُ على خِدمتها بكلّ ما أستطيع، كنتُ أنامُ تحتَ قدَمَيها، وأكنُسُ لها الأرض، وأغسلُ الثّياب. بكيتُ كثيرًا وأنا أرى الحُزنَ يملأ عينَيها طَوال الوقت؛ كأنّها كانتْ تدري بما عَزَمْتُ عليه؛ كانَ الحُزنُ يليقُ بها، يليقُ بامرأةٍ عُجِنَتْ من ضياء، وُخلِقتْ من حنان، وعاشتْ في الدُّنيا غريبةً كأنّما كانَ حَتْمًا على الأنبياء أن يعيشوا غُرَباء.

أكثرُ ما كان يُمزّقني نظرتها الوادِعة، فيها سِرُّ الكونِ كُلّه، كانَ صمتُها ساحِرًا وغامِضًا وقاتِلاً في الآنِ نفسه، لم أعرف كيفَ أُسعِدُ قلبَها!! لكنْ كيفَ يسعدُ قلبٌ مَحزونٌ وهو يدري أنّ الألمَ هو عُنوانُ رحلتي!! كيفَ تضحكُ هذه الأمّ وهي تعرفُ أنّ أرضًا تضمّنا ليستْ إلاّ هَلاكًا يتربَّصُ بِنا؛ علّمتْني هذه القِدّيسة أنّ عليّ أنْ أحتملَ اضطِهاداتٍ كثيرةٍ لأنّه هكذا احتملَ جميعُ الأنبياء وأطهار الله. قَدَرنا أنّنا جِئنا أنبياء، والأنبياء أشدُّ الخَلْقِ عذابًا، فَلِمَ لا نقبل قَدَرَه، ولِمَ لا نحتملُ رجاءَ جزائه. علّمَتْني هذه المُطَهّرة أنّه إذا كنتَ في ضِيقٍ فلا تُفكِّرْ في مِقدارِ ما احتملْتَ ولا فيمن أصابكَ بمكروه، بل تأمّلْ كَمْ يُصيبُكَ على يدِ الشّياطينِ في الجحيم بسبب خَطاياك».

جلسْنا على مائدةِ الطّعام، كانَ طعامُنا شعيرًا مسلوقًا، قالتْ لي: أرأيتَ نِعمةً أعظمَ من هذه؟! أكلتُ بصمتٍ، كنتُ أرقبُ خيطَ الدّموع الّذي ينسابُ على وجنتَيها الطّاهرتَين. ولم أستطعْ أن أنتظرَ أكثرَ مِنْ ذلك؛ قلتُ لها:

- الله أنبأني أنّ موعدَ التّطهُّر من كلّ أدران الدُّنيا قد آنَ.
- يا بُنَيّ؛ مكتوبٌ أنتَ في المُخلَصين.
- ما مِنْ نبيٍّ إلاّ ومَرَّ بهذه التّجربة.
- إذا أبقيتَ الله في قلبِك عرّفكَ الشّيطان، فإنْ غفلتَ استحوذَ عليك.
- دُعاؤكِ لي سيُبقيه بقلبي في خَلْوتي.
- روحي كُلّها معك.
- إنّها أربعون يومًا يا أمّاه.
- وإنّ عذابَها سيزول؛ أرأيتَ ذهَبًا يلمعُ دونَ فِتنة!!

صعدتُ جبلَ الزّيتون، الجبلَ الّذي يشهدُ هذه البداية، وسيشهدُ كذلك النّهاية، فبدأتُ فوقَ ذلك الجبل صِيامي لكي أسمعَ ربّي، فلمْ آكُلْ شيئًا. أويتُ إلى مغارةٍ في ناحيةٍ خفيّة مُنحدرةٍ من الجبل، تتوزّع حولها الأشجارُ فلا تُرَى إلاّ لمن صار على بابِها وكانَ يعرفُ موضِعها، فدأبْتُ على الصّلاةِ والدّعاء، حتّى أَتَخَفَّفَ من كلّ شائبةٍ لكي أكونَ أهلاً لحمل كلمة الله إلى النّاس. فلمّا صِرتُ في جوفِ اللّيل رفعتُ يدَيّ، فقلت: اللّهمّ إنّي أمسيتُ لا أستطيعُ دَفْعَ ما أكره، ولا أملكُ نَفْعَ ما أرجو، وصار الأمرُ بيد غيري، وصِرتُ مُرتَهنًا بعملي، فلا فقيرَ أفقرَ مِنّي، فلا تُشْمِتْ بي عَدُوّي، ولا تَسُؤْ بي صديقي». فوجدتُ بعضَ الرّاحة، فغلبني النّعاس، فنمتُ، فجعلتُ تحتَ رأسي حجرًا أتوسّده، فمرّ بي الشّيطان، فصحوتُ، فقال لي: يا عيسَى أتزعُمُ أنّكَ لا تُريدُ شيئًا مِنْ عَرَضِ الدُّنيا؟! فهذا الحجر الّذي تحتَ رأسِكَ من عَرَضِ الدُّنيا، فقمتُ، فأخذتُ الحجر فرميتُ به إليه، وقلتُ: هذا لكَ مع الدُّنيا. فضحكَ. وَعَبَر.

في اللّيلةِ الثّالثة، كانتِ الرّيحُ شديدةً، وكنتُ قد عمدتُ إلى شجرةٍ مقطوعةً فأغلقتُ بها باب المغارةِ اتّقاءَ البرد والهَوامّ، فلمّا اضطجعتُ على جَنبَيّ، شغَلَني التّفكيرُ بأمّي، فشعرتُ بوجعٍ في القلب، فقمتُ فصلّيتُ زمنًا، ثُمّ عدتُ إلى النّوم، فلم أجدْ له سبيلاً، وكان وجعُ القلب يشتدّ، حتّى كِدتُ أختنق، فقال لي صوتٌ مِنَ السّماء، قُمْ فاخْرُجْ من مغارتك، فقمتُ، فخفضتُ رأسي، ثمّ اعتدلتُ لمّا صرتُ في العراء، فسمعتُ فحيحًا، فعرفتُ أنّه الشّيطانُ، فتتبّعتُ مصدرَ الصّوت، ومشيتُ خطواتٍ باتّجاهه فما رأيتُ شيئًا، وكان جسدي يرتجفُ فلم تمرّ ليلةٌ بارِدةٌ كهذه، ثُمّ شَعَّ القمر فكشفَ ضوؤه القِمّةَ الّتي فيها المغارة، فصرتُ أرى على ضوئه النّاعم ما لَمْ أرَ من قبلُ، ثُمّ إنّ الصّوتَ جاءني من خلفي، فالتفتُّ فإذا هي أفاعٍ كثيرةٍ لا أفعى واحدة، وكانَ كُلُّ زوجٍ منها مُلتَفًّا على الآخر في هيئةٍ حلزونيّة، لا ينفصل كُلُّ زوجٍ إلاّ عندَ الرّأس، وبعضُها كان يتدَلّى من أغصانِ الأشجار كأنّها عناقيدُ عِنَبٍ مُلتوية، فدَخَلني الخوف، وزادَ من رَجفتي إلى البرد، وهممتُ بالهربِ إلى المغارة، فسمعتُ الصّوتَ يقول: أتهربُ مِمّا كانَ فيك؟! قُلْ كَلِمَةَ الله يَذُبْنَ كالمِلح، فأخذتُ عصًا من الأرض، وتشجّعتُ قليلاً، ورحتُ أضربهنّ على رؤوسهنّ فما يزيدهُنّ ذلك إلاّ فحيحًا وسُعارًا، ونظرتُ في رؤوس الأفاعي فرأيتُ عُيونَها تلمَع على ضوء القمَرِ لَمعانَ النّار، فاستعذتُ بالله، ورميتُ العصا، وحدّقتُ في عُيونهنّ طويلاً، فبدأ لهيبُها يخفُت، وبدأ فحيحها يضمحلّ، وصارتْ كُلُّ أفعى تسقُطُ وتتصاغَر كأنّها سِحلاةٌ أو دُودة، ثُمّ لا تلبثُ أن تذوب. فلّما قُضِيَ عليها كُلّها، عُدْتُ إلى مغارتي، وشعرتُ أنّ وجعَ القلبِ زال، وأنّ ضيقَه انفرج، وأحسستُ براحةٍ ونقاءٍ وصَفاء. فقال لي داعي السّماء، هذه الأفاعي كانتْ نُقطةً سوداءَ في قلبِكَ فطَهّرَكَ الله مِنْها. لقد صرتَ مُستَعِدًّا لتُواجِهَ العالَمَ بقلبٍ نقيّ. ثُمّ نِمتُ فشعرتُ بلذّةٍ عجيبةٍ في النّوم.

ونَسِيتُ في غمرةِ التّجربة والتّطهُّرِ الطّعامَ، فما شعرتُ بالجُوعِ لأنّ ما أنا فيه يشغَلُ كُلَّ ذي لُبٍّ عن كُلِّ حاجة. فلمّا كانتِ اللّيلةُ السّابعة سمعتُ صوتَ السّماء فخرجتُ أتلقّى أمره، فأمرني بالسّير، فسرتُ لا أدري إلى أين، غير أنّ قَدَمَيَّ قادَتاني، فلم أهتدِ إلى شيء، حتّى إذا تأرجحتُ بين الشّكّ واليقين، برزَ لي شيخٌ جليل، فظننتُ أنّه زكريّا، لكنّه لم يكُنْ هو، فضحك لمّا خطر ببالي ذلك الخاطِر، فقال لي: نَحنُ من روحٍ واحدة؛ فاقترِبْ، فأيقنتُ أنّ الله بعثهُ ليُعلّمني، فاقتربتُ فجلستُ قُبالته، فظلّ صامِتًا، فانتظرتُ أن ينطق فلمْ يفعل، ومرّ زمنٌ طويلٌ وهو ينظرُ في عينَيَّ دونَ أنْ يَفُوهَ بكلمةٍ واحدة؛ فتعجّبْتُ منه؛ وخاطبتُ نفسي: هل يكونُ تعليمٌ من غير قول!! فابتسم ثانيةً لمّا سَمِعَ ما جال بخاطري، واقتربَ مِنّي أكثر، وأمسكَ بيدي، فشعرتُ أنّ نورًا تسرّبَ منه إلى جسدي، فأمسكَ بيده الأخرى لوحًا من نور نقيًّا، فرفعه، ثُمّ ألصقه إلى صدري، فنزلَ كُلُّه في قلبي، فقال لي: أنا جبريل، وهذا هو إنجيلُك، فكُلُّ ما تقول وتُعلِّمُ به فإنّما يكونُ من هذا الكتاب، ومتى انتهَى ما تقولُ، أُصعِدتَ إلى السّماء. فوجدتُ لذلكَ حُبورًا لم أجده فيما مضى من حياتي. ثُمّ إنّه انطفأ انطفاء شِهابٍ في لحظةٍ خاطِفة، وعدُتُ وقد آتاني الله الإنجيل لأكمل ما تبقّى من تجربتي.

فلمّا صارَ اليومُ العاشِر وأنا في عِبادتي جاءني الصّوت، فنهضتُ، فبحثتُ عن حِذائي فما وجدتُه، فخرجتُ حافِيًا مخافةَ أنْ أُضِيعَ صاحبَ الصّوتِ أو أن يفوتَني من حِكمته شيء، فظلّ يقول اتبعْني، وأنا أسمعه ولا أراه، فدخل شوكُ الأرضِ إلى باطِنِ قدَمَيّ، فجلستُ لأنزعَ منهما ما عَلِقَ بهما، فناداني الصّوت من جديد، فقمتُ وما نزعتُ شيئًا، ومضيتُ أتبعُ الهاتِف الصّاعدَ إلى القِمّة، فاشتدّ الألم عليّ، فانحنيتُ أنوي أنْ أرتاحَ قليلاً، فاشتدّ الصّوتُ يطلبُ منّي أنْ أتبعه، فكففتُ، وسِرتُ خلفه، وبَزَّ الدّم من قَدَمَيّ، وفاضَ حتّى غطّاهما، ثُمّ تناوشَتْني أشواكٌ أخرى فجرّحتْ ساقَيّ،

وجَنْبَيّ، وصدري، وأنا أعبرُ طريقًا شوكيَّة لم أرها من قبل مع أنّه صار لي هنا عشرةُ أيّام... فلمّا وصلتُ قِمّة الجبل، كانَ كُلّ شيءٍ في جسدي ينزِفُ دمًا. فقال لي الصّوت: قد تطهَّرَ قلبُكَ فيما مضى فأوتيت الإنجيل، والآنَ تطهّرَ جسدُكَ فستستهينُ بكلّ اضطهادٍ يُصيبُكَ في سبيل رسالتي. ثُمّ عادت إلى مغارتي، فنمتُ من ليلتي موجوعًا، فلمّا أصبحتُ لم أرَ أثرًا للدمِ أو للجرح في أيّ مكانٍ من جسدي!!

إنّها عشرون ليلةً ولم تدخُلْ في جوفي كسرةُ خُبزٍ واحدة. كان صباحًا رائِقًا، حَطَّ عُصْفورٌ غِرِّيدٌ على وردةٍ شوكيّة يابِسة، فسمعتُ صوت فحيح يقول: ما أقبَحَها!! فألهمني الله أنْ أقول: ما أجملَه!! فطار العُصفور مُغرّدًا، فلحقتُ به، فمررتُ وأنا أتبعه على جِيفةٍ، فقال صوتُ الفحيح: ما أنتَنَ رِيحَها!! فألهمني الله أنْ أقول: ما أبيضَ أسنانَها!! فعلمتُ أنّ الله طهّرَ لِساني من أيّ عيبٍ، فلا ينطِقُ إلاّ طَيِّبًا.

ثُمّ عبرتْ عشرُ ليالٍ أخرى وأنا لم آكُلْ شيئًا، ولم أشربْ إلاّ ما سقطَ من السّماء من ماءِ المطر على وجهي فغسلتُ به وجهي وأدخلتُ بعضهُ إلى فمي، فلعقتُ رَطْبَه.

ثُمّ إنّي صحوتُ في العشر الأخيرةِ من الأربعين، فرأيتُ الجبلَ قد أنبتَ من كُلِّ زوجٍ بهيج، فأيقنتُ أنّ الله يختبرني. فنظرتُ إلى الوردةِ الخضراء فإذا تحتها دودةٌ تنخر في ساقها، ونظرتُ إلى الشّجرة اليانِعة فرأيتُ ذِئبًا يختبئُ خلفها، وأدمتُ النّظر إلى السُنبلةِ الحُبلى فرأيتُ الرّيح قد أفرغتْها؛ فعلمتُ أنّ الله يعلّمني أن أنظر إلى حقائق الأشياء لا إلى ظواهرها، وعلمتُ أنّ الدُّنيا مثلَ هذا الرّوضِ البَهيج؛ تتزيّنُ للنّاظرين وتُخفِي خلفَها الموتَ والهلاك. وأدركتُ أنّ الله طَهَّر عينيَّ من أنْ تُخدَعا.

(٢٩)

لَيْسَ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا الإِنْسَانُ

في اللّيلـةِ الأخيرة مـن اللّيـالي الأربعـين، كانَ الله يُعِـدّني لآخـر اختِبـارٍ وأصعبِـه؛ إنّـه اختبـارُ المُواجهـة مـع الشّـيطان. حـضرَ وأنـا أنتظـره؛ فلقـد كانَ مُقـدَّرًا ذلـك لي منـذُ ولادتي، وكنـتُ أعـرفُ بـه، ولئـن عصَمَنـي الله منـه في ولادتي فلـمْ أخـرجْ مـن رَحِـمِ أُمّـي باكِيًـا مثـلَ بقيّـة المولوديـن، فـالله يريـدُ أنْ يَعصمنـي منـه اليـومَ في حيـاتي، وسيَعصمني منه يـومَ وفـاتي، وسيَعصمني منه كذلـك يـومَ يقـومُ النّـاسُ لـربّ العالَمين.

كانَ الوقـتُ ليـلاً، ليـلاً ليـس كباقـي اللّيـل!! شـديدَ الظّلمـة؛ لا أرى فيـه إصبعـي ولـو بسـطتُ يـدي أمـام وجهـي. شـديدَ القَـرّ؛ لا أدفأ ولـو لبسـتُ أشـجارَ الجبـلِ كُلَّهـا. شـديدَ الصّمـت؛ فلـو هَسَّـتْ بعوضـةٌ عـلى قمّـة الجبـل لسـمعتُها. لكـنَّ هـذا الصّمـت المَهـول كانَ سـكونَ بحـرٍ قبـلَ الهديـر، وكانَ هُـدوءَ بـركانٍ قبـل أن يثـور. ثُـمّ إنّـه ظَهَـر.

كانَ ظُهـورُه علنيًّـا تمامًـا؛ لم يُخبِّـئ نفسـه، ولم يَكُـنْ وادِعًـا لِيَخـدع، ظهر بكامـلِ سَـطْوته، أحـدثَ عاصِفـةً هوجـاءَ حـولي، وكنـتُ أنـا في عَينِهـا، فاسـتافَ الـتّرابُ المحمـولُ في العاصفـة فمـلأ جسـدي، ودخـل شيءٌ منه في فمـي وعَينَـيّ، واهتـزّتْ جـذوع الأشـجار، ولم يحتمـلْ بعضُهـا صريـرَ الرّيـح فانكسرتْ، وتطايـرتْ أغصـانٌ وأوراقٌ، فنـال جسـدي مـن تطايُرهـا أذىً، والتصق بعضُهـا بي، وأنـا أمـدّ يـديّ حـولي أحافِـظُ عـلى تـوازني ألاّ أسـقُط، وقـرأتُ مـن الإنجيـل فهـدأتِ العاصفـة؛ وتخلّى عـن جسـده النّـاريّ وتقـدّم نَحـوي عـلى هيئـةِ إنسـانٍ، فقـال لي: «مُنـذُ أربعـينَ يومًـا لم تـأكل يـا ابـن مريـم، ألسـتَ ابـنَ الله». فتعـوّذْتُ

بـالله منـه، وعلمـتُ أنّ الشّـيطانَ سـيُضِلّ النّـاسَ فيقـول لهـم إنّي ابـنُ الله ومـا أنـا إلاّ عبـدُه، وسيُتابِعه عـلى ذلـك خَلْـقٌ كثير. ثُـمّ سـمعتُه يقـول: ألا تُريـدُ أن تـأكُل؟! ألستَ جائِعًـا أيّها الصّائِـمُ الدّهـري، فقُلْ بمعجزاتِـكَ أن يتحـوّل هـذا الحجـر إلى خُبـز». فقلـتُ لـه: « لَيْـسَ بِالْخُبْـزِ وَحْـدَهُ يَحْيَـا الإِنْسَـانُ، بَـلْ بِـكُلِّ كَلِمَـةٍ مِـنَ الله» فَخَنـس، فـكانَ أوّلَ عُبُـور لي في أوّل اختباراتـه، وإنْ كانَ هـذا أسـهلَها مـع جَوعـي الشّـديد وحاجتـي الأشـدّ إلى الخُبـز.

ثُـمّ وادَعنـي بعـدَ عاصِفـةِ ظهـوره، وقـال لي: إنّهـا حياتُنـا المُشـترَكَة؛ فَلِـمَ لا نقتسـمُ فيهـا أسـاليبَ العيـش؛ لِمَ لا نَجعـلُ خُبزَنـا واحِـدًا؟! فسـألتُه عـن قصـده، فقـال: دَعْ لي المُـدُن أدعْ لـكَ الجِبـال، دَعْ لي زخـارفَ الحيـاة أدَعْ لـكَ شَـظَفها، تَعبَّـدْ رَبَّـكَ في الجبـال ولا تختلـطْ بالنّـاس، وادعُ مَـنْ يتّبعُـكَ أنْ يحذُوَ حـذْوك. فقلـتُ لـه: إنّـما جِئـتُ لأبلّـغ دعـوتي للصّغـير والكبـير، وأهـل المُدُنِ والقُـرى، وسـاكني الحَضَر والمَدَر والوَبـر، وللقريـب وللبعيد، أَفَتريـدُ أن تكـون دعـوتي رهبانيّـة!!». «ومـاذا يضـيرُك». «إنّ كلمـةَ الله لا تعيـشُ منعزلـةً عـن النّـاس في شعفِ الجبال أو في رمـال الصّحـراء، إنّهـا تعيـشُ في النّـاس أينـما كانُـوا، وأينـما حَلُّـوا وارتَحلـوا». فَخَنَـس؛ فعلمـتُ أنّـه سـيُضلّ قومًـا مـن بعـدي بالرّهبانيّـة يظنّـون أنّ ابتعادَهـم عـن النّـاسِ اقـترابٌ مـن الله، ومـا لِهـذا جِئـت.

ثُـمّ إنّ الله قَـدَّر لـه أنْ يُشـكّل المعبـدَ الّـذي في أورشـليم أمامـي، فتمثّـل بهيئتـه تامّـة، فعجبـتُ، فأصعـدني إلى جناحـه الّـذي هـو أعـلى شيءٍ فيـه، فصرنـا وإيّـاه في تلـك القِمّـة، فقـال الشّـيطان لي: ألسـتَ تزعُـمُ أنّ الله يبعـثُ ملائِكتَـه ليحمـوكَ فـلا تُـؤذَى حتّـى لـو كانَ حجـرًا في الطّريـق؛ فألـقِ نَفْسَـكَ مـن هنـا إلى الأرضِ، فإنّـكَ مؤمـنٌ والملائكـةُ سـيحملونَك ويحمونَـك فـلا يُصيبُـكَ شيء». فقلـتُ لـه: «إنّ العبـدَ لا يختـبرُ ربّـه، ولكـنّ الـرّبَّ يختـبر عبـدَه، ألمْ تسـمعْ أيّهـا الخبيـث نـداءَه في السّـماوات: يـا ابـنَ آدمَ لا تَسْـألْني هـلاكَ نفسِـكَ فـإنّي أفعـلُ

مـا أشـاء». فخنـس؛ فعلمـتُ أنّـه سيُضِلُّ أقوامًـا بالـتّردّي مـن القِمـم ينتحـرون بذريعـةِ قـدَرِ الله. فتعـوّذتُ بـالله منـه ومـن أفعالهـم.

ثُـمّ صعدْنـا أعـلى الجبـل، فجلسـتُ وجلـسَ إلى جِـواري وهـو يتميّـزُ غيظًـا فلـم ينـلْ منّـي بحِفـظِ الله لي شـيئًا، ولم ييـأسْ هـو مـن أنْ يحـاول مَعـي مرّاتٍ ومرّات، وكان يبتكـر في كلّ مـرةٍ وسـيلةً جديـدة. فقـدّرَ ألاّ يصنـع حيلـةً هـذه المـرّة، وأرادَ أن يُحادِثنـي، فقـال يسـتعطِفُني:

- يـا ابـنَ مريـم؛ ألَمْ يَبْلُـغْ مِـنْ عِظَـم رُبوبيّتـك أنّـكَ تكلّمْـتَ في المهـد صبيًّـا، ولم يتكلّـمْ فيـه أحـدٌ قبلـك؟!
- كلاّ؛ بـل الرّبوبيّـة لله، أنطقنـي بكلمتـه، وأَجْـرَى عـلى لِسـاني مـا أراد.
- أفلسْتَ الّذي بلغَ من عِظَم رُبوبيّتكَ أنّكَ تُحيي الموتَى؟!
- بـل لسـتُ قـادرًا عـلى أنْ أحيِـيَ ذُبابـة، ولا أملـكُ لنفـسي نفعًـا ولا ضَرًّا.

ثُمّ إنّ الشّيطان حار، فقال:

- أدعُـوكَ لأمْـرٍ هُـو لـك، إنّنـي رَبُّ الشّـياطين والأباليـسِ كُلّهـا، إنْ شِـئتَ أمرتُهـا جميعَهـا أن تُطيعَـك، فـإذا رأى النّـاسُ أنّ الشّـياطينَ أطاعتْـكَ عَبَـدُوك. أمَـا إنّي لا أَقُـولُ أنْ تكـونَ إلهًـا ليـسَ معـه إلـهٌ؛ ولكـنَّ اللهَ يكـونُ إلهًـا في السّـماء، وتكـونَ أنـتَ إلهًـا في الأرض. فـما رأيُـك؟!

فارتجفَ كُلُّ شيءٍ في جسـدي، وأصابَتْني رِعْـدَةٌ شـديدة، وخِفـتُ عـلى نفسي الهَـلاكَ مِـنْ هـولِ مـا سـمعتُ، وأنـا أعلـمُ مـن نفسي أنّهـا بشرٌ تركـتْ كلّ مـا في أيـدي البـشر، وزهـدتْ في كلّ متـاع الدُّنيـا، وليـسَ لهـا مـن الأمـر شيءٌ

فكيفَ أسمعُ هذه الكلمةَ في حقّي، واضطربَ عقلي تحتَ وطأةِ الكلام فلمْ يحتمِلْ، وصِرتُ في شَكٍّ مِمّا سَمِعتُ فاستغثتُ باللهِ، فبعثَ الله جبريلَ يَعضِدُني، فَصَكَّ إبليسَ بجناحه صكّةً فُخيّلَ أنّها قذفتْهُ إلى السّماء، ثُمّ عاد، فصكّه أُخرى، فهبطتْ به إلى سابع أرض حتّى وجدَ طعمَ الحميم في باطِنِها، ثُمّ خرج، وجلسَ خائِرًا مهزومًا، فقال: ما لقيتُ من أحدٍ من أوّل الهُبوط من أذىً ما لقيتُ منك، وإنّني لن أتركَكَ بهذه السّهولة، ثُمّ ذاب.

فتبدلّتِ الدُّنيا، وإذا هو إلى جانِبي في هيئة مَلِكٍ مُبَجّل، عليه الذّهبُ والطّيلسان، وفي يده عصا الإمبراطوريّات العُظمى، وهو يضحك، فما ألفينا أنفسنا إلاّ على قِمّةٍ مِنَ القمم، ثُمّ إنّي نظرتُ أسفل الجبال، فرأيتُ عجبًا؛ كانتْ هُنالكَ ممالكُ عددَ الرّمل والحَصى، تنتشرُ فوقَ الأرضِ، وكانتِ المشاعلُ والأنوار تملأ طُرقاتِها وشوارِعَها، وقد حوتْ من كُلِّ زينةٍ وزُخرُف، وأخرجتْ مِنْ كُلِّ شيءٍ أحسنه، جَمَعها إبليسُ في مكانٍ واحدٍ في زمنٍ واحدٍ ذلك الّذي حَوانا، فما أدري ما أصنَع أمام هذا الهَول، فقال: «لكَ أُعطي هذا السُّلطانَ كُلَّه ومجدَهُنّ، لأنَّه إليَّ قدْ دُفِع، وأنا أُعطيه لِمَنْ أُريد، فإنْ سجدتَ أمامي يَكُنْ لك الجميع». فأجبْتُهُ: للرّبِّ إلهكَ تسجُدُ وإيّاه وحده تعبُد، فلا أسجدُ إلاّ لخالقي وخالقكَ وخالق السّماواتِ والأرض». فخنس؛ فرأيتُ أَنْ أدعوه، فقلت له: «يا إبليس؛ إنّك جرّبْتَ معي فلم تُفلِح، وإنّي أدعوك دَعْوتي، فما ترى؟!». فقال: «إنّي سامِعٌ». فقلتُ: «قُلْ كَلِمَتَين يَغْفِرْ لكَ الله بمشيئته». فضحك استِهزاءً فارتجّتِ الأرضُ من تحت أقدامي، وقال: «تدعوني إلى مُصالحَةِ مع الله؟! ما هُما يا ابن مريم». فقلتُ: قُلْ أَخْطَأْتُ فَارْحَمْنِي». فقال: «إنّي بِمَسَرَّةٍ أقبَلُ هذه المُصالحَةَ إذا قال الله لي هاتَين الكلمَتين». فشهقتُ شهقةً كادتْ تُذْهِلُني عن نفسي، واستعذتُ بالله منه ومن سوءِ صنيعه، وعلمتُ أنّ لعنةَ الله لن تُفارِقَه إلى يومِ الدّين.

ثُـمّ إنّـه وَلّى مُوَلـوِلاً، يُسـمَعُ صِياحُـه مـن سـماءٍ بعيـدة. وكانَ هـذا آخـرَ عهـدي بهـذه الفِتنـة، نَجّـاني الله منهـا بفضلـه، فعُـدتُ إلى المغـارة، فـما نمـتُ أصلّي لله، وأشـكره حتّـى طلـع الفجـر. فـكانَ الصّبـاح أجمـلَ مـا رأيـتُ، وخرجـتُ فـإذا جِنـانٌ مـا أرى، وقُطُـوفٌ دانِيـاتٌ، وكانَ كُلُّ ثمـرٍ يقـول لي: كُل مـن ثَمَـرِي يـا رَسـولَ الله، فأكلـتُ هنيئًـا مريئًـا. ثُـمّ إنّ الله أخـذَ عـليَّ العهـد؛ أَنْ أُبيّنَ للنّـاسِ مـا نُـزّلَ عـليّ، وأنْ أجعـلَ الآخـرةَ في قلبـي. فـكان ثَمَـرُ مـا أكلـتُ في ذلـك اليـوم هـو أنضـجُ ثمـرٍ آكُلُـه في حيـاتي، فـما أكلـتُ إلاّ الشّـعير منـذُ أنْ صرتُ نَبِيًّـا وجهـرتُ بكلمـةِ الله.

فلـمّا مضيـتُ أوقفنـي هاتِـفٌ مـن السّـماء، وإذا هـي وصايـا الله لي ألقاهـا في رُوعـي: «يـا عيسـى بْـنَ مريـم: «أنْزلنـي مـن نفسـك كهمّـك، وَاجْعلْنـي ذخـرًا لـك في مَعـادِك، ولا تَـوَلَّ غـيري فأخذُلَـك، اصـبِرْ عـلى البـلاء، وارضَ بالقضـاء. وكُـنْ لِمَسَرّتي فيـكَ فـإنَّ مسـرّتي أنْ أُطـاعَ فـلا أُعـصَى. وكُـنْ مِنّـي قريبًـا. وَأَحْـيِ ذِكـري بِلِسـانِك. وتَيَقَّـظْ مـن سـاعاتِ الغَفلـة. واحْكُـمْ في لَطِيـفِ الفِطْنـة. وكُـنْ لي راغِبًـا راهِبًـا. وأَمِـتْ قلبَـكَ في الخَشـيةِ لي. وراعِ اللّيـلَ لِحَـقِّ مَسَـرّتي. وأَظْـمِ النّهـارَ ليـومِ الرِّيِّ عنـدي. يـا عيسـى بـن مريـم: مـا آمنـتْ بي خَلِيقـةٌ إلاّ خَشَـعَتْ، ولا خَشَـعتْ إلاّ رَجَـتْ ثَـوابي، فأُشـهِدكَ أنّهـا آمنـةٌ مـن عِقـابي مـا لمْ تُغـيِّرْ أو تُبـدِّلْ سُـنّتي. يـا عيسـى بـن مريـم: اِبْـكِ عـلى نفسِـكَ أيّـامَ الحيـاةِ بُـكاءَ مَـنْ وَدَّعَ الأهـلَ، وكَـرِهَ الدُّنيـا، وتـركَ اللّـذّاتِ لأهلهـا، وارتفعـتْ رغبتُـه في ذلـك عنـدَ إلهـه. وأَلِـنِ الـكلامَ، وأَفْـشِ السّـلام، وكُـنْ يقظـانَ إذا نامَـتْ عُيُـونُ الأبـرار. حـذارِ ممّـا هُـوَ آتٍ مـن أمـر المَعـاد، وزلازل شـدائِد الأهـوال، قبـل أن لا ينفـعَ بنـونٌ ولا مـال. اكحـلْ عينَـكَ برمـادِ الحُـزن إذا ضَحِـكَ البَطّالـون، وكُـنْ في ذلـك صابِـرًا مُحتسِـبًا، وسـلامٌ عليـكَ يـومَ وُلِـدتَ ويـومَ تَمـوتُ ويـومَ تُبعَـثُ حَيًّـا».

فـكانَ ذلـك عهـدُ الله لي. فراقبـتُ فيـه نفسـي كُلَّ حـين، فطُهِّـرتُ مِـنَ الخطايـا. ومَضيـتُ أصـدعُ بـه. فهـل تـركَ قـومٌ نَبِيَّهـم وكَلِمَتَـه؟!!

(٣٠)

الصّبرَ أحسنُ ما يُتطَبّبُ به

قـال لـه المُعلّـم الأوّل: النّـور الّـذي قُـذِفَ في قلبِـك إلى النّـور الّـذي امتـلأتَ بـه هنـا صـارا كافِيَـين لتُغـادِرَ هـذه المدرسـة. هُنـاك مرضَى ينتظـرون. قَبَّـلَ رأسَ مُعلِّمـه وخـرج. كانَ يلبَسُ ثوبًـا أزرق، ويلـفُّ وسـطَه حِـزامٌ مـن جِلدِ الماعز، ويحمـلُ في يـده فأسًـا. لقـد بـدأ العمـل. والمَهمَّـةُ ليستْ سَـهْلة، لـو طُلِـبَ منـه أن يحفـرَ الطُّـور العظيـم بفأسِـهِ الصّغـيرة هـذه لـكان أسـهل مـن أنْ يحفر قلـوبَ التّائهـين فينتـزع منهـا سـوادَ الخطيئـة، ولـو طُلِـبَ منـه أن يشـقّ هـذا الجبـل نِصفَـين بخنجـره لـكانَ أسـهلَ عليـه مـن أن يقطـعَ ذلـك الحبـل الّـذي يربـط المُوثَقـين بالإثـم إلى الدُّنيـا. لكنّـه سـيعمل عـلى كُلِّ الأحـوال.

رِقّـةُ قَلبِـه لم تَحُـلْ بينـه وبـينَ قُـوّة عِظَتِـه. وضعـفُ حالـه لم يَمنعْـه مـن أنْ يقـفَ بكلمتـه أمـام أعتـى مُلـوكِ زمانـه. والدُّنيـا - في نظـره - راحلـةٌ بالقـويّ والضّعيـف، وبالعَبـدِ والسّـيّد، ولـن تُبقـيَ أحـدًا، وهـو سـيرحلُ حُـرًّا. هكـذا قـرّر بينـه وبـينَ نفسِـه. هَـوَى بفأسِـهِ عـلى أصـلِ شـجرةٍ شـوكيّة فاقتلعهـا مـن قرارهـا، وهتـف: هكـذا ينبغـي أنْ أجتـثّ جـذور الـشّرّ مـن قلـوب البـشر. بعـضُ القلـوب كالحجـارة تحتـاج إلى مِعـولٍ لتحطيمهـا.

سـارَ وهـو يشـعرُ أنّ كُلَّ حِكمَـةِ السّـماء قُـدْ جُمِعـتْ في صـدره فوعاهـا، وأحـسَّ أنّـه سـيقول كُلَّ مـا وعـى قبـل أن يرحـل، وسـيقوله للبـشر والشّـجر والحجـر. توجّـه شـمالاً، كانَ البحـرُ يرافقـه وهـو يصعـد، دَخَـل أورشـليم، رأى النّـسر الرّومـانيّ يعتـلي المدخـل فـارِدًا جناحيـه، تسـلّق الجـدار المُوصِـل إليـه،

هَوَى بفأسِهِ على رأسِ النّسر وهتفَ فَرِحًا: لقد كان أبي إبراهيم على حَقّ. تدحرج رأسُ النّسر من العمودِ الأيمن الذي يرفع البّوابة الرّئيسيّة، استقرّ على الأرض حُطامًا، هُرِعَ النّاس على صوته، وصلَ الخبر إلى (قَيافا) فَرَكَضَ مُرتاعًا، وركَضَ خلفه الكَهَنة، لم يَرَهم أحدٌ من قبل بهذا الفَزَع، استجمع (قَيافا) أنفاسه وهو أسفله، وأرجعَ عُنُقَه إلى الخلفِ ليرى مَنْ هذا الفَتى ذي الثلاثين من العُمر الّذي كسر القانون الإلهيّ والرّومانيّ معًا. صاحَ به: «ماذا تفعل أيّها الأخرق؟!». «أنا أحذّرك يا قَيافا، إذا أعدتَ النّسر مرّة أخرى إلى هُنا فسأقتلعُ رأسكَ بدلاً منه». قال ذلك وهوى من جديد بفأسه على النّسر فتطاير أحدُ جناحَيه قِطَعًا. ذُهِلَ (قَيافا)، صاحَ كالملسوع وهو يَئِزّ في مكانه: «هل جُننت؟!». «سأُجَنّ بالفِعل إذا رأيتُ هذا النّسر هنا مرّةً أخرى». صَرَخَ (قَيافا) بالكَهنَةِ وخدمِ المَعبَد، اِستدعوا الجنود قبلَ أَنْ تنزلَ بنا المصائب. «أنا سأُنزلُ المصائب بكلّ ما يُعبَد من دونِ الله». قال ذلك وهوى من جديد بفأسهِ على النّسر فتطايرَ جناحُه الثّاني. «مَنْ أنتَ ولماذا تفعل ذلك؟!». «انظر إليّ جَيِّدًا يا قَيافا، ألا تَتَذكّرني؟! يبدو أنّ الهرمَ قد أنساك كُلَّ شيء». «هذا ولدي الحبيب»، قال زكريّا وهو يتهادَى بينَ اثنين يتّكئ على مِرفقَيهما، وقد شابَ كلُّ شعره، وانحنى ظهره، وحاولَ جاهِدًا أن يعبرَ الحُشود الّتي تجمّعتْ لِتَرَى ما يفعله يحيى. «أَتَركْتَهم يرفعون هذا النّسر يا أبي، أصنمٌ يُعبَدُ من دون الله؟!». ثُمّ هَوى على جِسْمِ النّسر فترنّح، «إنّني كبرتُ يا حبيبي، وأنا شيخٌ طاعنٌ في السّنّ أحتاجُ إلى مَنْ يقودني، ولقد نصحتُهم، ولكنّ المالَ في جَيبِ قَيافا». «لو حملتَ الفأسَ لمدّ الله القُوّة في ساعِدك، إنّ الإيمان لا يهرم!!» قال ذلك وهو يهوي من جديدٍ على ما تبقّى من النّسر فتداعى جُذاذًا.

كانتِ الحُشودُ قد ملأتِ السّاحةَ الكُبرَى في المعبَد، علا الصّياحُ

من كُلّ جانـب، فـرح بعضُهـم فـراح يُبـارِكُ الفتـى، وخـاف آخـرون فَهَمْهَمـوا، وتوقّعـوا المصيبـة الّتـي سـتحلّ بهـم وبمعبدهـم بعـد أن يصـل الخـبر إلى (بِيلاطُـس) الّـذي عُـيّن مـن الإمبراطـور مبـاشرةً حاكـمًا لليهوديّـة.

ترجّـل مـن عليائـه، وصـاحَ بالنّـاس، فأفسـحوا لـه الطّريـق، ظـلّ يمشي وفأسُـه في يـده، حتّـى اعتـلى الشّرفـةَ الّتـي يقـفُ فيهـا (قَيافـا) نفسـه في أعيـاد الفصـح، كانَ قلـبُ (قَيافـا) في تلـك اللّحظـة قـد امتـلأ غيظًـا وحِقـدًا، ركـنَ يحيى فأسـه إلى جـواره، وصـاح: أيّهـا النّـاس، فاجتمعَ كُلّ الخلـقِ ليسمع، أمّـا الّذيـن رأوا فيـه نَبِيًّـا فلكـي يمتلئـوا بالحِكمـة، وأمّـا الّذيـن رأوا فيـه مُتمـرّدًا فلكـي يتداركـوا الأمـر قبـل أنْ تحُـلّ الطّـوامّ. فلـمّا رأى أعيُنَ النّـاس تشـخصُ إليه قـال: «إنّ الله أمـرني بخمـسِ كَلِـماتٍ أنْ أعمـلَ بهِـنّ، وآمركـم أن تعلمـوا بهـنّ». فلطـمَ قـومٌ خُدودَهـم، وقالـوا: ظهـرَ بيننـا نبـيٌّ كـذّابٌ جديـدٌ. وكتـمَ آخَـرون أنفاسَـهم، وقالـوا في أنفسـهم: لعلّـه المَسِـيَّا المُنتَظـر!!

«أوّلهـنّ: أنْ تعبُـدُوا الله ولا تُشرِكـوا بـه شيئًا، وإنَّ مِثـلَ مَـنْ أشركَ بـالله كمثـل رجـلٍ اشـترى عبـدًا مـن خالـصِ مالِـهِ بِذَهَـبٍ أو ورقٍ، فقـال: هـذه داري، وهـذا عمـلي، فَاعْمَـلْ وأَدِّ إليّ، فـكانَ يعمـلُ ويُـؤدّي إلى غـير سَـيِّده، فأيُّكـم يرضَى أن يكـون عبـدُهُ كذلـك». فصاحـوا وهاجـوا، وحرّكـوا رؤوسـهم ببـطءٍ أسـفًا. وأنكَـروا ماسَـمِعوا، فاعتـلى سـورَ الشّرفـة، فقـال مُغضَبًـا: فأنتـم كُلّكـم تفعلـون ذلـك إلاّ مَـنْ عَصَـم. فغضـبَ عليـه أكثرُ السّـامعين. ثُـمّ انتظر برهـةً حتّـى خفَّ هِياجُهـم، فقـال: «وإنّ الله أمرَكـم بالصّـلاةِ، فـإذا صلّيتُـم فـلا تلتفِتـوا؛ فـإنّ الله ينصِـبُ وَجهَـه لوجـه عبـده في صلاتِـهِ مـا لم يَلْتِفـتْ». فـرأى الإنـكار في وجـوه النّـاس، فاحمـرّ خـدّاه غضبًـا، فقـال: «أمـا إنكـم لا تُصلّـون، وإذا صلّيتُـمْ صلّـتْ أطرافُكـم ولم يُصَـلّ قلبُكـم، وإذا صَـلّى قلبُكـم التفتـتْ عينُـه». فهـاجَ قـومٌ يريـد

أن يبلغه فيُنزِله من الشّرفةِ ويَدُقَّ عُنُقَه، وبَكى آخرون لِما سمِعوا حتّى إنّ جُؤارهم وصلَ إليه واضِحًا. ثُمّ قال: «وإنّني آمُرُكم بالصّيام، فإنّ مَثَلَ ذلك كَمَثَلِ رَجُلٍ في جماعة معه صُرّة فيها مِسْك، فكُلُّهم يُعجِبهُ رِيحُها، وإنّ ريحَ الصّائم عند الله مِنْ رِيح المِسْك». فهبطَ الصّمتُ على الكثيرين، ولم تُسمَع إلاّ هَمهماتٌ قليلةٌ يَحُور بها مَنْ أدمنوا الشّراب. فرفعَ يَحيى صوته: «أما إنّه لَيَفُوح من أفواهِكم نَتَنُ الجَشع، وخَبَثُ القول الفاسِد، ورِيحُ المُسكِراتُ المُنكَرات». فارتاعوا. فازدادوا صَمْتًا، ثُمّ قال: «وآمُرُكم بالصّدقة؛ فإنّ مَثَلَ ذلك كمَثَلِ رجُلٍ أسره العدوّ، فأوثَقوا يَدَه إلى عُنُقه، وقدّموه لِيضربوا عُنُقَه، ففدى حياته بالمال فَقَبِلُوا. فهل فَدَيْتم أعناقكم بالصّدقة إلى الله، أمْ تردّيتم فدفعتموها إلى الشّيطان!!». فتحسَّسَ (قَيافا) جَيبَه، ثُمّ جَنبَيه، ثُمّ مَدّه يده إلى عُنُقِه مَخافةَ أن تطير. ثُمّ قال: «وآمُرُكم أن تذكروا الله، فإنّ مَثَلَ ذلك كمثلِ رجلٍ خرجَ العَدُوّ في أثره سِراعًا، حتّى إذا أتى على حِصْنٍ حصين، فأحرزَ نَفْسَه منهم، كذلك العَبدُ لا يُحرِزُ نفسَه من الشّيطان إلاّ بِذِكر الله». ثُمّ نَزَلَ مِنَ الشّرفة، فبَشَّ في وجهه أقوام، وعَبَس آخرون، ومَدَّ يَدَه إليه كُلُّ ذي قلبٍ طريّ، فتركهم وسار شَمالاً يقصدُ نهر الأردنّ، فانسربَ خلفَه جَمْعٌ غفير. ولَحِقَه أبوه فلم يَستَطِعْ أَنْ يُدرِكه، فناداه فلم يَسمعْه، فاعترض (قَيافا) طريقه، وقال له: «إنّ ابنَكَ يُفسِد النّاس، وأنا لا أدعُ ثعلبًا يسرقُ مِنّي دجاجي». فما نَظَر زكريّا في وجهه، وأشارَ له أن يبتعدَ عن طريقه، فوضع (قَيافا) رأسَه على رأسه، ونفثَ في وجهه: «أتزعمون أنّ فيكم النّبوّةَ وما رأيتُ منكم إلاّ بَغِيًّا وساحِرًا ومُدّعِيًا». فلم يَنبِسْ زكريّا ببنتِ شفة، وعبثًا حاول أن يتّكئ على خادِمَيه ليلحق بابنه.

وقفَ يحيى في مُنتَصف النّهر، ونادَى: أيّها النّاسُ تُوبوا؛ فإنّ الفانِية أوشكتْ أنْ تَفنَى». فاحتشدَ الّذين تَبِعوه على ضِفّة النّهر، وكانوا

خَلِيطًا مِن الرّجال والنّساء والعجائز والرُّضَّع، وكانتْ أسمالُهم بالِيَة، ووجوههم شاحِبة، وكانوا يرمقونه كأنّ لديه الحلّ السّحريّ لكلّ مشاكلهم، لكنّه لم يكنْ يملك غير الكلمة، الكلمة القويّة، فصاحَ بهم: «كيفَ تهرُبون من الغضبِ الآتي، اِصْنَعُوا ثِمارًا تَليقُ بتوبتكم؛ فإنّ الشّجرة الّتي لا تُثمِر تُقطَع وتُلقَى في النّار». فكانوا يرتَعِدون لقوله، ويَضِجّون بالبُكاء، ثُمّ سألَ أحدهم وكان العُمرُ قد أجهزَ عليه إلاّ قليلاً: «فماذا نفعل؟!». فرفع يحيى رأسَه نحو الصّوت، وقال له: «تعالَ». فاقتربَ منه راجِفًا، وخاضَ النّهر على مَهَلٍ والماء يُغطي نِصفَ جسده، وهو يُجاهِدُ بجسمه ليَقطعَ المسافة بينهما، فأمسكَ يحيى برأسه، فغطَّسها بالماء، فغاصَ الرّجل حتّى لم يظهر منه شيءٌ ثُمّ أقامَه، فكانِ الماء يتقاطر من فوق رأسه وهو يَشهَق: «هكذا فَلْيَتعمَّدْ كُلٌّ واحد منكم، اغسِلوا خطاياكم بهذا الماء المُقدّس، ثُمّ خذوا العهدَ مع الله على أنفسكم ألاّ تعودوا إلى الخطيئة، وحذارِ؛ إنَّ الجسدَ يجذبُ الخطيئةَ، ويمتصُّ الإثمَ كما تمتصّ الإسفنجةُ الماء».

وتدافَعَ النّاسُ يتعمّدون من يحيى، ويغتسلون ليدخلوا في عهد التّوبة، فبينما هو مُنهمِكٌ في عمله، سَمِعَ جلبةً عالية، فنظر إلى ضفّة النّهر فرأى خيولاً عادِيةً من بعيد، تُثير خلفَها النّاسَ والغُبار، وبعدَ لحظاتٍ كان فُرسان (بيلاطُس) مَلكِ اليهوديّة يَمْلَؤُون المكان، وصرخَ به بعض الّذين اتّبعوه: «اهربْ يا مُعلّم... لقد وصلتْ إليهم أخبارُ تحطيمك للنّسر الرّومانيّ فوقَ المعبد، إنّ سيوفهم خارجَ أغمادهم، ويبدو أنّهم عازِمون على قتلك». فصاح به يحيى: «اصمُتْ أيّها الأعمى، لو كان في قلبِكَ إيمانٌ لَما رأيتَ غير الخشبِ في أيديهم. دَعْهم يعبروا إليّ». فلمّا صاروا قريبين منه: صاح قائدهم: «أأنتَ الّذي حطّمْتَ رمز الإمبراطوريّة؟!». فأجابه: «ومَرّغتُ أنفَهُ في التّراب». فردّ عليه: «فتعالَ ليَقَعَ عليكَ القَصاص». فردّ يحيى: «فتعالَ قبلَ

أن يقـع عليـكَ القَصـاص». «أنـا؟! «بـلى؛ تعـالَ أُعَمِّـدْكَ فـإنّ سـيّدكَ الأرضيّ لـن ينفعـك إذا لم تَتُـبْ إلى سيّدكَ السّـماويّ». فنـزل القائـدُ عـن فرسـه، فخـاض المـاءَ بدروعـه وسـيوفه وخُـوَذه والنّـاس ينظـرون إليـه مَدهُوشـين، فلـمّا لم يعـدْ بينـه وبـين يحيـى شيء، نـزع عنـه خُوذتـه ودرعـه، وأغطـسَ رأسَـهُ في المـاء، ثُـمّ أنهضـه: «الآنَ، تُـبْ إلى الله بقلبِـك بعـدَ أن تَطهّـرَ بدنُـك» فخضـع القائـد، وقـال: «أَفْعـلُ». وعـاد إلى فرسـه وانطلـق ببعـض فرسـانه وسـط تعجّـب المُحتَشِـدين، وبَقِـيَ آخـرون لم يبرحـوا مكانهـم. ووصـل الخـبر إلى (بيلاطُـس) فغضـب، وأوكَلَ بعـضَ جُنـدِه أنْ يأتيـه بـه في أسرعِ وقـت. لكنّـه نَـسِي.

صرخَ في هـذه الأثنـاءِ شـابٌّ بـدا أنّـه لم يـأكل منـذُ عـام: «مـاذا قُلـتَ لـه؟! هـل أنـتَ سـاحِر؟!». «سـأقول لكـم مـا قُلـتُ لـه؛ أجَوعَـى؟! فـإنّ العُشـبَ لَيكفـي أن يكـونَ طعامَكـم، وإنّكـم لَتجـدون مـا تأكلـون حتّـى لـو كانَ مـن شـوكِ الأرض؛ أمّـا الجـوع الطّويـل فهُنـاك ولا تجـدون فيـه إلاّ الغِسـلين». فتحـشرجَ صوتُـه، ثُـمّ استعادَ حروفـه، فقـال: «أمـرضَى؛ فـإنّ الصّـبرَ أحسـنُ مـا يُتطَبّـبُ بـه، ولكنّـه لا طِـبّ هنـاك ولا شِـفاء، ولا مـوتَ فَيُتَمَنّـى». فضجّـوا. فتقـدّم منـه جَمْـعٌ يبكـونَ فقالـوا: «فـماذا نفعـلُ لننجـو؟!». فقـال: «مَـنْ لـه ثوبـان فليُعـطِ أحدَهـما لِمَـنْ لا ثـوبَ لـه، ومَـنْ عنـده طعـامٌ فليقتسـمْه مـع مـا شـاء، فـإنّ البركـةَ تزيـد بعـدد مـا تَقتِسـم». فحنّـتِ القلـوب، واقـتربَ إلى الضّفّـةِ جَمـعٌ فاغتسـلوا تِباعًـا. فتقـدّم مـن خلـفِ الجمـوع العَشّـارون الّـذي يأخـذون الضّرائـبَ مِـنَ النّـاس فيزيـدون فيهـا ظُلـمًا، وقـد أطرقـوا رؤوسـهم خجـلاً، فقالـوا: «ومـاذا نفعـل نحـن؟!». فقـال: «لا تَسـتوفوا أكثر مِمّا فُـرِضَ لكـم فإنّـه قِطعـةٌ مـن النّـار». فأذعنـوا، وتقدّمـوا فتعمّـدوا. ثُـمّ تشـجّع مـا تبقّـى مـن فرسـان الرّومـان، وقالـوا: «ونحـن؟!». قـال: «لا تظلمـوا أحـدًا، ولا تَشُـوا بأحـدٍ، ولا ترفعـوا سـلاحَكم إلاّ لِمَنْ يرفـع سَلاحَه في وجهكـم، وَاكْتَفُـوا لكـم بمثـل عَلَـفِ

خُيُولكم». فجاء بعضُهم فتعمّد، وأبى آخرون فانصرفوا. ثمّ سأله رجلٌ في العَقْد الخامس قَضى حياته في المَعبَد، تَبِعه لمّا سَمِعه فوقَ الشّرْفة، وقال بصوتٍ رزين: «أأنتَ المَسِيَّا المُنتَظَر؟!». فقال له يحيى: «أعرفُ أنَّ البشريّة كُلَّها تنتظره، ولكنّ زمانه لَمْ يَجِئ بعدُ، ولو أعاشني الرّبُّ ليومه، فسأكون خادِمًا تحتَ رِجلَيه». «فَمَنْ هو؟!». «نبيٌّ يحمل السيفَ والكِتاب ويُقيمُ العدل والمِيزان».

وسمعتُ عن ابن خالتي، وأنا في الجبل، فنزلتُ إلى الوادي حيثُ النّهر، فوجدتُهُ يَغسِلُ خطايا النّاس بكلمةِ التّوبة، فلمْ أعرفْه، فقد كانَ صَبِيًّا وصار نَبِيًّا. بدا أنّه أهمل شعرَ لحيته ورأسه، فتهدّلا حتّى غطّيا نصفَ صدره، وكان ما زالَ يحملُ فأسَه، فاحتضنْتُه، فقلتُ له: «عَمِّدْني يا يحيى»، فبكى. «أنا أَحْرى أن أتعمّدَ منك، فأنت أفضلُ عندَ الله مِنّي». «عمّدْني يا يحيى مثلَ هؤلاء الفقراء الّذين عَمّدْتَهم؛ حتّى أبدأ رِسالتي». فوضعَ يحيى يده على رأسي ودفعني بحُنُوّ، فغطستُ كُلّي في النّهر، ثُمّ قمتُ فقبّلَ رأسي، وفاحَ طيبٌ في الأرجاء، وامتلأ النّهرُ بركةً، وودّعتُه ومضيت.

وسارَ يحيَى، وحيدًا حافِيًا في الطّريق، ومالَ إلى الصّحراء ليجد خلوته مع الله، فلمّا جَنّ اللّيل مرّتْ به قافِلة، فنزلوا يستطلعون النّازلَ في هذه المهامِه وحيدًا، فإذا رجلٌ أشعثَ أغبرَ وقفَ يمدّ يديه إلى السّماء ويُهمهِم بكلِماتٍ لم يَستبينوا منها شيئًا، وكان نحول جسده ظاهِرًا، مُعفّر الوجه، قد سالَ الدّمع خُطوطًا على عينيه فلم يرْقأ، فلمّا أهبطَ يديه، جاءه رئيس القافِلة، فدفع إليه طَعامًا، فقال له: لا حاجةَ لي بطعامك. فأبى أن يأكل منه لُقمة، فمدّ يده بماءٍ فلم يقبل، وقال له: السُّقيا عند الله. فتركوه وهم يظنّون أنّه مجنونٌ أو شَبَح. فلمّا اشتدّ اللّيل، جاءه قَطِيعٌ مِنَ السِّباع من

مجاهل الصّحراء، لا يدري أحدٌ كيفَ جاءتْ، فجلستْ حولَه، فوجد طعامًا فأكل، وماءً فشَرِبَ، وحمِدَ الله. وقال: «لَأَنْ آكُلَ مع الوحوش من رزق الله خيرٌ مِنْ أن آكلَ مع البشر فما أدري أحصّلوه من حلالٍ أم حرام». ثُمّ نام دونَ أن يُمَسَّ بسوء.

في اليوم الثّاني، تركَ الصّحراءَ وراءَه، ومضى إلى النّهر، فلمّا صارَ قريبًا منه، حَلَّ عليه اللّيل، فَاحْتفرَ قَبرًا، فأقامَ فيه يدعو ويُصلّي ويبكي حتّى تعب، فاضطجع فيه، ونامَ. واستيقظَ في اليومِ الثّالثِ، فنظرَ يرجو أنْ يكونَ الله قد قضى أمرَهُ في الآخرة، فلم يَجِدْها ووجدَ الدُّنيا، فقامَ فصلّى وراحَ يبكِي حتّى قاربتِ الشّمسُ على المغيب، وسمع أصواتًا خارجَ القبر، فاستطلعَ فوجدَ أباه في مجموعةٍ يبحثُ عنه قد هدَّه التّعب، فجلس، وقال: «يا بُنَيّ؛ أنا أطلُبُكَ من ثلاثةِ أيّامٍ، وأنتَ قائِمٌ في قَبْرٍ تبكي؟!». فأجابه يحيى: «يا أبتِ ألسْتَ أنتَ الّذي أخبرْتَني أنَّ بينَ الجَنّةِ والنّارِ عَقَبةٌ لا تُقطَعُ إلاّ بِدُمُوعِ البَكّائين». فَلَمْ يتمالكْ زكريّا نفسه فبكى، وبَكّى ابنَه، وبَكّيا الآخَرين.

(٣١)

منصّة المُلوك

«مَـوْتُ بَعـضِ النّـاسِ في الدُّنيـا عـلى بعـضٍ فُتُـوحُ». رَحَـلَ الآثِـمُ الأكـبر، وتـركَ مـن بعـده أولادًا لم يكـنْ يعـرفُ هـو قبـلَ موتـه إنْ كانـوا لـه أم لآخَريـن، وحتّـى الّذيـن جلسـوا عـلى كُـرسيّ العـرش بعـده فاقتسـموه أربعـةَ أجـزاء ليسـوا مُتأكّديـن مـن نِسبتهم لأبيهـم؛ وإنْ كانـتْ نِسْبتُهم لأبيهم تُخوّلهم الجُلـوسَ عـلى هـذه الكـراسيّ وهـو أفضـل مـا يُمكـن أن يكـون أبوهـم قـد تركـه لهـم! لكـنّ أبًـا يسـيرُ بسـيرةِ الحديـد والنّـار، ويعمـل بأسـلوب البَطـشِ والتّنكيـل، ويغـرق في الشّـهوات حتّـى تُصبِـحَ سِـجنًا لا حُريّـة، وعُبوديّـةً لا سِـيادة سيُنجِبُ في الغالـب - أبنـاءً عـلى الشّـاكلةِ نفسِـها؛ هـذا إذا لم يـأتِ الابـنُ ليتفـوّق عـلى أبيـه، ويجُـوزُه بمراحـل!!

كانـتِ الأضـواء تتـدلّى مـن الأسـقُفِ العاليـة للبهـو الواسـع كأنّهـا أقـمارٌ تخلّـتْ عـن سـمائها لتـزور هـذا المـكانَ الأرسـتقراطيّ الرّاقـي. رُفِعـتْ مِنصّـة حجريّـة مَنحوتـةٌ بإتقـان عـلى شـكلِ نِصفِ قـوس في قلـبِ البَهـو، كانَ نِصـفُ القـوس الضّخـم الحجـريّ الّـذي يلـفّ بطـنَ المِنَصّـة يحمـل نُقوشًـا رومانيّـة لخيـول صاهِلـة، وفُرسـان مُنتـصِرة في معـارك خاضتهـا الإمبراطوريّـة شرقًـا وغربًـا، ولم يكتـبِ القلـم فوقهـا أكثـرَ مـن إزميـل النّحّـات، فخلّـدتْ هـذه الإمبراطوريّـةُ العُظمَـى مجدَهـا في هـذه النّقوشـات. أمّـا ظهـر المِنصّـة فقـد نُضِّـدتْ عليهـا كـراسِيُّ مُزخرَفـة، وغُطّـي ظهـرُ الكُـرسيّ وقلبُـه بالدّيبـاج الأحمـر فبـدتْ كأنّهـا شـفقٌ في سـماءٍ داهَمَهـا الغُـروبُ فجـأة. تحـت هـذه المنصّـة المُلوكيّـة توزّعـتِ الكـراسيّ في مُدرّجـات صغـيرة، تتّسـع لمئتَـي شـخصٍ مـن كِبـار

المدعوّين من الأمراء والوزراء وقادة الجيوش ومسؤولي العُشور ومُهندِسو الأبنية... وفي وسط البَهْو الواسع، مُدّت موائدُ بدا أنّه لا آخرَ لها، حملتْ كُلَّ شهِيّ وفاخر من الطّعام. كانتْ هناك حُمْلان مَشويّة، وغُزلان مَحنوذة، وخنازير مَقليّة، وأرانب، وطُيور من كلّ صنف، كانَ بإمكانِكَ أنْ ترى الحَمَل كامِلاً قد خرجَ من الشَّيِّ للحظته وما زال بُخار التّوابل الشّهيّة يتصاعدُ منه فيُميل القلوب إليه قبلَ البطونِ. وبينَ كُلِّ صحفةٍ كبيرةٍ وصحفةٍ أكبر تحملُ حَمَلاً أو خنزيرًا أو شاةً أو دجاجًا كانتْ هناك أطباق الشّوربة الّتي تتصاعدُ أبخرتها هِيَ الأخرى فتملأ الأنوفَ برائحةٍ زَكِيّة تُسيلُ اللُّعاب.

أمّا الجُزء المُقابِل للمنصّة الملوكيّة فقد كانَ مسرحًا مُجهَّزًا بالأضواءِ الكاشِفة، ثُبِّتَتْ في أطرافه القناديل ذات الألوان المُتعدّدة من حمراء وصفراء وزرقاء، وكانَ ضوؤها يُلقِي على المسرح غِلالةً من الغُموضِ والسّحر معًا. كانَ هذا المسرح مُخصّصًا لعرضِ المسرحيّات الّتي تُعدّ من أجل هذه الطّبقةِ الحاكمةِ فقط، ولا يحضرها العامّة أبدًا. أمّا اليومُ وهو يومُ الجُلوسِ على العرش، فقد ارتأى (أنتيباس) أنْ يجعله مُختَلِفًا، طلبَ من حاشِيَته أن يأتوا له بعشر راقِصاتٍ من بناتِ إسرائيل، أو مِن أشهر مَن عملتَ في هذا الفنّ، وأنْ تُقدّم الواحِدةُ بعدَ الأخرَى وَصْلتها من أوّل اللّيل إلى آخره. وقد بعثَ رئيسُ الكهنةِ بنفسِهِ إليه ثلاثةً من هذه العشرة كانتْ إحداهُنّ (سالومي). كانتْ سالومي تملك جَسَدَ أفعى، وعينَي مَها، وجيدَ غزال، وصَدرَ نَعامة، وساقَي رُخام، وهي في الرّابعةَ عشرةَ من عُمرها.

أنزلتِ الشّمسُ شِراعها في ذلك اليوم على التّلال البعيدة للجليل، وأُعْلِنَ في القاعة الملكيّة بدءُ الاحتِفال، فوقف (أنتيباس) على باب التّشريفات يستقبلُ المدعوّين، حضروا مُبكّرين؛ لأنّ الحفلَ سيجمع كُلَّ نساءِ الطّبقةِ الحاكمة، وستتنافس كُلّ امرأةٍ مع الأخريات لتُبدِيَ زينَتَها وفِتْنَتَها

للنّاظريـن، وتُثبِـتَ ‖ لا لأحـدٍ إلاّ للنّسـاء المُنافِسـات ‖ أنّ ثيابَها أليَـقُ، وأرقـى، وأجدر باستمالةِ العُيونِ والأحداق نحوها، وكُنَّ يلبَسـنَ ثيابَ السّهرة الّتي تكشفُ أضعافَ ما تَستُر. توافدَ في البداية بعضُ الأمراء ومَسؤولي الخزينة، فلم يُعِرْهـم الملكُ انتباهًـا، حتّى إذا حضر أخوه (فِيلُبُّس) تهيّأ الملك كأنّما جاءه الـرّبُّ نفسه، ولم يَكُـنْ ذلكَ مِـنْ أجلـه، بـل مـن أجـل مـن تمشِي إلى جانبه، سَلّم (أنتيباس) على (فيلُبُّس) وحيّاه بابتِسامة باردة، ثُمّ تقدّمتْ منه (هِيرودِيّا) خُطْوَةً، فانحنَى كعبد أمامها، وأرجع بيده اليُمنى رداءَه المُوشَّى بخيوطِ الذّهَبِ خلفَ ظهره فبدا سيفُه يلمعُ تحت أضواء القاعة الباهِرة، ثُمّ طَبَعَ قُبلةً طويلةً على يدها قبل أن يقفَ من جديد، غاصَ أثرُ القُبلةِ عميقًا في يَدِ (هيروديّا)، نظرتْ إليهِ بشهوةٍ عارِمة، فاضطرمتْ في أحشائِه النّار، لم تَكُنْ تنقصه تلك النّظرة المِغناج ليذوب فيها. استبطأ أخوه زوجتَه، فحانتْ منه التِفاتةٌ إلى الوراء، فرآهُما؛ وعرفَ لكنْ سكت؛ فالّذي يأكُلُ من التُّفّاحةِ المُحرّمة لن يتوقّع ألاّ تمتدّ الأيدي الآثِمة إلى فاكهته!! ظلّتْ عينا (أنتيباس) معلّقةً في ظهر (هيروديّا) الّتي رمتْهُ بنظرةٍ شهوانيّة أخرى، قبلَ أن تضعَ يَدَها في يد (فيلُبُّس) ويخطُوَا معًا نحو منصّة المُلُوك. ثُمّ تتابَعَ توافُدُ المُحتفِلين.

بدأتِ الحفلةُ بعدَ أنْ أتمّ المدعوّون حُضورَهم. ارتأى (أنتيباس) أنْ يُغيّرَ في برنامج الحفل، وقف على أوّل الصّفّ الطّويل من الموائدِ المُتخَمة بالأطعمة، ورفعَ يديه، صاح وهو يُشير إلى الطّبقةِ الحاكِمةِ في المِنصّة: يا أصحابَ الجلالة، والسّعادة، والغِبطة... أيّها المُبجّلون، لنبدأ احتِفالنا من هنا، في البدء كانَ البَطن ثُمّ بقيّةُ الشّهواتُ، وكُلّها قد زَيّنْتُها من أجلكم اليوم، فاهبِطوا من مَراقيكم، واملؤوا بُطونَكم. فنزلَ الضُّيوف، وبعضُ العلية من الأطراف، وامتدّتْ أيديهم إلى الحُملان والخنازير والشّياه والطّيور، فنهشوا من صدورها وأفخاذها وجُنُوبها حتّى أفسدوها... مَدّ (فيلُبُّس) يده

إلى خنزيرٍ مَقليّ، فقال له الخنزير: «إنْ كانتْ عَيْنُكَ عثرةً فاقْلَعْها»، فارتجفتْ يدهُ قليلاً، فابتسم، وهتفَ في نفسه: إدامةُ الشّراب أصلُ كُلِّ خراب، ولكنْ ماذا أفعل إذا كانَ كُلُّ شيءٍ حولي يدعوني إليه. فتابَعَ مدّ يده إلى الخنزير، فقال له: «لو عَلِمْتَ ما أعلم؛ لَفَضَّلْتَ قميصَ الشَّعْر على الأرجْوان، والقَمْلَ على الذّهب، والصَّومَ على الولائم». لكنّ (فيلُبُّس) لمْ يسمع. ثُمّ تقدّم (بيلاطُس) فمدّ يده إلى حَمَلٍ مشويّ، فقال له الحَمَل: «اجعلوا الشّجرةَ طيّبةً يأتِ ثمرُها طيّبا. واجعلوا الشّجرةَ خبيثةً يأتِ ثمرُها خبيثًا؛ فمنَ الثّمر يُعرَفُ الشّجر». لكنّ (بيلاطُس) لم يسمع، اقتطعَ من الصّدر، ومضى. ثُمّ تقدّمتْ (هيروديّا) فمدّتْ يدها إلى حَمامة، فقالتْ لها الحمامة: «كنُتِ مثلي فلا تصيري أفعى». فحوّلتْ نَظَرها عنها بُرهةً تريد أن تنتقي شيئًا آخر، ثُمّ أعادتْ يَدَها باتّجاه الحمامة، فقالتِ الحمامةُ من جديد: «يجبُ على الإنسانِ أنْ يَدفَع كُلَّ إغراءٍ خارجيّ من الخَطِيئة، وأنْ يَخشَى الحِسَّ؛ لأنَّ له شَغَفًا مُفرِطًا بالأشياءِ الدَّنِسَة»، لكنّ (هيروديّا) لم تسمع، أخذتِ الحمامةَ كُلّها فوضعتْها في صَحْنها. ومضتْ. ثُمّ تقدّم (أنتيباس) فمدّ يده إلى شاةٍ فقالتْ له: «كُلُّ مَنْ يَجِدُ لَذَّةً في المَخلوقِ أيًّا كانَ ولا يطلبُ أنْ يَجِدَ لَذَّةً في الله فقد صَنَعَ صَنَمًا في قلبِهِ وتركَ الله»، لكنّ (أنتيباس) لم يسمع الشّاة، ملأ صحنَه ومضى. كانوا جميعًا من النّوع من البشر الّذي «تَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ».

ضجّتِ القاعةُ بالذّاهِبينَ والغادِينَ في وَسَطها، كان قرعُ الملاعق والصّحون وقهقهات العِلية يملأ المكان. ظلّ نَظَر (أنتيباس) مُعلّقًا على (هيروديّا)، فلّما رأى فِيلُبُّس منشغِلاً مع مدير الخِزانة ليسأله عن مصاريف الدّولة، ومقدار ما أنفقتْ، وأينَ يذهبُ الجزء الأكبر منها. تقدّم نحو (هِيروديّا)، وانحنَى أمامها من جديد:

- أتسمحُ لي الأميرةُ أنْ أُقبِّلها.
- لم أرَ في حياتي ملكًا يَنحني ويَستأذن. شفتايَ تُفّاحتاك، متى شِئتَ قَطَفْتَهما.

مَرَّ خَدَمُ الكؤوس يَحمِلونَ فوق أكتافهم على باطن أيديهم صحائفَ الخمر. كانتِ القوارير تتأرجح فوقها دون أن تقع، فيتلألأ الشّرابُ داخلها تحت بريقِ الأضواء السّاقِطة من سقف القاعة العالية في البهو الفسيح. كان الشّراب يتراقَصُ كأنّما هو بَحرٌ مَسّهُ شُعاعُ الشّمسِ الذّهبيّ في الأصيل، فدعا الخاطِئين إلى شُربِه بِأبلَغِ ما تكونُ الدّعوة.

- أتسمح لي أميرتي أنْ أُقدّمَ لها كأسًا.
- هل تريد أن تعودَ إلى الاستِئذان. أشربُ من يديكَ عشرًا.
- أريدُ أن تشربي هذه الكأس، فهي أشفَى للقلب.

أمسكَ يَدَها، واتّجها إلى طرفِ القاعة، كانَ المسؤول عن القاعةِ ينتظره، فتَحَ الملك للأميرةِ بابَ العربةِ وانحنى، فدخلتِ العَرَبَةَ الملكيّة على إيقاع انْحِناءته. في غضونِ لَحَظاتٍ كانتِ العربةُ تَنهبُ الحجارةَ المرصوفةَ المُؤدّية إلى المقصورة الملكيّة، كانَ المَخدَعُ قد أُعِدَّ كما لو كانَ لِبِكْرٍ ذاتِ جمالٍ أُسطوريّ. أدخَلَها المخدع، كانَ الشّرابُ قد جَرَى في الجسد على ما يشتهي الملك، فانثنتْ بينَ يديه كأنّها جَسدٌ من عَجِين. اهتزّتْ جُدران القصر على وَقْعِ الخطيئة ولم تهتزّ جدارن القلبِ لذلك. قالتْ له بعد أنِ انتهى: إنّكَ تفعلها أفضلَ من أخيك. فردّ عليها بابتسامةٍ سَكرَى: «ففيمَ البقاءُ عنده!!». فأجابتْه بِدلال: «وهل تُساكِنُ امرأةَ أخيك؟!». «إذا قَبِلَتِ امرأةُ أخي صارتِ امرأتي». «وأخوك؟!». «لديه ما يَشغله؛ هل أنتِ منشغلةٌ بمشاعر أخي؟!». «كلا؛ ولكنّني منشغلةٌ بأموالِه». «لكِ من المال عندي ضعفَ ما لكِ عنده؛ أتقبَلين؟!».

هَبَطَا الدّرجاتِ القليلة الّتي تفصلهما عن الفِناء المُؤدّي إلى الطّريق المرصوفة، قَطَعَا الفِناء كعروسَين، وغابا في جوفِ العربةِ الّتي غابتْ بهما في الطّريق. دخلتْ هِيَ قبله إلى قاعةِ الاحتفالات؛ كانَ مدير التّشريفات قد بدأ يُعلِنُ للضّيوف الكِرام بَدء الحَفل الفَنّي. اتّخذتْ مكانها إلى جانِبِ فيلُبّس، نظَرَ إليها مُغتاظًا، ولم يجرُؤ أن يسألها عن سبب غِيابها المُفاجِئ، حانتْ منه التِفاتةٌ إلى بابِ القاعة فرأى أخاه (أنتيباس) يدخل كالسّكران، زفرَ زفرةً غاضِبة، وتململ مكانه، لكنّه لم يستطعْ أن يقوم. ظلّ جالِسًا وهيروديّا ترمقه بنظراتِ تَشَفٍّ، كانتْ نَظَراتُها تقول: أَتُحَرِّمُ عليَّ ما تُحِلُّ لنفسك، إذا كان جسدُكَ مملوءًا بالشّهوة، فأنا غارقةٌ فيها، وإذا كُنتَ تُبيحُ لنفسكَ طرائقَ الاستِمتاعِ فَلِمَ لا أبيحُها أنا لِنفسي.

اتّخذ (أنتيباس) كرسيّه الدّيباجيّ، وابتدأ الاحتِفال. صدحتْ صَنجات، وعزفتْ قِيان، وغَنَّتْ مَعازِف، وظهرتِ الرّاقِصات من جانِب المسرح، دخل الفوج الأوّل منهنّ. كُنَّ أنهارًا من لحمٍ يسقُطْنَ إلى أعلى.

دارتِ الكُؤوس على المُلوك، تلوّن الشّراب مثلَ تلوُّنِ الأضواء، كان هناك الشّراب الأحمر والأصفر والأبيض... سَكِرَ الجمع، صاروا يتمايلون مع الرّاقِصات. تَعِبَ السّكرى، جَلَسوا ليرتاحوا قليلاً، وسَكَتَتِ المعازِفُ زمنًا ريثما تبدأ نوبةُ الفوج الثّاني من المُرفِّهات.

بدأتِ الموسيقَى خفيفةً خافِتةً هذه المرّة، ثُمّ صارَ صوتُها يتأرجحُ مُتصاعِدًا، كانَ العازِفون الّذين اتّخذوا أماكنهم أسفلَ المسرح يعزفون موسيقَى نينوى. تَعالَتِ السّمفونيّة شيئًا فشيئًا حتّى بلغتْ مدًى عالِيًا، ثُمّ لمّا وصلتِ الذّروة أوقفتْها صَنْجَةٌ واحدة فانهار السُّلَّمُ الموسيقيّ. سادتْ لحظاتُ صمتٍ ساحرة، كانتِ العُيُون مُعلّقةً على المسرح، دخلتْ من طرفه فتاة في أوّل نُضُوجها، كانتْ مِشيتُها رَقْصًا، ونَظرتُها رقصًا، وتحيّتها رَقصًا.

لمّا توسّطتِ المسرح كانتْ قد توسّطتِ القُلوب، فلمّا هزّتْ وسطَها اهتزّتْ لها القلوب، فلما تثنّتْ كغُصنِ بانٍ أثقله الثّمر تَثَنّوَا هُم وقد أثقلهم سُكرُ الغِواية، فأعجبتْ كُلَّ مَنْ في المِنصّة، مال (أنتيباس) على مُساعِده الّذي يقفُ خلفه ككلبٍ ينتظر إشارةَ سَيِّده، سأله: «مَنْ هذه؟!». أجابه: «سالومي؟!». «وَمنْ تَكون؟!». «إنّها ابنةُ هيروديّا يا سيّدي».

(٣٢)

حُبُّ اللّٰه أغلى من حُبّي يا بُنَيّ

عُـدتُ إلى النّـاصرة بعـدَ فِتنـةِ الجبـل، إلى البيـت، وللمـرّة الأخـيرة، كانَ عـليّ أنْ أرى أُمّـي. البيـتُ هـادِئٌ هـدوءًا قاتِـلاً، حتّـى العصافـير الّتـي أحيانًـا مـا تحـطّ عـلى جـذوع بعـضِ الأشـجار المنتـشرةِ هُنـا وهنـاك هَمَـدتْ، كان الشّـارع الضّيّـق المُؤدّي إلى البيـت كذلـك سـاكِنًا، ولم يَكُـنْ يقطـعُ سُـكُونَه شيءٌ. وكانَ ذلـك ضُحًـى. دفعـتُ البوّابـةَ الخشـبيّة بيـدي، وأطرقـتُ إلى الأرض: «هـذه البوّابـة مقطوعـةٌ مـن شـجرة». ظللـتُ سـاهِمًا لحظـاتٍ قبـل أن أدلـفَ إلى الدّاخـل، عـلى يمينـي الحُـوش البسـيط الّـذي كانـتْ تـزرع أمّـي فيـه بعـضَ الأشـجار المُثمِـرة، تينـةً عتيقـة رافقـتْ أجـدادي في أوّل ظهـور النّبـوّة فيهـم، وزيتونَتَـين، وورداً تتفـوّق هـي عليـه في جمالـه ونُضرتـه. هممـتُ أنْ أقطِـفَ وردةً أخيرةً لأمّـي وأقدّمهـا راكِعًـا تحـتَ قدمَيهـا، لكنّنـي عدلـتُ في اللّحظـةِ الأخـيرة؛ الـوردُ في قلبهـا وأنـا أسـتظلّ تحـتَ عرائـش ياسَـمينها فكيـفَ سـأُقدّمه لهـا هديّـة؛ الـوردُ يخجـل!! كانـتْ أمّـي تُشـبه الـورد في أشـياء كثـيرة؛ سـاكِنة، جميلـة، طيّبـة، تُريـح النّفـس، تـزرع البسـمة عـلى القلـب... والأهـمّ تُعطِـي دون مقابـل.

خطـوتُ في الأرضِ التّرابيّـة القائمـة عـن يسـاري حتّـى وصلـتُ إلى الدّرجـات الثّـلاث الّتـي تفصـل مـا بـين الحـوش وشُرفـة صغـيرة، سـقفُها الطّينـيّ قائـمٌ عـلى أعمـدة خشـبيّة كُنّـا قـد صنعناهـا أنـا ويوسُـف مـن حـوالي عَقديـن مـن الزّمـان، كانـت الأعمـدة أو الجـذوع تمتـدّ عـلى طـول الشّرفـة، وتُطِـلّ عـلى الحـوش الخارجـيّ بأقـلّ مـن ذراع في الهـواء فـوق الدّرجـات الثّـلاث، وكنّـا قـد علّقْنـا فوقهـا القناديـل فزادَتْهـا جَمـالاً. صعـدتُ الدّرجـات ودخلـتُ، كانَ

الهدوءُ ما زالَ يُغلّفُ كُلَّ شيء، لكنّه هدوء الحياة لا هُدوء الموت، وصمتُ الوجود لا صمتُ العدم. كُلُّ شيءٍ يبعثُ على السّكينة هنا، كُلُّ ما يتعلّق بهذه الأمّ يتعلّق بالله؛ روحًا، وجلالاً، وبركةً، وعظمةً مُستكنّة... نقّلتُ خطُواتي الأخرى، فلم أسمَع للبيت صوتًا ولا هَمْسًا. ناديتُ على أمّي، فلم أجدْ جوابًا. أينَ سيّدةُ البيتِ يا تُرى، أينَ المُطَهّرةُ النّبيّة؟! أينَ القِدّيسةُ النّقيّة؟! لكنّ الصّمتَ ظلّ سَيّدَ كُلِّ شيء. بيتُ جَدّي هذا كانَ مُكوّنًا من غرفتَين فحسب، واحدةٍ عن يمين الدّاخل تُطلّ على الحوش الصّغير، وثانيةٍ عن يساره، ويفصلُ بينهما ممرّ بِطُولها. دلفتُ على رؤوس أصابعي حتّى لا أزعجَ أُمّي بعدَ أنْ شعرتُ أنّها نائمة، وأَمَلْتُ جذعي إلى اليمين، ونظرتُ من الباب المَفتوح فلم أرَ أحدًا في الغرفة، كانَ فِراشُها المَبسوط على الأرض يتكوّن من حصيرٍ وخَيش، وفوقه غِطاءٌ صوفيّ قديمٌ يبدو أنّه كانَ لأَبَويها الطّاهِرَين، ومِخدّةٌ من ليف يعلوها غِطاءٌ مِنَ الكِتّان. وفِراشي؟! أغلبُ الظّنّ أنّها تبرّعتْ به إلى الفقراء؛ ومَنْ يدري أنّهم يتنازَعونَ ثِيابَ نبيّ وفِراشَه. تشجّعتُ ودلفتُ أكثر إلى الدّاخل، جثوتُ على قَدَمَيّ عندَ فِراشِها، «على كُتلةِ التُّرابِ أنْ تَنامَ على الأَدِيم»، مددتُ يدي إلى مِخدّتها، قرّبْتُها من وجهي، ودفنتُ رأسي فيها أتشمّم رائحتَها. ستقولون نبيّ ونَبيّة، وماذا يُمكن أنْ تكونَ رائِحةُ أيّ شيءٍ يمسُّ جَسَدَهما. تَخَيَّلوا إذًا معنى أنّ هذه الأجساد من السّماء وستعودُ إليها. وأنّ كُلَّ ما على الأرض لا يَمُتُّ إلى تلكَ السّماءِ بشيء؛ جِئنا غُرَباء إلى أهل الأرض لِنقول لهم كلمةَ الله ونعودَ إلى موطننا الأصليّ، فكلّ ما يتعلّق بنا من ثِيابٍ أو لِباسٍ أو غِطاءٍ يُصيبُ شيئًا من بركةِ السّماء وطهارتَها ومِسكَها وخُلُودها.

أعدتُ المِخدّة إلى مكانها، وقد ملأتُ رِئَتَيّ من رائِحة أُمّي، وقمتُ أتبعُ مصدر الرّائحة. مشيتُ بهدوء إلى الغرفةِ الثّانية، نظرتُ من الباب الّذي كانَ مُوارِبًا فلم أرَ شيئًا في البِداية، كانت الغرفةُ مُظلِمةً شيئًا ما، فلا

نورَ يأتيها من الحوش مثل الغرفة الأولى. تَنَحْنحتُ لكي تَسمعَني، فلم تجدْ نَحْنَحَتي جوابًا. تشجّعتُ أكثر، دفعتُ الباب بشيءٍ من الحذر، وتابعتُ النّظر من خلال العالَمَ الّذي تكشفهُ انفِراجةُ الباب التّدريجيّة، ثُمّ... ثُمّ رأيتُها، كانتْ تُصلّي في الزّاوية، شُعلةً من النّور تتوقّد في وسط العتمة، لولا أنّني أعرفُ أنّ أباها عمران وأمّها حَنّة لَمَا صَدّقتُ أنّ أمّي وُلِدت لبَشَرِيَّين، لا بُدّ أنّ نورَ الملائكة كان مَعجونًا بجسدِ جَدَّيَّ!!

هبط صدري، وعادَ قلبي إلى مكانه، افترشتُ الأرض، ومددتُ رِجليّ، أسندتُ ظهري إلى حائطِ الغرفة الخارجيّ الّتي حوّلتْها أمّي إلى مَعبد. وانتظرتُ أُمّي على هيأتي هذه حتّى تُتِمَّ صلاتَها. كُلُّ شيءٍ يُمكنُ أن يسير هادِئًا إذا كانتْ أعماقُكَ هادِئة، وكان قلبُكَ مُطمَئِنًّا، حتّى ولو كانَ ضجيجُ الكونِ صاخِبًا حولكَ فالمُهمّ ليسَ ما في خارجك بل ما في داخِلك. القلبُ الموصولُ بالله لا يعرفُ من صَخَبِ الدّنيا وضجيجها شيئًا. فالكونُ الخاشِع لله يخشعُ كذلك في قلب المؤمنِ.

أنهتْ أمّي صلاتَها، قامتْ نحوي، فنهضتُ من مكاني، اعتنقتُها، وقبّلتُ يَدَيها، ثُمّ هبطتُ على رِجلَيها فقبّلْتُهما. نظرتْ إليَّ مُبتِسمةً، عاينتْ جسدي النّحيلَ من أوّله إلى آخره، وبقلبِ الأمّ الحنون هتفتْ: لا بُدّ أنّكَ جائع. أربعون يومًا تكفي بأن تُخرِجَكَ من الدُّنيا وشهواتِها يا بُنّيّ. جَلسْنا في الشّرفة، ومدّتْ أمامي المائدة. كانتْ قد أعدّتْ طعامًا بسيطًا لنا، زيتًا وخُبزًا وعسلاً. كانتْ أمّي لا تزال تعمل في الغَزْل وتأكُلُ مِنْ كَسْبِ يدها، أيُّ تواضعٍ في عمل الأنبياء وأيُّ رسالةٍ يقولها الله ويبعثُ بها إلينا!!

مَضغتُ آخرَ لقمةٍ، وشربتُ بعدها ماءً. وجاءتِ اللحظةُ الحاسِمة لكي أقول لأمّي ما أعتقدُ أنّها تعرفه، لكنّ الخوفَ منَ البَوحِ به كتمه في الصّدور، أحيانًا يدفعُ الخوفُ الكَلِمةَ إلى الأعماقِ فيدفنها بعيدًا في القلب،

ولا يُعيدُ القلبُ إليها الحياةَ من جديد إلاّ إذا عادتْ إليه الشّجاعة. لكنّني تشجّعتُ:

- تعرفينَ يا أُمّي؟!
- أَعرِف.
- حُبّي لكِ لا يُمكن أنْ يقوله بشريّ، وَحدَه الله قادِرٌ أن يقولَه أو يُعبِّر عنه.
- أَعرِف.
- وتسمحينَ لي أن أتركَكِ لأبدأ الدّعوة!!
- حُبُّ الله أغلى من حُبّي يا بُنَيّ. أُحِبُّكَ فأنتَ بضعةٌ مِنّي، وتُحبّني فأنا أُمّك؛ لكنّنا نُحبُّ الله أكثر. فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَر.

على البابِ كانتْ دُمُوعُ عينَيها تَفِيضان على خَدَّيها، احتضَنْتُها فسالتْ دموعها أكثر، مَسحتُها بيديّ، وقبّلتُ رأسها: «أتبكينَ يا أُمّي وأنتِ تعرفينَ ما الّذي أعدّ اللهُ لنا؟!». «أعرف؛ ومِن أجل ذلك أبكي».

هبطتُ الدّرجاتِ الثّلاثَ هذه المرّة مُولّيًا ظهري للبيتِ الّذي عِشْتُ فيه وعاشَ فِيّ، وضمّ سُلالةً طاهِرةً من الأنبياء. في الدّرجةِ الثّانية، توقّفتُ، سمعتُها تُناديني أو خُيّلَ إليّ ذلك. مرّتْ لحظاتُ صمتٍ عصيبة وأنا أستطلع مُرهِفًا أذنيّ لأعرف إنْ نادتْني أم لا، سمعتُ صوتًا، كانَ صوتَها أو صوتَ ملاكٍ لا أدري، صوتُها أم صوتُ الله لا أدري، قالته أو لم تَقُلْه لستُ مُتأكّدًا. خيالاً أم حقيقة؛ وحده الله يعلم؛ قال الصّوتُ الّذي عبرَ كُلَّ ذرّات جسدي ذرّةً ذرّة ثُمّ استقرّ في المهوى البعيد للقلب: «كُلُّ مَنْ تَرَكَ بُيُوتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَدًا أَوْ حُقُولاً مِنْ أَجْلِ اسْمِي، يَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ وَيَرِثُ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ».

ومضيتُ تاركًا البيتَ خلفي والتّاريخَ والذّكرياتِ وكُلّ شيء، وقلبي يَضِجُّ بالحنين والشّوق والبُكاء!!

تَوَجّهتُ إلى المعبد الّذي في النّاصرة، بُيوتاتُه الطّينيّة أعرفها تمامًا، كانتْ تمرّ شهورٌ دونَ أن تعثرَ فيها على عابدٍ واحدٍ، أكلَ الشّيطانُ قلوبَ أهلِ النّاصرة. التّجارةُ والمِهَن الحِرْفِيّة، أبعدتهم عن بيت الرّبّ؛ فأخذهم الرّبُّ بالسّنين، وأرهقَ كاهلهم بالعُشُور. لكنّهمُ اليوم سيكونون مجتمعين فاليومُ هو السّبت. كان لا بُدّ عليّ أن أُعلِنَ عن نفسي هنا، من هنا ستكون البداية، والبدايات دائِمًا صعبة، ولذلك سُمّيتْ بذلك. وأعرفُ أنّ الأنبياءَ يُرجَمونَ أوّل ما يبدَؤون، وهم يعرفون ذلك، ويُقدِمون عليه مع علمهم المُسبَق بمستوى الأذى الّذي سيلحَقُ بهم أوّلَ الجهر؛ ومن أجل ذلك استحقّوا رُتبةَ الأنبياء، الّذين يَنكِصون عن التّبليغ، والّذين يتردّدون، وأولئك الّذين يُقدّمون رِجلاً ويُؤخّرون أخرى سينزع الله منهم النُّبُوّة بلا شَكّ، وسَيَقذِفها في قلبِ رجلٍ شُجاع؛ النّبوّة إقدامٌ على الهَول بقلبٍ صابِر، وإلاّ فما قيمة الصّبر والشّجاعة لِمَنْ سيجد الورود والقُبَل تنهال عليه من كلّ الجهاتِ وهو يَعِظُ النّاس. النّاس ـ إلاّ من رَحِمَ الله ـ أعداءُ الأنبياء؛ لأنّهم جاؤوا بِخلافِ ما اعتادوا عليه، وسينزعون ما امتلكوه بالتّقادُم، ولو كانَ هذا الّذي امتلكوه عقيدةً عمياء!!

دخلتُ وقتَ الظّهيرةَ، أو بعدها بقليلٍ، كانَ النّاسُ قد اجتمعوا للصّلاةِ، فطلبَ الكاهنُ أحدًا لِيَقرأ من التّوراة، فتقَدّمتُ وقرأتُ من إنجيلي، فالأمرُ لا يحتاجُ إلى توراةٍ ما دامَ الإنجيلُ في قلبي. أيّها النّاسُ: «إنّي رسول الله إليكم». بهذا الوضوح وبهذه البساطة وبهذه الخُطورة أيضًا. الأمر الواضح أشدُّ خطرًا من ذلك الّذي يغلّفه الغُمُوض، فيوقع السّامع في بحيرةِ الشّكّ لصعوبةِ تفسير النّوايا. في أمور السّماء، يجب أن تكونَ الكلمةُ تُشبِهُ السّماء: عاليةً وواضحةً ويراها الجميع.

هـاجَ النّـاسُ في المعبَـد وصاحـوا مُسـتَنكِرين. لقـد طويـتُ سِـفرَ دانيـال، وسـلّمتُه للكاهـنِ وبـدأتُ أعِظُهـم مِمّـا لـديّ؛ فأنـا كلمـةُ الله، فـما حاجتهـم للكتب الّتي يدرسـونها وأنـا بـينَ ظَهرانيهـم؟!

تلقّـى النّـاسُ دعـوتي بـينَ مُصَـدِّقٍ ومُكـذِّب، قـال أحدُهـم: «ألم يَجِـدِ اللهُ سِـواكَ يبعثـهُ نبيًّـا، لـو كنـتَ كـما تَدّعـي فلـماذا لم يُرسِـلْكَ إلى أهـل أورشـليم أوّلاً فعندهـم المَعبَـدُ الأكـبر؟!». قـال آخـر: «نبـيّ؛ فـما مُعجِزتُـك؟! مـا الدّليـل عـلى أنّـكَ لسـتَ كَذّابًـا آخـر؟!». قـال ثالـث: «فيـكَ سَـمْتُ الصّالِحـين، لكـنِ الأنبيـاء؟! لا؛ أولئـك يأتوننـا مـن السّـماء، يدخلـونَ كالنّـور مـن النّوافـذ العاليـة المُطلّـة عـلى الله». ثُـمّ قـامَ وتحسّـسَ جسـده، وأردف: «هـه... هـا أنـتَ مـن لحـمٍ ودم، وليـسَ مـن نـور!!». وقـال رابِـع: «مـا هـذا اللّبـاسُ الّـذي تلبَـس، أفـلا لَبِسْـتَ ثيابًـا تليـقُ بنبـيّ بـدل أن تلبسَ ثيابًـا يبـدو أنّهـا لِـراعٍ قـضى نصـفَ حياتـه في الجِبـال قبـلَ أن تَعِظَنـا». وقـالَ خامـس: «ألسـتَ يسـوعَ النّجّـار، ألم تَكُـنْ صَبيًّـا ينحنـي ليلتقِـطَ الأوسـاخَ الّتي تتسـاقطُ مـن النُّشـارةِ في دُكّـانِ مُعلّمـه؟!».
وَصَمَـتُّ أمـام أوّلِ تكذيـبٍ واسـتِهزاء، وأشرتُ بيـدي لعـلّي أُخَفِّـفُ شـيئًا مـن هِياجهـم، وهتفـتُ: «سـيهلَكُ كُلُّ مَـنْ لم يفتـحْ قلبَـه لكلمـة الله، ستشـتعلُ النّـارُ في جَسِـد كُلّ مـنْ لا يهـربُ إلى رَبِّـه». فَعَـلا لَغَطُهـم، فرفعـتُ صـوتي أريـدُ أن أُسـمِعهم: «قَـدْ كَمَـلَ الزّمـان، واقْـتَربَ مَلَكـوتُ الله، فتوبـوا وآمِنـوا بالإنجيـل». فقامـوا إليّ يبتَدِرونـنـي بالإسـاءة. ويَهُوشـونَ عـليّ، كُلٌّ يريـدُ أن يخـدمَ الـرّبَّ في طردِي مـن المَكان، فانسَـلَلتُ مـن بينهـم مَكلومًـا، وخرجـتُ ماضِيًـا إلى الجليـل، لعـلّي أجـدُ هُنـاكَ مَـنْ يَنصُرني.

مـا كـدتُ أبتعـدُ قليـلاً عـن هِيـاجِ المَعبـدِ، حتّـى لَحِـقَ بي اثنـان، وَصَـلاَ إلَيّ وهُمـا يَلهَثـان، التَقطَـا أنفاسَـهما، وقـال أحدهمـا: «أنـا (يُوحَنّـا) وهـذا

(أَنْـدراوُس)، نحـنُ مـن تلاميـذ يحيـى، وقـد رأينـاك يـومَ نهـر الأردنّ، ومـن يومِهـا وأنـتَ حديثُنـا، وإنّنـا لنأمُـل أن نجـدَ الله عنـدك»، وهتـفَ (أَنْـدَاروُس): «لا تحـزن يـا مُعلّـم؛ فنحـنُ نُؤمِـنُ بـك». فقلـتُ لهـما: اِتْبَعـاني.

(٣٣)

يا مُعلِّم؛ مَنْ وَهَبَكَ ذلك؟!

صِرنـا ثلاثـة؛ تشـكّلتِ النّـواة؛ لم تَكُـنِ الشّـجرة العِملاقـةُ الوارِفـةُ الظّـلال في البدايـةِ إلاّ بِـذرة؛ البـذرةُ حتّـى تنمـو وتُـؤتي ثِمارَهـا لا بُـدّ أنْ تُغيَّـبَ في جَـوفِ الثّـرى. البـذرة وُجِـدت والشّـجرةُ ستأتي. صعدنـا إلى الشّـمال، باتّجاه كفر ناحـوم، كانَ النّـاسُ قـد بـدؤوا يسـمعون بِنـا، هبـطَ علينـا اللّيـلُ مُبكِّـرًا أو هكـذا ظَنَنَّـا، فبحثنـا عـن مـكانٍ ننـامُ فيـه، وَجَدْنـا غرفـةً مَهجـورةً في إحـدى قـرى الجليـل القابعـة على الجبـال. نِمنـا فيهـا. بـدأ الحُلْم يتحقّـق، بـدأتِ الرّؤيـا تتّضـح. واللّيـلُ لم يَعُـدْ غِيابًـا صـارَ كَشْـفًا. والقلـبُ لم يعـدْ مثقوبًـا لقـد امتـلأ بالـرّوح.

صرتُ المنـارةَ للخاطِئـين، بَحـثَ عنّـي كُلُّ مَـنْ أراد أنْ يُغـيّر سـبيل الخطيئـة الّـذي اعتـادَ أن يسـيرَ فيهـا. في الصّبـاح اتّجهنـا إلى بُحـيرة طبريّـة، التـفّ حولنـا النّـاس، يريـدون أن يسـمعوا مِنّـي الهدايـةَ إلى الله. فقـال (أنـدراوس): «أنـا آخـذكَ إلى أخـي يـا مُعلّـم، هُـوَ يريـد أن يلقـاكَ أيضًـا». كانَ أخـوه سِـمعان بُطرُس قـد رابـطَ عنـدَ سفينتَيه على شـاطي البُحيرةِ لعلّـه يظفر بسـمكٍ ليُطعـمَ أهلـه. لكـنّ البُحـيرة كانـتْ كأنّـما ابتلعـتِ السّـمك فغـاص في باطـنِ الأرض، فلـم يصيـدوا ولـو سـمكةً صغـيرة. وقـال يوحنّـا سـتجد أخـي يعقـوب عنـده أيضًـا، إنّـه يعمـل في مهنـة صيـد السّـمك كذلـك. في الطّريـق ارتحنْـا قليـلاً فـوقَ صخـرةٍ ناتِئـة، شربنـا مـاءً بعـد أنْ بلـغَ بنـا العَطَـشُ مبلغًـا. قـال (أَنْـدراوُس): «في قلـبِ أخـي لـكَ تعظيـمٌ قبـلَ أن يـراك، فـماذا سيفعلُ إنْ رآكَ؟!». وقـال لي يوحنّـا كلامًـا قريبًـا منـه، ثُـمّ هَتَفـا: «هيّـا يـا مُعلِّـم فنحـنُ نريـد أن نلحـق بهـما قبـل أن

يشتدّ لهيبُ الشّمس». قلتُ لهما: «بِصَبْرِكُمْ تَمْلِكُونَ أَنفُسَكُمْ». نهضنا نقصِدُ البحيرة. تناقلَ الشّجرُ والبشرُ خبري، فتَبِعني خلقٌ كثير، كانوا يتقاطَرون إليّ من قُرى الجليل، وبعضِ النّاصرة، كان صوتي في النّاصرة ما زالَ يَرِنُّ في عقولِ عددٍ كبيرٍ من الّذين سَمِعوني، بعضُ الّذين أنكروا عليّ ما قلتُه هناك، نَدِمَ، وخرجَ يبحثُ عنّي، ما إنْ صِرنا على مقربةٍ من البحيرة، حتّى كان قد تجمّع وهو يمشي خلفي ينتظر أن أجلسَ لِيسمع أكثرُ من سبعينَ شخصًا.

وصلْنا إلى شاطِئ البُحيرة، كانَ بُطرُس قد بدا ضخمًا، متينَ السّبك، واسِعُ ما بينَ الكَتِفَين، أسمر، أنفُه عريض، وشفتاهُ غليظَتان، وبعضُ شَعَرَاتٍ شُهْبُ يتناثَرْنَ على صفحةِ لحيته مثلَ الإبر. وقد لفّ رأسَه بعُصابة الصّيّادين، ووقفَ على قَدَمَيه داخِلَ سفينته يرميَ الشّباك ليمتلئ بالسّمك، ثُمّ يسحبُهُ فلا يكادُ يَجِدُ فيه شيئًا، فيزفُر ويهتف في نَفسِهِ مُغاضبًا: أيّها الرّبّ إنّ بيتَ المساكين والجَوعى ينتظر أنْ تُعطِيَه بعضَ ما تملك. ثُمّ يُعِدّ الشّبكةَ للرّمي مرّة أخرى ولا يُحصِّل شيئًا، بدا مُتذمِّرًا نَزِقًا، صاحَ بصوتٍ مَسموع: أيّها الرّبّ حرمْتنا السّبتَ وآمنّا، فَلِمَ ترحمنا يومَ الأحد. إرحمْنا إنْ كانَ في قلبكَ شَفَقَة». ثُمّ إنّه نَزَلَ مِنْ سفينته، وجلسَ على الشّاطِئ كسيرًا حسيرًا. أمّا يعقُوب فكان أقلّ ضخامةً من سمعان ولكنّ عروقَ صدره كان يُمكن أن تُرى إذا اقتربْتَ منه، ويُمكن أن تتحسّسها بيدك، كانَ حنطيًّا لوّحتْه الشّمسُ لطول مُكثِه في البحر، يلبَسُ رِداءً حليبيًّا شابَه بعضُ الوسخ جرّاءَ العمل، وكانتْ لحيته كثّة وسوداء وناعِمة، شُوهِدَ أكثرَ من مرّة وهو يُمسِّد طرفها الأيمن بباطن كَفّه كما لو كان يُحاول أن يُخفِّفَ خيبةً من نوعٍ ما تَحُلّ به. حاولَ مرّتَين أو ثلاثًا أن يظفرَ بشيءٍ يقعُ في شِباكه فلم ينجح، فلم يُحاوِل غيرَها.

رَكَضَ (أندراوسُ) قبلي إلى السّفينتَين، وصاحَ بأخيه قبل أن يصل إليه: «يا بُطرُس... يا بُطرُس... هذا هو يَسوع الّذي تنتظره... هذا يَسوع الّذي حدّثتُكَ عنه». نهضَ بُطرُس كما لو لُدِغ، قفز، وقف على قدميه، وأحدّ النّظر إلى القادم باتّجاهه، غَطّى على عينَيه ليرى بشكلٍ واضِح، فرأى عَجَبًا، رأى قمَرًا يتبعه الخُطاة يلتَمِسون نورَه. تحرّك قلبُه من مكانه أوّل ما عاينني، اهتزّ فاهتزّتْ ساقاه، فَرِحَ، فاتّسعتْ ابتِسامته حتّى بانتْ أسنانُه البيضاء، ركَضَ باتّجاهي واحتضنني. انثني خُطوةً إلى اليمين، وخلفَ من بعده (يعقوب)، قال لي يُوحنّا: هذا أخي، وأبي هو زَبْدِي، وأشارَ إليه، إنّنا نعمل مَعه. رحّب بي يعقوب، قبّلَ جبهتي بهدوء، وتراجعَ بعد ذلك، أمّا أبوهما فظلّ يرقُبُ المشهدَ مِنْ بعيدٍ دون أن يحرّكَ ساكِنًا، رمقتُه أتفحّصُ هيأته، كانَ بعيدًا عن المدى الّذي يُمكنني فيه أن أستبينَ ملامحه لكنّه ذكّرني برئيس الدّير الّذي كنتُ أَعِظُ الخُطاةَ في ديره، وفي الدّيرِ نفسه التقيتُ يهوذا وباراباس، كان قد مرّ على هذا الحدث أكثر من خمسةِ أعوامٍ.

مضيتُ باتّجاه السّفينة، كانتْ تتهادَى على الشّاطِئ، تضربُها الأمواجُ فتتأرجحُ خفيفةً، صعدتُ إليها، فتجمهر النّاسُ على حافّة الماء، ووقفوا مثل نوارسَ تتشوّف إلى الماء ينتظرون أن يسمعوا منّي. فقلتُ: «أنتُمْ مُسافِرون كسُيّاح؛ أيتّخذُ السّائحُ لنفسه على الطّريق قُصُورًا وحُقولاً وغيرها من حُطامِ العالَمِ؟! كلاّ ثُمّ كلاّ. ولكنّه يحمِلُ أشياءَ خفيفةً ذاتَ فائِدةٍ وجدوى في الطّريق... لا تُثقِلوا قلوبَكم بالرّغائب العالَميّة قائلين: مَنْ يَكسُونا؟! أو مَنْ يُطعِمنا؟! بَلِ انْظُرُوا الزُّهورَ والأشجارَ مع الطّيورِ الّتي كَساها وغَذّاها الله». فسمعوا بقلوبهم ففتح الله فيها سبيلاً إليه، فخفضوا رؤوسهم كأنّهم يُقِرّون بما أسرفوا على أنفسهم، وكأنّ الخطيئةَ خيطٌ من الماءِ الدَّنِسُ ينزلُ من أسفل الذّقن لِمَنْ طأطأ رأسه أمام الله مُقِرًّا بذنبه.

ناديتُ على سِمعان بُطرس، فهُرِعَ إليّ، فهتفتُ به: هاتِ شِباكَكَ، واصعدْ معي في هذه السّفينة. فقال لي: إنّني منذ الصّباح أحاول ولم أصِدْ سَمَكةً واحدة. يا سمعان: ألم تُؤمِن؟! هَيّا هاتِ كُلّ ما لَديكَ من الشّباك، وخُضْ بِنا إلى وسطِ البُحيرة، فلمّا بعدنا إلى العُمقِ، ألقيتُ الشّباك، وقلتُ له بعجها: الآنَ ارفَعْ شِباكَك، فخانتْه قُواه وهو المفتول العَضَلات، فجاهدَ حتّى تمكّنَ من ذلك، فتبرطعتِ الأسماك في قعر السّفينة، تتقافز وهي تُقوِّسُ أذيالَها وتملأ الشّبكةَ كامِلةً. يا بُطرُس إنّه لولا رَبُّك لَما أعطاكَ الكونُ كُلُّه مجتمِعًا زِعنفةَ سَمَكةٍ واحدةٍ، ألقِ الشِّباك مرّة أخرى يا أُخَيّ. نَظَرَ إليّ هذه المرّةَ مُوقِنًا. ألقاها وضحكةٌ تُعطّر قلبه الطّريّ. ثَقُلَتْ بسرعة، جاهدَ في رفعها مرّةً واثنتَين، فلم يتمكّن، فنادَى على أخيه أنْدراوُس أن يُوافيه هو ويعقوب ويوحَنّا ابنَي زَبْدِي في السّفينة الأخرى. تردّدَ صدى صوته في أفقِ البحيرةِ، فارتجّ ماؤها لروحِ الإيمان فيه. نَظَرَ في عَينَيّ مُستَطلِعًا: يا مُعَلِّم؛ مَنْ وَهَبَكَ ذلك؟!

وصلتْ إلينا السّفينةُ الأخرى، بعدَ زمنٍ قصير كادَتا تغرقانِ بما فيهما من السّمك. صادًا ما يكفي لعام، أو ما يَكفي لأهل كفر ناحوم مُجتمِعين. وخزَ حبلُ الشّبكةِ يدَ سِمعان، قالتْ له: إنّها يَدُ الأنبياء؛ يدُ الله فوقَ أيديهم. لم يَسمعها، كانتْ أُذُناه لم تتعوّدا البُشرَى الرّسوليّة القادمة من الله. لكنّ يده نبضتْ بالحياةِ كأنّ الدّمَ الّذي فيها قد تجدّد.

عندما عادا إلى الشّاطِئ، قلتُ لسمعان: «هذا رِزقُ الله، فأعطِ الفُقَراء». «أأُعطِيه كُلّه». «اتبعوني وسأجعلكم تَصِيدُون قلوبَ النّاس». «أتبعكَ وأتركَ كُلّ ما لي في الدُّنيا». صرَخَ من الفرحة: «يا أندراوُس، يا يعقوب، يا يوحنّا... أتقبَلون أن تتركوا نَشَبَكُمْ وأموالَكم وأهليكم وتتّبعوا النّورَ الّذي جاء به يسوع». فقالوا كأنّما كانوا ينتظرون هذه اللّحظة: «حُبًّا بالله بلى».

صاحَ زَبْدِي في النّاس المُتجَمْهِرين على الشّاطِئ الّذين بدؤوا يأخذون ما تحويه سفينةُ ابنَيه: «خُذا ما في سفينةِ سِمعان يا إخوتي. هذا لي». قال له سِمعان: «لا تكُنْ طمّاعًا. أنتَ فرد وبطنُكَ تتقدّمك. وهؤلاء مساكين وجَوعَى». قال له ابنه يوحنّا: «إنّكَ حتّى لم تُكلِّفْ نفسكَ عناءَ الصّعودِ معنا في السّفينةِ يا أبتي؛ ففيمَ صارَ كُلّ ما على السّفينة من سَمَكٍ مِلكَكَ؟!». «إنّها سَفينتي» ردّ ضاربًا صدره بباطنِ كفّه بشيءٍ من الغضب.

شققتُ الطّريقَ بينَ النّاسِ وتَبِعني التّلاميذُ الأربعة. وحينَ أوشَكْنا على مُغادرةِ الشّاطِئ باتّجاه جِبال الجليل، صاح زَبْدِي من بعيد لابنَيه: «لِمَنْ تترُكاني يا يعقوب ويا يوحنّا». ردّ عليه يعقوب: «للسّمك، اشبَع به يا أبتي!!».

سارَ إلى جانبي سمعان، تأخّر عنّي خُطوةً، وهو يلحقُ بي، بدا ظِلاًّ لي، كانَ يُحاوِلُ أن يحميني. سرقَ الخُطوةَ مرّةً أثناءَ المَشي، وصارتْ شَفَتاهُ عندَ أذني: «يا معلّم». توقّفْتُ، نظرتُ في عَينَيه. كانَتا تَنطِقانِ بِرجاءٍ عميق: «ماذا لديكَ يا سِمعان؟!». «إنّها محمومة، تكادُ الحُمّى تقتلُها. وقد رأيتُ أنّ يدَيكَ مُبارَكتان هناكَ في البُحيرة، هلْ لكَ أنْ تَشْفِيَها». أنا لا أفعلُ يا سِمعان؛ إنّه الله». «يا مُعلّم؛ هلاّ ذهبْتَ مَعنا». «نعم يا مُعلّم؛ هلاّ عايَنْتَها» هتفَ بقيّة التّلاميذ. فمضينا باتّجاه القريةِ الّتي هي فيها. كانتْ مُمَدَّدةً في الفِراش، هامِدة، ترتعِدُ من شِدّة الحرارة، والعرقُ ينضحُ جبهتها، ولا تستطيع أن تفتحَ عينَيها من شِدّة الألم. اقتربتُ منها: يا أُخيّة؛ إنَّ مَنْ خلقَ كُلَّ شيءٍ قادِرٌ على أنْ يُزيلَ ما نزلَ بالإنسان من عارِض. باسم الله أسأله أن يرفعَ عنكِ ما أنتِ فيه». تململتْ في فِراشِها، كانتْ عيناها لا تزالُ مُغمَضَتين، توقّف ما كانَ يسيلُ على وجهها بسببِ الحمّى، ثُمّ نتقَ صدرها، خرجَ من فَمِها بُخارٌ دفقَتْهُ بسعلةٍ واحدة. ثُمّ سحبتْ يديها من تحت الغِطاء، واستوتْ

قاعِـدةً في فراشِـها. تلفّتَـتْ حولهـا، عرفـتْ سِـمعان. ابتسـمَ في وجههـا. أخـذ بيدهـا وأنهضَهـا. نظـرتْ إليّ وعيناهـا تقـولانِ ألـفَ كلمـةِ شُـكرٍ دون أن تتلفّـظ بواحِـدة. بَرِئـتْ كأنّ الحُمّـى كانـتْ حُلُـمًا!! بِتْنـا ليلتنـا تلـكَ عِندَهـم. خَدَمَتْنـا كأنّنـا أنقذناهـا مـن المـوت!!

في اللّيـلِ أخـذتِ الوسـاوِسُ تضطـرمُ في صَـدر سِـمعان، لقـد شـفاها بسـطرٍ واحـدٍ. مَـنْ هـذا الرَّجُـل: أَإلـهٌ أم نَبِـيٌّ أم سـاحِر؟! قعـدَ الشّـيطان بـينَ أُذنيـه، ونفـثَ فيهـما: «ليـسَ سِـاحرًا، أنـتَ تعـرفُ أنّ حماتَـكَ كانـتْ محمومـة، والسّـحر لا يُبطِـلُ المـرضَ بـل يزيـده؛ أليـسَ كذلـك؟!» «صدقـتَ» أجابـه. «وليـسَ نَبِيًّـا؛ فلـو كانَ كذلـك، لصـادَ سـمكةً أو اثنتَـين أو عـشرًا؛ أمّـا أن يصيـدَ مـا تعجـزُ سـفينتَين بكاملهـما أنْ تحمـلاه فليـس هـو بنبـيّ». «فـما هـو إذًا؟!!». «إلـه.. إلـه.. اُنظُـر إليـه، إنّـه يُعيـد الذّاهبـين في المـوت إلى الحيـاة... إنْ كنـتَ شـاكًّا فراقِبـه غـدًا مـا يصنـع». نـامَ سِـمعان وصـوتُ الشّـيطان يركـضُ في أذنيـه.

في الصّبـاح، اجتمـعَ عـلى البـابِ نـاسٌ كثيرون، جـاؤوا مـن كُلِّ حَـدْبٍ وصـوبٍ، الأخبـار في القُـرى لا تَسـتقرّ عـلى الأرض إنّهـا تطـير في الهـواء. كُلُّ شيءٍ يُشـارِكُ في جعـل الخـبر عـلى كُلِّ لسـان. لم يبـقَ مـن سـقيمٍ إلاّ وقدّمـوه إليّ. بـدا الهُـروبُ مـن هـذا الفـخّ الّـذي وقعـتُ فيـه مُسـتحِيلاً. وقفـوا في صَـفٍّ طويـل، مِـنْ بعيـد بَـدَوْا مـع أهليهـم يائسـين كأنّ همـومَ الكـونِ كُلّهـا قـد تجمّعـتْ هنـا. تقـوّس أحدهـم مـن شـدّة النّزيـف الّـذي يُعـاني منـه في مَعِدتـه، نهـشَ آخـر جسـده بأظافـره فسـال منـه الـدّم، ظـلّ ثالِـثٌ يضـعُ يـده عـلى فَمِـه ويضغـطُ بِقـوّة عليـه حتّـى لا تخرجَ صيحاتـه الّتـي لا تتوقّـف، ظـنّ أنّـه إنْ لم يفعـل ذلـك ويكتـم صوتـه بالقـوّة فلـن أُعالِجـه، كانـتْ عينـاه لانكِتـام نفسـه تُبْـرّزان إلى الخـارجِ وهمـا تـكادان أن تنفجـرا لامتـلاء أوعيتهـما بالـدّم، فبـدأتُ بـه، قـرأتُ عليـه مـن كلـماتِ الله فهـدأ نحيبُـه، وسـكنَ صوتُـه، وتوقّـف صِياحـه، وعـاد إلى وجهـه إشراقُـه،

وبدا حَمَلاً وذيعًا من بعدُ. ثُمّ مررتُ بهم واحِدًا واحِدًا، أمسحُ على كلّ رأسٍ فَيَبرأُ صاحِبُه للتّو. كانَت الصّيحاتُ تملأ المكان، فرحُ أحدِ الآباءِ بشفاء ابنٍ له عانَى من المرضِ عشرَ سنين كانَ فوق الاحتِمال، فَنَدَّتْ منه صرخةٌ عظيمة، وبكى بعدها بُكاءً حارًّا. اختلطتِ الأصوات. صوتٌ ما سَمِعناه يقول لي: «أنتَ المسيحُ ابنُ الله» نَهَرْتُهُ بِشِدّة، ليس لله ابنٌ قطّ. لم أتحقّق من مصدرِ الصّوتِ أكانَ إنسيًّا أم جِنّيًا؛ آخرون أيضًا سَمِعوه مَعَي؛ هتفتُ بهم: إنّما أشفي بإذن الله؛ فمن أرادَ أنْ يقولَ غيرَ ذلك، فليَبُؤْ مرضٍ لا شِفاءَ له!!

(٣٤)

لولا الحُروبُ الّتي تُخاضُ لهلكَ النّاس!!

صارتْ عَرَبةُ الخِيانةِ تُغادِر من شمال الأردنّ حيثُ قصر فيلُبُّس إلى الجنوبِ الغربيّ في الجليل حيثُ قصرُ (أنتيباس) في الأسبوعِ مرّتَين أو ثلاثًا. تدخل الأفعى إلى القصر المُنِيف، تَتثنّى، يقول لها: «أيّكما الأجمل: أنتِ أم ابْنتُكِ؟!». فتُجيبه: «الأقدر على إمتاعِكَ في الفِراش». فيسألها: «أيّكما الأروع في الرّقص: أنتِ أم هِيَ؟!». فتُجيبه: «الأقدرُ على عدمِ تحويل عينَيكَ عن لَهيبِ الجسد». ويَضحَكانِ وهما يدخلانِ المَخدَع.

«مَلَلْتُ من البَغل الرّابِضِ في الشّمال». قالتْ له مرّة. «وَمَنْ يَحتمِلُ بَغْلاً؛ أنا أخوه وأعرفُه، إنّه لا يصلحُ إلاّ للأكل». «فكيفَ نسلتُما من بطنٍ واحدة؟!». «ومَنْ قال لكِ ذلك، إخوتي نَسَلوا من مئاتِ البُطون يا هِيروديّا». فتضحكُ مِلْءَ شِدقَيها. وتضيفُ في آخر خيطٍ من ضحكتها الفاجِرة: «سأسْكُن عندكَ وأترُكه». فيقرَع معها كأسهما العاشِرة: «الآنَ تأكّدتُ مِنْ حُبّكِ لي». فتُجيبه بدلالٍ فاضِح: «ليسَ في نظري رجلٌ غيرُك». وشاعَ أمرهُما حتّى فشا في أنحاءِ المعمورةِ كُلّها!!

تحوّلتْ نهاراتُه إلى ليلٍ، ولياليه إلى حمراء. وانشغلَ بها عن أمور المملكة، ولم يكُنْ في مَقدورِ أحدٍ أنْ يُكاشِفه. قلّتْ خزينةُ الدّولة، لم يحظَ الجيشُ بالإنفاقِ عليه منها بِقَدْر ما حَظِيَتْ به (هيروديّا). أصابَ العَرَجُ بعضَ مرافقِ الدّولةِ بسببها. لم يقل أحدٌ لأنتيباس شيئًا، لم يكنْ أحدٌ يجرؤ. الجميع فئرانٌ أمام القِطّ الكبير. غالِبًا ما يُكلّف قولُ الحقيقةِ عندَ الطّغاةِ

رأسَ القائـل. هِـيَ تجـرّأتْ وقالـتْ لـه: «نِصفُ خزينتـك صـارتْ في جيبـي، أمامـكَ خيـاران لِتُعـوِّضَ الخسـارة يـا حبيبـي: إمّـا أن تزيـدَ العُشُـور، وإمّـا أن تَدخُـلَ حَرْبًـا ولـو مـعَ الشّـيطان، فالانتصـار فيهـا يُخوِّلُـكَ أنْ تنهـبَ مُقـدّرات الدّولـة المهزومـة». ضَحِكَ وهـو يسـمع كلامهـا: «لقـد صرتِ خبيرةً في موازيـن الـدُّوَل يـا امـرأة». يتوقّـف، ثُـمّ يُتابِـع: «لكـنّ صـدرَكِ المرمـيّ يسـتحقّ كُلّ مـرمـر الدّولـة، وشـعركِ الذّهبـيّ يسـتحقّ كُلّ ذهـبِ الدّولـة». «ومـاذا سـتفعل يـا حبيبـي؟!». «سـأتّبع النّصيحتَـين معًـا». وتنفجـر منهـا ضحكـةٌ عارِمـة ترتـجّ لهـا أعمِـدةُ القـصر وهمـا يُغـادِران إلى مَخدعِهـما.

دخـل عليـه قائـدُ الجُنـد بكامـلِ لِباسِـه العسـكَريّ، انحنـى راكِعًـا بـين يديـه:

- قُوّاتنا جاهِزةٌ يا مولاي.
- فَابْـدأِ الحـرب. الدّولـةُ لا تُبنَـى عـلى سـيفٍ مُغمَـد ولا عـلى رُمـحٍ مَركـون. لـولا الحُـروبُ الّتـي تُخاضُ لهلـكَ النّـاس!!
- سيّدي؟!
- وماذا هنالك؟!
- أمرٌ من المُفيدِ أنْ أقوله.
- تكلّمْ أيّها القائد، تكلّمْ.
- هناكَ رجلٌ خارِجٌ عن سلطةِ الدّولة يُثيرُ بعضَ الشّعب.
- أتريـدُ أن ينفـدَ صبري؛ قُلْ كُلّ مـا لديـكَ دُفعـةً واحـدة، مَـنْ هـو، ومـاذا يفعل؟!
- إنّـه رجـلٌ يهـوديّ يـا سـيّدي يُدعَـى يحيـى، دمّـر النّسـر الرّومـانيّ قبـلَ أشـهرٍ في أورشـليم.
- وماذا فعلَ له (بيلاطس) حاكم اليهوديّة؟!

- لا شيءَ يـا سـيّدي، فقـط أعـادَ نَـسْرًا جديـدًا إلى مكانـه، ووجّـه تحذيـرًا عامًّـا لليهـود مـن أنْ تتكـرّر الحادِثـة؛ لكـنّ الأدهـى أنّ يحيـى هـذا تمـادَى في فِعلـه، فامتـدّتْ يـده إلى النّسـور الرّومانيّـة المُقامَـة عـلى المعابـد في المناطـق الخاضِعـة لسُـلطَتِنا.
- أوَ يجرُؤ؟! (وقفَ مُستَفَزًّا).
- لقد فعل يا سيّدي.
- ائتوني به؛ أريدُ أن أراه راكِعًا تحتَ قَدَمَي.
- أمرُ جلالتِكَ.

بحثَتْ عنه حامِيةُ الجليل في كلّ مكانٍ، كانَ صوتًا صارِخًا في البريّة في كُلِّ أُذُنٍ تَسمَع: «تُوبوا إلى الله فقد اقتربَ مَلَكوتُ السّماءِ». كانَ يحيَى رجلاً سماويًّا مُصطَفًى، اتّخذ منهجَ القُوّةِ في التّغيير، سَمِعَ عنه يهوذا فأعجبه، بحثَ عنه، فلم يهتدِ إليه، كُلّما أوشكَ أن يلتَقِيَه ذابَ في أيكةٍ الحياةِ كأنّه طيفٌ أو شبح. وحينَ يقفُ على ضِفّة النّهر الّذي كان يقفُ عليها، يكونُ قد غادرَ إلى الضّفّة الأخرى، ولم يَبْقَ منه إلاّ كلماتُه الّتي تسبح في الفضاء برائحة السّيف والنّار. أرادَ يهوذا أن يَرَى هذا الّذي يصرخُ في العُصاة: «يا أولادَ الأفاعي، أينَ تهربون من الغضبِ الآتي، نارُ الخطيئة ستلتهمكم؛ والآنَ قدْ وُضِعَتِ الفأسُ على أصلِ الشّجر؛ فكُلُّ شَجَرَةٍ لا تصنعُ ثَمَرًا جَيِّدًا تُقطَع وتُلقَى في النّار... وأنتُم أيّها الخاطِئون إنْ لم تصنعوا ثمرًا صالحًا بالتّوبة فإنّ الجحيم في دَرَكاتِه السّبع ينتظركم»... ويظلّ يمشي بين القُرَى والجِبالِ والآكامِ يُنادَي بذلك، ويصدع به. كان لِباسُهُ الخَيْش، وطَعامه الجَراد، وبيتُه الجِبال، ومَبيتُه البراري.

عثـرَ عليـه الجُنـودُ الرّومـان نائِـمًا تحـتَ ظِـلّ شـجرةٍ في أحـدِ جبـال الجليـل، قـد توسّـدَ حجـرًا ينـامُ عليـه كمِخَـدّة، فتَـحَ نصـفَ عينَيـه لـيَرى مئـةً مـن الفُرسـانِ الرّومـان يُشّـكلون غابـةً مـن الرّمـاحِ فـوقَ رأسـه، اعتـدَلَ بهـدوء، وجلـسَ عـلى الحجـر الّـذي كان نائِـمًا عليـه، وأسـندَ ظهـره إلى جِـذع الشّـجرة، ومـدّ إحـدى سـاقَيه، وأقـام الأخـرى أمـام صـدره، وقـال كمـنْ يتحـدّثُ إلى صديـق: «لِمَ كُلّ هـذه الضّجّـة، كان يُمكـن لأنتيبـاس أن يبعـثَ جُنديًّـا واحِـدًا وأنـا آتي إليـه، لقـد كنـتُ أنتظـرُ هـذه اللحظـةَ مـن زمـنٍ طويـل». فتعجّبـوا مـن صنيعـه، ثُـمّ تقـدّم إليـه قائـدُ المِئـة، يُريـد أنْ يُوثـقَ يدَيـه، فقـال لـه يحيـى بحـزم: «أتـرى هـذا السّـيفَ الّـذي تتقلّـدهُ أنـا قـادِرٌ عـلى أن أضعـه في عنُقِـكَ الآن. تراجَـعْ قبـلَ أن أفعـل». نفـذتِ الكلـماتُ إلى صـدر القائـد أشـدَّ مـن السّـيف، تحسّـسَ الـدّرع المركـوزة عـلى صـدره كأنّهـا اخترقتْـه، ثُـمّ تراجـعَ كـما قـال لـه. «الآنَ أعطُـوني فرسًـا وأنـا آتي معكـم».

بـدا وهـو يدخـل بهيئتـهِ الرّثّـة قاعـةَ العـرش نُقطَـةً تمـشي في عـينِ الشّـمس، وشـمعةً يتأرجـحُ لَهَبُهـا في الظّـلام. ازْدَراه (أنتيبـاس) أوّلَ مـا رآه، فلـمّا اقـتربَ كـفّ عـن ازدرائـه، فلـمّا صـارَ في مرمَـى العـين تحـرّك في قلبِـهِ شيءٌ مـا تُجاهـه، فلـمّا صـار مِـلْءَ النّظـر شـعرَ بِـوُدٍّ لـه يُحاصِرُ مشـاعرَه. أشـارَ للحارِسَـيْن اللّذيـن يَقِفـانِ خلفـه أن يبتَعِـدَا. فامْتَثَـلا عـلى الفـور. قـال لـه: «مـا حَمَلَـكَ عـلى أَنْ تصنَـعَ مـا صَنَعـتَ؟!». «أردتُ الخـيرَ لـك». «الخـيرَ لي؟!». «بَـلى، أتَـرَى كُلَّ هـذا الطّيلَسـان، يومًـا مـا سيُصبِحُ ترابًـا. كثـيرٌ عـلى مَـنْ يريـد الباقِيَـة أنْ ينـامَ مـع الـكِلاب؟!». ضَحِـكَ (أنتيبـاس)، قـال لـه وضَحِكتُـه تُواصـل ارتفاعَهـا: «أنـتَ أحـدُ أمريـن؛ إمّـا مجنـون أو مُهـرّج». «الجاهِـلُ بجهلِـه يُوصِـلُ عُنُقَـه إلى السّـيف». غَضِـبَ (أَنْتيبـاس) مـن جـرأةِ هـذا الّـذي يقـفُ أمامـه، لكنّـه عَـدَلَ عـن فِكـرة أنّـه مجنـون، داهمَـه يحيـى في غمـرةِ انشِـغاله بالتّفكـير فيـه: «الغَضَـبُ

نـارٌ تتقاذَفُهـا الرّيـح وأوّلُ مـا تبـدأ بصاحِبهـا». فرجفَ الملك. شـعرَ أنّ شـيئًا مـا يتغـيّر فيـه مـن جـرّاء مـا يسـمع، سـأله وحيرتُـه تأكُلُـه: «أأَنْـتَ نَبِـيّ؟!». «بـلى». «ومـا مُعجِزتُـك؟!». «إذا أردتَ الخـيرَ لنفسِـك فـلا تطلُـبْ مُعجِـزةً مـن نبـيّ؛ العُقـلاء لا يحتاجُـون مُعجـزاتٍ، العُقـلاء تكفيهـم الكلمـة، أمّـا أولئـك الّذيـن يُفكّـرون بعيونهـم فهـم الّذيـن يطلبـون المُعجِـزات ثُـمّ بعـدَ رؤيتهـا يسـتَنكِفونَ عـن تصديقهـا؛ أتعـرفُ لمـاذا يـا (أنتيبـاس)؟! لأنَّ المسـافةَ بعيـدةٌ بـين العـينِ والقلـب». تثلّجـت الكلـمات عـلى فَـمِ المَلِـك، أرادَ أن يَقـول... أن يقـول أيّ شيءٍ فلـم يسـتطعْ، بعـدَ صمـتٍ حديـديٍّ ثقيـل، اسـتعادَ القـول. تحرّكـتْ شـفتاه أوّلاً تُغالِبـان الانجِـهادَ الّـذي حـدثَ للتّـو، ثُـمّ خـرج صوتُـه مـن بعـدُ، قـال لقائـد الحـرس: «خُـذْه إلى السّـجن، لا أريـدُ أنْ أحكُـمَ في أمـره اليـوم».

الكلمـةُ الصّادقـة، مثـلَ البـذرة الصّالحـة، تحتـاجُ إلى أرضٍ صالحـةٍ لكـي تُثمـر؛ فهـل كانـتْ أرضُ (أَنْتِيبـاس) صالحـة؟! وكيـفَ وهـي غارِقـةٌ في الشّرور؟! الشّرور قِشرة، لا تصمـدُ أمـام البِـذرة الصّالحـة وهـي تشـقُّ طريقهـا مـن ظَلماتهـا إلى عَليائهـا حيـثُ النّـور.

لم ينـمْ (أَنْتِيبـاس) ليلتـه. جـاءه قائـد الحـرس يُخبره أنّ (هيروديّـا) في الطّريـق إليـه، قـال لـه: لا تَدَعْهـا تدخـل، لسـتُ في مِـزاجِ حسـنٍ لكـي أرى النّسـاء هـذه اللّيلـة ولـو كانـت آلهـةَ الحُـبّ نفسَـها. أُخـرجْ مـن هنـا، لا أريـد لأحـدٍ أنْ يدخـل عـليّ. تقلّـبَ في فِراشِـه الوثـير، لم ينـمْ. فكّـرَ بالأشـياء الجميلـةِ في حياتـه، فلـم يسـتطعْ أن يسـتحضِرَ شـيئًا. لـفَّ رأسـه بِوسـادةِ الرّيـش النّاعِمـة لكـي تنـامَ عينـاه، لكنّـه ظـلّ مُسـتَيقِظًا. خُيّـلَ إليـه أنّ يحيَـى يقـفُ أمامـه في الغُرفـة. ارتعـش. نهـضَ مِـنَ السّريـر كالمَلسُـوع، قبـضَ عـلى المِشـعل، أضـاءَ ذُبالتـه، بـدا الضّـوء باهِتًـا مريضًـا، فمرضـتْ بـه أرجـاءُ الغرفـة. غرفـةٌ كئيبـةٌ بـارِدةٌ غَشّـاها ظـلامٌ كثيـف لم يسـتطعْ ضـوءُ المِشـعلِ أنْ يُزيـلَ كُلَّ أسـدافِها. تطلّـع حولـه مَرعوبًـا.

رأى شبَحَ يحيى من جديد. عدا على السّيف المُعلّق على جدار الغرفة، ولوّح به في الهَواء، وهتفَ وهو يشدّ على حروف الكلمة: أستطيعُ قَتلكَ إذا شِئت. تبسّمَ الشّبحُ في وجهه. ازدادَ رُعبُه، طوّح السّيفَ بيده يمينًا وشِمالاً وتقدّم كالمصروع ناحيةَ الشّبحَ وأغمدَ فيه حدّ السّيف، فما وجدَ غيرَ الهواء. صرخَ صرخةً عاليةً شقّتْ سُكُونَ القَصْرِ كُلّه، سَمِعها الحُرّاس على الأسوار، والمَحظيّاتُ في الغُرَف، والخَدَمُ في مهاجعهم، والخُيُولُ في إسطبلاتِها. فالتفتَ كُلُّ مَنْ كانَ مُستيقِظًا جهةَ الصّوتِ وقد بدأ يستطلع عنه وعن مصدره وسببه؟! هُرِعَ إليه رَئيسُ الحرس، اقتحمَ عليه غُرفتَه:

- ما بِكَ يا سيّدي؟!
- هل يحيى ما يَزال في السّجن؟!
- بلى يا سيّدي.
- فمن هذا الّذي يقفُ هناك؟!
- أين؟!
- هُناكَ أيّها الأعمى؛ ألا ترى؟!!
- لا أرى شيئًا يا سيّدي.
- لا تراهُ لأنّكَ لم تَسْمَعْه مِثلي!!

زمَّ رئيسُ الحرَسِ شفتيَه، وهتفَ في نفسه: لا بُدّ أنّه أفرطَ في الشّراب. كان قد هدأ بعد مُخاطبته لرئيس الحَرَس، أمسكَ بيديه وأوصله إلى السّرير، وقال له كأنّما يُخاطِبُ طِفلاً: «نَمْ يا سيّدي، فاللّيل ما زال في أوّله». قَبَضَ على يديه مثلَ مَنْ لا يُريدُ أن يتركها، ونظر في عينَيه وقال له برجاء: «ائتني بالشّراب، أريدُ أن أتداوى من هذه الهلوسات الّتي تُصيبني».

في الصّباح بدا أنتيباس مخطوفَ اللّون، لم تستطِع ثيابُ المُلكِ الزّاهية أن تُخفي شُحُوبَ وجهه، كانتْ عيناهُ وردَتَين حمراوَين ذابِلتَين،

واضِحٌ أنّ النّـومَ لم يزُرْهـا لحظـة. قـال لرئيـس الحـرس: «دعْ يحيى يدخُل؛ جِـيْءَ بـه مُقيّـدًا. أشـار إليهـم أنْ يَفكُّـوا قيـدَه. قـال لـه:

- ألا تَستعطِفني لكي أُطلِقَ سراحَك؟!
- أُنظُـرْ إلى عينَيـك اسـتَعطِفْهما أوّلاً لكـي يَـترُكاك تنـامُ ولـو سـاعة. وانظُـرْ إلى قلبِـك استعطِفه لكـي لا تَـرَى الأشـبحَ في اللّيـل.
- ومَـنْ أدراكَ يـا يحيـى أنّنـي لم أنـمِ اللّيـل؟! أفكنـتَ معـي هنـاك؟!
- كلاّ، ولكـنّ مَـنْ بعينيـه قـذًى أنّـى لـه أن ينـام، ومَـنْ في قلبـه الشّـوك أنّـى لـه أن يرتـاح.
- تتكلّمُ كلامًا غريبًا، لكنّه مُقنِع.
- إنّه كلامُ الأنبياء يا (أَنْتِيباس). وإنّي ناصِحُك.
- إنّي مُصغٍ؟!
- كُفَّ عن إدخال الأفاعي إلى جُحُورِك.
- ماذا تَقصِد؟!
- (هيروديّا). لا تحلّ لك. أتنكح زوجةَ أخيك!!
- وما شأنُكَ أنت؟!
- أنـا أضـعُ بيـنَ يديـكَ حُكـمَ السّـماء. وإلاّ؛ أتـرى هـذا القصـر المُنيـف الّـذي تتباهـى بـه؛ لَيَنْهَدِمَـنّ عـلى رأسِـكَ حجـرًا حجـرًا، ولَتَنْدَفِنَـنَّ أنـتَ وحاشِـيَتُكَ وكُلّ بغايـاكَ تحـتَ رُكامِـه.
- أفتهدّدني أيّها الرّاعي اليَهوديّ.
- أنا أنصحُكَ فحسبُ؛ فالكلمةُ هِيَ كُلُّ ما أملك.

صاحَ بالحرس: «خُذُوه إلى السّجن قبلَ أنْ ينقُب فؤادي». تباطأ بعضُ الحرس؛ كانتْ كلمات يحيى قد أخذتْهم إلى عالَمٍ بعيد، لم يروا في حياتهم كائنًا بشريًّا حتّى ولو كان مَلِكًا أو مَلاكًا يستطيع أن يُخاطِبَ (أنْتِيباس) بهذه الطّريقة. همسَ أحدُ الحرسِ في نفسه: «حَتّى الآلهةُ ليس في مقدورها أن تقفَ أمام عظمةِ أنتيباس وتُخاطِبَه على هذا النّحو». صرخَ (أنْتِيباس) بهم مرّةً أخرى: «لماذا لا تذهبوا به سريعًا من أمامي؛ ألم تسمعوا أيُّها الحمقى».

اقتيدَ يحيَى في عَربةٍ خاصّةٍ ليُحمَل إلى السّجن، السّجن الّذي أُعِدَّ لاستقبالِهِ كان قلعةً تقع على تلّة عاليةٍ مُشرفةٍ على نهرِ الأردنّ من الجهةِ الشّرقيّة في بلدةِ (مكاور).

شدَّ الحُوذيّ السّيورَ المَمدودةَ إلى يدَيه من أعناقِ الحِصانَين اللّذَين يجُرّانِ العربة فانطلقتْ تنهبُ الأرض. خلفهما عَدَتْ مجموعةٌ من الفُرسان مُكلّفةٌ بحراسة السّجين حتّى يتمّ تسليمه إلى قلعة (مكاور). قالتِ حجارةُ الطّريق للعجلاتِ وهي تدور فوقَها بسرعة: «تمَهَّلْنَ قليلاً أيّتُها العَجَلات حتى لا تُؤذينَ هذا النّبيّ الكريم». ردّتْ عليها العجلات: «وأنتُنّ أيّتها الحَجارة تَخَلَّصْنَ مِن نُتوءاتِكُنّ حتى لا نتقافز فوقَكُنَّ فَنُؤذي هذا القِدّيسَ الّذي نحمله».

(٣٥)

وقالَ نِسْوةٌ في المدينة

«البَغِـيّ لا تولَـدُ إلاّ مـن بَغِـيّ ولا تَلِـدُ إلاّ بَغِيًّـا» قالـتْ حاقِـدةٌ. «لـو كان في زوجِها شَرَفٌ لَما تَرَكَها نَهْبًا لأخيه الجَشِع؛ ألا تَكفيه مئاتِ المَحظيّات اللّـواتي يَعِشْـنَ في قَـصرِه كالنّمـل!!» قالـتْ غاضِبـةٌ. «ولكـنّ شَرفَ المُلـوكِ فُروجُهـم» قالـتْ عالِمةٌ. «عينُ النَّهِـم لا تَشبَع» قالـتْ مُجَرِّبـةٌ . «إنّ النّسـاء يُغوين الحجارةَ لـو أَرَدْنَ فلا تَقـولي لي مَلِـكٌ أو عَبـدٌ» قالـتْ عارِفـةٌ. «هيروديّا آنَ لي أنْ أحتـلَّ مكانـك فَتَنَحَّـيْ جانِبًـا» قالـتْ مُنتظِـرةٌ.

شـاعَ في اليهوديّـة والسّـامرة وكلّ أنحـاءِ فلسـطين مـا تفعلـه هيروديّـا، بـل لقـد وصـلَ الأمـر أنْ تحدّثـتْ بـه النّسـاء في حـوران ودمشـقَ وبيزنطـة. راقَ لهيروديّـا أنْ أصبحـتْ حديـثَ المحافِـل، ورأتْ أنّ فِتنتَهـا الآن صـارتْ مُضغـةً في أفـواه الكثيرات، الملـكات العظيـمات، والأميرات المنتشرات في أنحـاء المعمورة، وحتّـى الفلاّحـات وسـاكِنات القُـرى والرّيـف والجِبـال. إنّهـا المـرأةُ الأكثـرُ قـدرةً وجـرأةً في الآن نفسـه؛ الأكثـرُ قـدرةً عـلى إغـواء أعظـم ملـك، والأكثـر جـرأةً في أنْ تـتركَ مَلِـكًا مـن أجـلِ مَلِـك!! ومَـنْ يَكُـون المَلِـكان؟! أَخَـوان!!

هبطَ الغـروبُ عـلى القَـصرِ الّـذي يتّكِـئُ عـلى كَتِـف أحـدِ جِبـال الجَليل؛ القـصرِ الأكثر أُبّهـة، والّـذي اتّخذه (أنتيبـاس) مكانـه الدّائـم للعيـشِ والحُكـم، وإنْ كانـتْ لـه عـشرةُ قُصُـورٍ أخرى يُـراوِحُ بينَهـا إذا مَـلّ الإقامـة هنـا في الجليـل، كان لـه قـصرٌ في أريحـا يقـضي فيـه بعـضَ شـهور الشّـتاء، ليتّقـي البـردَ وعزيـفَ الرّيـاح الجبليّـة، وليرتـاحَ كذلـكَ مـن ضجيـج المعارك، المعارِكُ في الشّـتاء تأخـذُ

هُدنةً؛ ففي هذا الفصل يميل الجسد البشريّ إلى النّوم والخُمول، وتقلّ فيه الشّهوةُ إلى الدّماء، وتضعفُ غريزةُ الإنسانِ إلى نَهشِ لَحمِ أخيه الإنسان. في الصّيف تَتنامَى هذه الغريزةُ الحَيَوانيّة فيدخُل الحروبَ إذا قامتْ، ويفتعلها إذا لم تَقُمْ!!

دخلتْ عليه (هيروديّا) بكامِل زينتها. أعطاها ظَهره. ابتسمتْ: «الرّجال في بعضِ الأحيان أطفالٌ يحتاجُون إلى الدّلال». غنَجَتْ بعد أنْ أكملتْ حديثَها لنفسها، ومضتْ إليه بساقَين يسيلُ عليهما بريقُ الإغراء. جلستْ إلى جانِبه. لم يُكلّمْها. مدّتْ يدها فمسحتْ على شعرِ رأسِهِ الكثيف، وراحتْ تلعبُ به وتُغنّي. لمْ يُعِرْها اهتِمامًا. قالتْ في نَفْسِها: «الجائزةُ تحتاجُ إلى صبرٍ عميق». هبطتْ بيدها الطّريّة من رأسهِ إلى صَدْرِه، مَسَحَتْ على غابةِ الشّوكِ المزروعةِ هُناك، ومرّرَتْ أصابعَها بين هفهَفاتِها. لمْ يُحرِّكْ ساكِنًا. همّتْ بأنْ تَصْرُخَ في وجهه: أأنْتَ حجر!!». تراجعتْ في اللّحظةِ الأخيرة، وأعادتِ العبارة الأولى في نفسها: «الجائزةُ تحتاجُ إلى صبرٍ عميق». وأردفتْ: «حتّى نحنُ الملوك محتاجون إلى الصّبر لكي نحصلَ على ما نُريد!!» ثُمّ تابعتْ حديثَها مع نفسِها: «لو فقدتُ الصبر لفقدتُ الجائزة». همَسَتْ في أذنَيه كلماتٍ هاوِيات، فلم تتحرّك له ذرّة، كأنّما همستْ في أُذنِ صخرة. قرّبتْ شفَتَيها من رَقَبتِه، ففزّ في هذه اللّحظةِ قائِمًا:

- يا هيرودِيّا أنتِ لا تفهمين ما حصل؟!

همّتْ أن تقول: أَسْتَيقظَ الشّرَفُ في نَفسِكَ أيّها الماخور؟!». لكنّها تراجعتْ، فأجابتْ ببلاهة:

- وماذا حصلَ يا حَبيبي!
- لقد جاءَني رَجُلٌ.

هَمّتْ أن تقول من جديد: «أَصِرْتَ تشتهي الرّجالَ يا حبيبي». لكنّها تراجعتْ وظلّتْ صامِتة. فأكملَ هو:

- إنّه يَقولُ كلامًا عجيبًا.
- جميلٌ... ولكنْ ما شأنُ علاقَتِنا بكلامه العجيب؟!
- إنّه يَقول إنّكِ لا تَحِلّين لي!!

انفجرتْ هيروديّا ضاحِكةً حينَ سَمِعَتْ من (أنتيباس) الجملةَ الأخيرة، أحسّتْ أنّها تجلسُ مع طِفل، لم تتمالكْ نفسَها وتابَعَتْ قَهقهاتِها العالِية دون أن تتوقّف، بل لم تستطعْ أن تتوقّف، فضغطتْ بيدها على بَطْنِها وانْحنَتْ لكي تُوقِفَ سيل القهقَهاتِ الهادِر الّتي ارتجّ لصداها المُجلجل هواءُ الغرفة. وقفتْ وعيناها تدمعان من الضّحك.

- أنا لا أَحِلُّ لك... قلتَ لي (هَزَّتْ رأسَها) ولكنْ هل تستطيع أن تُعرّفَ لي هذه الكلمة؛ فأنا لم أفهم، اعذُرْ حُمُوضةَ عقلي!
- أنا لا أرغبُ في أنْ أجرحَ كرامةَ أخي.
- كرامةَ أخيك؟! وأينَ كانتْ كرامةُ أخيكَ طوال عَشَراتِ المرّاتِ الّتي واقَعْتَني فيها... هه؟! قُلْ لي أيّها الشّريف الّذي استيقظَ ضميرُه فجأة... قُلْ لي؟! أمْ أنَّ الشّراب نَخَّلَ جسدَك فلمْ تَعُدْ قادرًا على مُواقعة النّساء؟! هه.. قُلْ لي؟! أمْ أنّكَ وجدتَ امرأةً أخرى؛ جسدًا آخر أفتى من جسدنا فأغواكَ أكثرَ مِمّا نُغويك، ووجدتَ عندها ما لَمْ تَجِدْ عِندَنا.... (تصمِت) اممم لعلّي لم أتزيّن لك كما يَجِب!! هه، قُلْ لي... قُلْ لي ما السّبب؟!
- لا هذا ولا ذاك، ولا شيئًا مِمّا قلتِ.

- فلماذا تُريدُ أن تتركني؟!
- قلتِ لك، لأنّكِ زوجةُ أخي.
- عُدْتَ إلى الهُراء والهَذَيان.
- ليسَ هُراءً، فَمَنْ قال ذلك لي نَبِيّ. أنا لا أهذُر يا (هِيروديّا)، لو وقفتِ أمامه، لتبدّلتْ ضَحِكاتُكِ الفاجرةُ الحاقِدةُ هذه إلى بُكاء.
- نَبِيّ؛ ومَنْ يَكونُ هذا الشّقيّ الّذي يُقنِعُ مَلِكًا بأنْ يترُكَني؟!
- اسمعي له لعلّكِ تَكُفّين عن جُنونِك.
- أنا لا أستمع إلى مَعاتيه، لكنْ قُلْ لي ما اسمُه؟!
- يَحيَى.
- يَحيَى!! يَحيَى مَنْ؟!
- يَحيَى بْنُ زكريّا.
- آه... آه... ابنُ زكريّا كاهنُ المَعبد في أورشليم.. قُلتَ لي... لمْ يبقَ إلاّ هذا الدّعيّ ليسرقكَ مِنّي.. أنا أعرفُ ماذا أفعل.

نهضتْ مِنَ السّرير غاضِبة. غادرتِ القصرَ شِبهَ عارية. لم تنتظر حتّى تُغطّي سوءاتها. ركبتْ في إحدى عربات القصر. أمرتِ السّائق أن يتّجه إلى قصرٍ صغيرٍ وَهَبَه لها (أنتيباس) في إحدى لياليه الحمراء، كانَ القصر يقع في الجليل الأعلى قربَ كفر ناحوم. في الطّريق أكلَ الحِقدُ قلبَها، مَضغَه بكلّ أنيابه السّبعين. لَمْ يَعُدْ لديها من شُغلٍ إلاّ كيفَ تنتقم من هذا الّذي يُسمّونه (يحيى). لو أنّ (أنتيباس) طَرَدها شَرَّ طِردة لكان الأمر أهونَ من أَنْ يُهمِلَها بهذه الطّريقة؛ الإهمالُ عندَ المرأةِ طَعنةٌ في القلبِ لا تَبرأ. ولو قالَ لها مللتُ جسدَكِ المُنطفِئ على ذاتِ السّرير في كلّ مرّة لكان ذلك أهونَ بكثير

مـن أنْ يُعـبّر لهـا عـن مللَـه مـن هـذا الجسـد بادّعائـه أنّهـا لا تَحِـلُّ لـه، ومـن أيـنَ جـاء بهـذه الكلمـة الّتـي لم يعرفْهـا في حياتـه ولا عـرفَ معناهـا إلاّ مـن هـذا الأفّاق (يحيـى). فقـدان الحُظـوةِ لـدى مَلِـكٍ واحـدةٌ خسـارةٌ فادِحـة، ولكـنْ فقـدانُ هـذه الحُظـوة لـدى مَلِكَـين كارثـةٌ كبـيرة. الآنَ لا تسـتطيع أن تعـودَ إلى (فيلُبُّـس) ولا تسـتطيع أن تُـري وجههـا (لأنتيبـاس). ولكـنْ هـل يُمكـنُ لفيلُبُّـس أن يغفـر لهـا خطيئاتهـا ويتغـاضَى عـن نَزَواتِهـا ويقبـلُ بعودتهـا؟! مَـنْ يـدري؟! لكنّـه احتِـمالٌ ضعيـفٌ، بـل احتِـمالٌ لمْ يَلِـدْه إلاّ خيـالٌ واسِـعٌ وتفـاؤلٌ كاذب؛ فالحقيقـةُ تَقـول: العاقِـلُ لا يُدخِـلُ إلى بيتـه الكلـبَ الّـذي عضّـه مـرّة واحـدةً، فكيـفَ وقـد عَضّـه عـشراتِ المـرّات!!

لمْ تهـدَأ هَوَاجِسَـها والعربـةُ تنهـبُ الطريـق إلى قصرهـا الصّغـير في أطـرافِ كفـر ناحُـوم. لكـنّ النّـار الّتـي شـبّتْ في قلبِهـا، ويبـدو أنّهـا لـن تنطفِـئَ أبـدًا لم تَكُـنْ بسـببٍ مـن (أنتيبـاس) بالدّرجـة الأولى، بـل بسـببٍ مـن يحيـى، فهـو الّـذي لَعِـبَ بعقـل (أنتيبـاس)، ولـولا كلماتـه الّتـي لا أدري مـدى تأثيرهـا حتّـى تسـلبَ عقـل حبيبـي لَمـا هَجَـرني هـذا الملـك. لقـدْ شـبّتِ النّـارُ بسـببكَ يـا يحيـى ولـنْ يهـدَأ لي بـال، ولـن يقـرّ لي قَـرار حتّـى أجعـل هـذه النّـار الفائـرة في قلبـي تأكُلَـك وتلتهـم كُـلّ ذرّةٍ فيـك.

وصلـتِ العربـةُ إلى القـصر، نَزَلـتْ منهـا عـلى الرّصيـف المُمتـدّ عـلى طـول السّـور. غادرتْهـا العَرَبـةُ مبـاشرةً. حـينَ خطـتْ خُطُواتِهـا الأولى باتّجـاه البوّابـة كانَ صـوتُ عجَـلاتِ العربـةِ يطـرقُ مسـامِعها قادِمًـا مـن بعيـد. تلقّاهـا الحارِسـانِ المُعتـادان عـلى البـابِ، لمْ يَفتحـاهُ لهـا: «سـألاها إلى أيـن؟!» اسـتغربتْ مـن سـؤالِهما، فكيـفَ يسـأل هـذا الحارِسـانِ الغَبِيّـان ملكـةً تهُـمُّ بالدّخـول إلى قَصرهـا، فبـدلَ أن ينحنيـا لهـا ويفتحـا البوّابـة يَقِفـان في طريقهـا كتِمثالَـين. اسـتجمعتْ شـجاعتَها وقالـتْ لهـما: «إلى قـصري». «لم يَعُـدْ قَـصْرُكِ». كـادتْ تقـعُ

على الأرض، مالتْ، لكنّها تمالكتْ نفسَها: «ماذا تَعنِيان؟!». «الملك (أنتيباس) أعاده بكلّ ما فيه من كُنوزٍ إلى ملكيّته الخاصّة، وأمرنا ألاّ نُدْخِلَكَ ولو إلى الحديقة». فعلها الحقيرُ الجَشِع (حدّثتْ نفسَها). «ولكنْ إلى أينَ أذهب؟!». «وما شأنُنا نحن؛ اذهبي إلى الجحيم ففيها مكانٌ جيّدٌ يليقُ بِكِ». قالا ذلك وضَحِكا مُستَهزِئَين. «لا بأس. لكنْ أريدُ أن أطلبَ منكما شيئًا؛ هل أستطيع أن آخذَ عربةً من هُنا لأستقلّها إلى المكان الّذي سأذهبُ إليه؟!». «كَلاّ». «ولكنْ مَنْ يحملني؟!». «الحِمار» أجاباها وضَحِكا من جديد؛ كانَ واضِحًا أنّهما يتسلّيان. غابَ أحدهما قليلاً وعادَ بالفِعل يجرّ حِمارًا خلفه. قدّمه إلى (هِيرودِيّا)، وقال لها: «هذا من الملك، مكافأة نِهاية خِدمة». وقهقَها من جديد. كانَ كُلُّ شيءٍ في داخِلِها يَتَهاوَى، كُلُّ الأحلام تتحطّم، كُلّ الكبرياء والعَظَمة تتكسّر، كُلُّ شيءٍ كان يتداعَى وينتهي إلاّ شعلةُ الانتِقام، كانت تكبُرُ وتكبُر. هتفتْ في نفسها وهِيَ تُجاهِدُ في اعتِلاء الحِمار: كلُّ ما أخذه من جسدي كان مقابل حمار. رُبّما لا أستحقّ أكثرَ من ذلك». وضحكتْ بجنون.

قادَتِ الحِمار إلى (مَجْدَلة)، إلى المَبغى الّذي يقعُ في وَسَطِها، هِيَ ابنةُ هذا المَبْغَى أيضًا، وفيه وَلَدتِ ابنتَها (سالومي) ونذرتْها له. اللّيلةُ الّتي نذَرَتْ في ابنتَها لهذا المَبغى كانتْ تَئِزُّ فيه تحتَ وَقْعِ أحدِ الأثرياء، وَهَبَتْهُ جَسَدَها ووهبها ماله. وقد وَرِثَتْ ابنتُها عنها جَمالَها، وغِوايَتَها، لكنّها كانتْ مع ذلك تتفوّق عليها في مواهِبَ أُخرى كثيرةً، فسلالَةُ الشّيطان الّتي نَسَلتْ منها كانتْ مُحَسَّنة.

نظرتْ إلى نفسِها وهِيَ تتهادَى فوقَ الحِمار الّذي يقطعُ الطّريقَ في الظّلامِ والبَرد. لم تشعُرْ في حياتِها بإذلالٍ مثلِ هذا الإذلال. كُلُّ لحظةٍ كانتْ تَمُرُّ عليها هناك كانتْ تُعملِقُ بِذرةَ الانتِقام الّتي تنمو في ظلامِ القلب. لم

تَشْعُرْ بقوّة دافِعةٍ إلى الثّأر مثلِ هذه من قبلُ، عقلُها الّذي كانَ يُفكّرِ في كلّ الاتّجاهات في الآنِ نفسه، تخلّى عن كلّ ذلك وركّز على اتّجاهٍ واحِدٍ، عليها أن تُعِدَّ له إعدادًا يليقُ بتارِيخها الحافِل، واسمِها اللامِع.

دخلتْ على ابنتِها بعدَ منتصف اللّيل، كانَ زبائنُ المَبغى غالبًا مِنَ الجُنودُ الرّومان وقادتهم الأثرياء، وتُجّار المُدُن السّاحليّة، وأهل الأطيان. تَناهَتْ إلى سَمْعها أنغامُ الموسيقَى الّتي ترتجّ على إيقاعها جُدران المَبغَى المُكَوّن من طابقَين، الأوّل يضُمّ قاعةَ الرّقص والشّراب، والطّابق الثّاني يضُمّ ستّة من غُرَفِ النّوم الّتي تصيدُ فيه بعضُ الرّاقِصات والبغايا الزّبائنَ المُثرين.

نزلتْ (هِيروديّا) عَنِ الحِمار، حين خَطّتْ قدَمُها على عتبة الباب عادتْ بها الذّكرياتُ سنواتٍ طويلةً إلى الوراء عندما كانتْ إحدَى راقِصاته المشهورات قبل أنْ تُغادِره في ليلةِ حَظٍّ فارقة مع أحدِ أبناءِ (هيرودس) الّذي حضَرَ وصْلَتها وأعجبه انحِناءاتُ جَسَدَها، فاتّخذها محظيّة، ثُمّ أميرةً، كانَ اسمَ هذا الأمير (فِيلُبُّس)، ما زالتْ تذكره حينَ جلسَ على الطّاولةِ الأقربِ إلى المسرح، وجلسَ من حوله رُفقَاؤه وحُرّاسه، كانَ شابًّا وسيمًا، يفيضُ حيويّة وتَهتُّكًا، يَغمِزُ كُلّ فتاةٍ تمرّ به، ويتناولُ كُلَّ كأسٍ يجتازُ حامِلها الطّريق بجانبه. ليلتَها كانتْ تُعِدُّ الخُطّة لكي تكسبَ إعجاب الأمير، جَسَدُها آنذاكَ قامَ بالمَهَمّةِ خيرَ قِيام.

خَطَتْ خُطوةً أُخرَى إلى الدّاخل. ابنتُها (سالومي)، كانَ لها من العُمر يومئذٍ عامٌ أو عامان أو ربّما أكثر؛ لم تعدْ تدري؛ فالبغايا بلا أعمار، العُمرُ لا يعرفهنّ إلاّ إذا ذهبَ بهنّ إلى مَثواهُنّ الأخير، لم يقبلِ الأمير يومَها أنْ تأتيَ مَعَها إلى قصره، كانَ يريد أن ينفردَ بهيروديّا وحدها، وكانَ له ما أراد. أمّا (سالومي) ذات العامَين، فَنَشَأتْ يَتيمةً في المَبغَى بكلّ معنى الكلمة،

وإنْ كانَ أبوهـا حَيّـا لكنّـه غـيرُ معروف، وأمّهـا حيّـة لكنّهـا غـيرُ موجـودةٍ!! ولم يقبـلْ برعايتهـا غـيرُ صاحِـبِ المَبغَـى؛ لأنّـه ربّـما كانَ يعـرفُ أباهـا، أو لِطَمَعِـه في جَسِـدها الّـذي سـيجذب الزّبائـن حـينَ تَكـبُر.

وجـدتْ (هيروديّـا) نفسَـها في الممـرّ القصـيرِ المُؤدّي إلى قاعـةِ الرّقـص، «الإنسـانُ يعـودُ إلى أَصْلـه» قالـتْ ذلـك لنفسِـها قبـلَ أن تُتـمّ دُخولَهـا، حـينَ صـارتْ في أوّل القاعـة الواسِـعة الّتـي تتناثـر عـلى أرضيّتهـا طـاولات الزّبائـن حانـتْ منهـا التِفاتـةٌ خاطِفـةٌ إلى المسـرح، وشـهقَ قلبُهـا، سـنوات طويلـة مـرّت عـلى مغادرتهـا لهـذا المسـرح الّـذي قدّمـتْ عليـهِ أكثـرَ عروضِهـا سِـحرًا، ثُـمّ ركّـزتْ نظـرةً أخـرَى عـلى الرّاقِصـة الّتـي تُقَـدِّمُ وصلتَهـا فخفـقَ صدرُهـا؛ لقـد كانـتْ ابنتَهـا الوحيـدة؛ إنّهـا (سـالومي).

اتّخـذتْ موقعًـا لهـا بعيـدًا عـن الأعـين، وانتظـرَتْ ريثـما أتمّـتْ ابنتُهـا وصلتهـا، حـينَ نزلـتْ عَـنِ المسـرح، قامـتْ هيروديّـا مـن مكانهـا واتّجهـتْ إلى غرفـة الرّاقِصـات، تعرفهـا جيّـدا، فلطالمَـا قَضـت فيهـا السّـاعات الطّويلـة وهـي تنتظـرُ نوبَتهـا. دخلـتْ إلى الغرفـةِ، فوجـدتِ ابنتَهـا تُغـيّر ثيابَهـا، وتمسـحُ المسـاحيقَ عـن وجههـا. رأتْ فيهـا نفسَـها وهِـيَ تجلـسُ إلى المـرآةِ لتخلـعَ قُرطَهـا الطّويـل عـن آذانِهـا. اقتربـتْ أكثـر مـن ابنتِهـا، واعتَنَقَتْهـا مـن الخلـف. شـدّتْ بذراعَيهـا عـلى جـذع (سـالومي) وراحـتْ تَنتحـب.

قالـتْ لهـا (سـالومي): «تَبيتـين عنـدي اللّيلـةَ يـا أمّـي». «أخشـى أنّنـي سـأبيتُ عنـدكِ بقيّـة اللّيـالي». «لِماذا؟! مـا الّـذي حَـدَثَ يـا أُمّـي». «سـتعرفينَ القِصّـةَ فيـما بعـدُ يـا بُنيّتـي كامِلـةً لكنّنـي أريـدُ منـكِ شـيئًا، وهـي خِدمـةٌ تُقدّمينهـا لأمّـكِ الّتـي تُحِبّـك». «عـلى عينـي يا أمّـي». «يعنـي لسـتِ غاضِبـةً مِنّـي؟!». «كلاّ، ولمـاذا أغضـبُ؟!». «لأنّنـي تركتُـكِ كُلَّ هـذه الفـترة، وانشـغلتُ بنـزواتي». «يـا أُمّـي نحـن كُلّنـا عبيـدُ نَزوَاتِنـا، وأبنـاءُ خطايانـا». «ولكنّـكِ ابنتـي». «أنـا وأنـتِ

بناتُ المبغَى يا أُمّي!! لكنْ قولي لي: ماذا كنتِ تُريدين مِنّي؟! أنا لا أتخلّى عنكِ». «أريدُكِ أن ترقُصي في أوّل حفلٍ يُقيمه أنتيباس». «لقد فعلتُ ذلك قبل مُدّةٍ ليستْ طويلة». «أعرفُ ذلك يا حبيبتي، لكنْ هذه المرّة أريدُكِ أن توافقي على طلبِ الرّقصِ في قصره بشرطٍ». «ما هُوَ يا أمّي». «أن تكوني سيّدةَ المسرح فلا ترقُص فيه أخرى معكِ». «وهل أستطيع أن أضعَ شرطًا مِثلَ هذا على مَلِك؟!!». «بَلَى أنا أعرفُ أنّكِ طوّقتِ قلبَه بأدائِكِ في المرّة السّابِقة، فسيقبل هذه المرّة بشرطِكَ، بل ربّما يكونُ هذا هُوَ شرطَه أيضًا». «حاضِر يا أمّي، سأفعل». وَذَهَبَتا في الأحلامِ بعيدًا.

في اللّيل على الطّرفِ الآخَر من الأرضِ الّتي تغوصُ في الظّلام، وعلى فِراشِ الآثامِ الّتي ارتكبَها (أَنْتِيباس) كُلَّها مع (هيروديّا) دون أدنى شُعورٍ بالذّنب قال القلب له: «لقد كُنتَ رديئًا حتّى في كَذِبك. جبانًا حتّى في فِعلك. تُريدُ أن تتخلّصَ منها ومن عَطَنِها، كُنْ شُجاعًا لِمَرّةٍ واحدةٍ وقُلْ لها ذلك في وجهها». أجابه (أَنْتِيباس): «دَعْكَ مِمّا يقولهُ النّاسُ عنّا في الخارج، نحنُ أجبنُ النّاس في الحقيقة». مَكّنَتْهُ العبارةُ الأخيرةُ من أن يغفِرَ لنفسه. فهدأ قلبُه، ونام.

(٣٦)

غُرباء ليس لنا وطن

غادَرْنـا البيـتَ الّـذي نِمْنـا فيـه ليلـةَ أمـسِ أنـا وتلاميـذي الأربعـة، الشّـمسُ الّتـي نهضَـتْ في الأفـق كانـت ناعِمـة، ونحـنُ كُنّـا عَطشـى إلى النّـور، كانَ عـلى الشّـمسِ أن تـضيءَ الجِبال والوديـان والسّـهوب والأجسـاد، وكانَ عـلى الشّـمس الّتـي نحملهـا نحـنُ أن تُـضيءَ القُلـوب. صـارُ فـوجٌ دائـمٌ مـن النّـاسِ يتبعنـا أينـما سِرنـا، بعضُهـم انفـضّ لمشـاغله، وبعضُهـم لم يشـاؤوا أن يُغـادِروا قُراهـم وأماكـنِ عملهـم، وآخـرون لا يسـتطيعون أن يلحقـوا بِنـا دائِـمًا مثـل الكِبـار في السّـنّ والأطفـال والنّسـاء.. لكـنّ مـا يقـربُ مـن سـبعين رجـلاً مِمّـنْ أحبّـوا كلمـةَ الله، وانزرعـتْ في قلوبهـم كانـوا يرافقوننـا في أكثـرِ رَحَلاتَنـا.

بـدا واضِحًـا أنّنـي أنـا وتلاميـذي رَحّالـون لا نُقيـم في مـكانٍ واحـدٍ، غُربـاء ليـس لنـا وطـن وإنْ كانـتِ الأرضُ كُلّهـا وطننـا، مُحبّـون لـكلّ النّـاس ليـس لنـا أعـداء إلاّ الشّـيطان. لم يكـنْ مـن غايـةٍ لنـا إلاّ أن نحـذّر النّـاس مـن اقـترابِ الآزِفـة، ونُبـشّر التّائبـينَ قبـلَ مجيئهـا بالجـزاء الأوفَى عنـد الله. لم نحمـل طعامًـا، ولا ادّخرْنـا مـالاً، ولا رَكِبْنـا خُيـولاً، واكتفينـا مـن الطّعـامِ بـأوراق الشّـجر، ومـن المـال بسـلامةِ الصّـدر، ومـن الخيـول بعزيمـةِ الأقـدام.

صعِدنـا إلى (قانـا)، بدونـا مجموعـةً مـن التّائقـين ونحـن نـذرع الطّريـقَ المحفوفـة بالأشـجار عـلى جانِبَيهـا، كانـتِ الأرضُ تَضحَـك، والسّـماء تَبتسـم، وقُلوبُنـا تَهفـو. قلـوبُ شـبابٍ تُحـبّ الحيـاةَ ولكنّهـا تأخـذُ منهـا نصيبَهـا الّـذي قَسَـمه الله لهـا خـيرًا، الدُّنيـا مَتـاع، وضـعَ اللهُ يَـدَه في جانِبهـا الأيمـن، ووضـعَ الشّـيطانُ يـده في جانِبهـا الأيـسر، وقـال الله: «كُلُـوا»؛ فمـن أخـذَ مِـنَ الدُّنيـا مِمّـا

وضعَ اللهُ فيه يده كانَ من أصحابِ اليَمين، ومن أخذَ مِنَ الدُّنيا مِمّا وضعَ الشّيطانُ فيه يده كانَ من أصحاب الشّمال.

كانتْ بعضُ البيوتات الّتي تنتشرُ على جانِبَي الطّريق يعملُ فيها الكَرّامون، الطّريق صاعِدة، وفيلُبُّس البسيط تَحِينُ منه التِفاتةٌ إلى الطّريق ونحنُ سائِرون، فيراني، فيهبطُ من كرمته، ويُسرِع إلى (بَرْثُولَماوُس)، لقد جاء الّذي كنتُ أُحدّثكَ عنه، أيُّ هديّةٍ من السّماء تمرّ عبرَ حقلنا يا (بَرْثُولَماوُس)؟! لقد جاءَ بنفسِه إلينا؟! «أتعني يسوع... يسوع النّاصريّ؟!». «بلى. بلى. وهل هُناكَ هَدِيَّةٌ من السّماءِ غيرُه. هيّا بِنا إليه».

قَطَعا الطّريق الفاصِلةَ بيننا قَفْزًا. توقّفا، ونَظَرا إليّ كمأخوذَين، «إنّه الّذي ننتظره حَقًّا» هَمَسَ (بَرْثُولَماوُس) في أذن (فيلُبُّس) المسكين دونَ أنْ يُحَوّلَ عينَه عنّي. «وما أدراك أنّه هو؟!». «فقط انظر إليه وستعرف؛ الأنبياء يعرفهم القلب». سمعتُه، اقتربتُ منهما، وقلتُ لبَرْثُولَماوُس: «وأنا أعرفك، قبلَ أن يدعُوكَ (فيلُبُّس) وأنتَ تحتَ الشّجرةِ رأيتُك. الحَقا بي، ستنضمّان إلى تلاميذي».

تَعِبَ بعضُ الصّاعِدين مَعَنا، كانتِ القِمّةُ بعيدة، واصلْنا نحنُ ريثما يلحقون بِنا، حتّى إذا وصلنا القِمّة، كانت النّهار قد انتصفَ تقريبًا. توزّعنا على الحجارةِ النّاتِئة وعلى العشب وبعضُ جذوع الأشجار، وارتحنا من طول المسير. كانَ بعضُ القرويّين قد صنع لنا فطائر من الجُبن، وبعضُهم جاءَنا ببعضِ الثّمار من حقله، فأكلْنا وشَرِبْنا.

كانَ الجبلَ مُشرِفًا، أطَلّتْ قِمّتُه على عددٍ من القمم المُجاورة، ومن هنا كانَ بإمكانِكَ أنْ تَرَى بيوتًا كثيرةً قد تماهَى لونُها مع لون الأرضِ الّتي حولها على مدَى البصر. ومن هُنا كان يُمكنك أنْ تشعر بروعةِ النّسائم الّتي

تختـالُ بـين الأشـجارِ المُتناثِـرة فتُصـدِر أصواتًـا عذبـة، شـعرنا بالحميميّـة التّامّـة هُنـا، وأرحْنـا أنفُسَـنا مـن أثقـال الأرض السّـحيقة، وضيـقِ مسـاحاتها، وتنسّـمْنا عبيرًا شَـذِيًّا، وهـواءً مُنعِشًـا. كانـتِ الزّهـور قـد انتشرتْ تُرثـر بطِيبهـا فـازداد رونـقُ المكان.

كانَ الوقـتُ أفضـلَ مـا يُمكـن مـن أجـل أن أرسِيَ تعاليـم الله. وعليّ أن أختـار الحَوارِيّـين، لكـي يقـعُ الـكلامُ أوّلاً في قلوبهـم فيحفظـوا عَنّـي ، ويُبلّغـوا دعـوتي للنّـاس، ثُـمّ مَـنْ سَـمِعَ فَعَمِـلَ بِـما سـمع مـن الآخريـن، فهـو رَسُـولي كذلـك. كنـتُ قـد اخـترتُ ستّةً منهـم. فوقفتُ فوقـفَ كُلُّ مَـنْ على الجبل حينَ رأوني. ثُـمّ رُحـتُ أنظُـر في الوُجـوهِ أتفحّصهـا لأعثـر عـلى سـتّة آخريـن يكونـون أنصـاري إلى الله. فعرفـوا أنّنـي أختـار أصفِيائـي وأنتقـي خُلَصائـي، فتشـوّفَ كُلُّ واحـدٍ يريـدث أنْ يحظَـى بـشرفِ بَـدْءِ الرّسـالة معـي؛ فاخـترتُ (مَتّـى) العَشّـار، فقـد رأيـتُ قلبَـه صافِيًـا رغـم عَمَلِـه في الضّرائـب يُرهِـقُ بهـا جُيُـوبَ النّـاس، كان يعـرِفُ أنّـه خاطِـئ، «إنّ كثيريـنَ يغتَسِـلونَ ويَذهبـون للصّـلاة، وكثـيرون يَصُومـون ويتصدّقـون، وعاقبتُهـم ممقوتـةٌ عنـدَ الله؛ لأنّهـم يُطهِّـرونَ الجَسَـدَ لا القلـب، ويصرُخـون بالفَـمِ لا القلـب». أمّـا مَتّـى فقـد كنـتُ أرى أنّـه يـصرخُ بالقلـب منـذُ أنْ كُنّـا نلتقـي في الطّـرق الذّاهبـة إلى المدرسـة وأعمارنـا لم تتجـاوز العـاشرة. قلـتُ لـه اتبعْنـي وأنـا مـا زلـتُ أتفحّـصُ الوجـوه لتكشـفَ لي عـمّا في القُلـوب، وكانـتْ يـدى تُصـدّقُ مـا أرى أو تُبطِلـه، كنـتُ أضعهـا عـلى أكتـف مَـنْ أنظرُ في وجوههـم وأنـا أتنقّـل بينهـم، وهـا أنـا ذا أجدُ هـذا القلبَ صادِقًـا: «وأنـتَ يـا (بَرْنابـا) اتبَعنـي». لقـد كان دارِسًـا لكتـب الأنبيـاء السّـابقين عالِمًـا بهـا ولهـذا اخترتُـه، وكانَ كاتِبًـا ويحفـظُ مـا يسـمع، ولِـذا سـأطلبُ منـه أنْ يكتُـبَ إنجيـلي. وأنـتَ يـا (يعقـوب) اتبعنـي مـع ابنِـكَ (يهـوذا)، وأنـتَ يـا (تَـدّاوُس). لقـد صِرْتُـمْ أحـدَ عـشرَ تلميـذًا، أَنْتُـمْ مِلْـحُ الأَرْضِ، وسـتكونون رُسُـلي حـين أرتفـع، أمّـا آخـرُ التّلاميـذ فلـم أخـترْه؛ لأنّ وقتـه لم يَجِـئْ بعـد!!

ثُـمّ أشرتُ بيـدي إلى النّـاس لكـي أبـدأ موعِظتـي: «أيّهـا النّـاس؛ إنّـما تُوضَـع المنـارةُ أعـلى الجبـل لكـي يراهـا كُلّ البـشر، فكونـوا أنتـم بـينَ التّائهـين لكـي يهتـدوا بكـم فأنتـم نـورُ العـالَمَ. إنّـما أنـا نَبـيٌّ مـن أنبيـاء، لاَ تَظُنُّـوا أَنِّي جِئْـتُ لأَنْقُـضَ النَّامُـوسَ أَوِ الأَنْبِيَـاءَ. مَـا جِئْـتُ لأَنْقُـضَ بَـلْ لأُكَمِّـلَ مـا فَعَلَـه إخـوتي السّـابِقون، فـلا شريعـةَ جديـدةً ولا ديـنَ جديـدًا، فديـنُ الأنبـاء ديـنُ التّوحيـد، وعقيدتُهـم التّنزيـه لِمَـنْ أرسـلهم، فـكلُّ مَـن خالـفَ ذلـك فقـد وقـرَ الشّـيطانُ في قلبـه، وسـكنَ في عقلـه. وإنّنـي سـأوصيكم، فـإنْ قلـتُ فاحفظـوا كُلَّ حـرفٍ أقولـه». ثُـمّ سَـكتُّ لأسـتوثِقَ مـن الّذيـن يسـمعونني، فرأيـتُ في عيـونِ مَـنِ اخترتُهـم الصِّـدق، فأمِلـتُ أنْ يكونـوا خـيرَ نُـصَراءَ لي حـينَ يُكذّبنـي النّـاس.

وعَـلا صـوتٌ في النّـاس لتزاحمهـم في المـكان، وقـفَ بعضُهـم عـلى رؤوسِ أصابِعـه لأنكشـفَ لـه، وصَعِـدَ بعضهـم عـلى أحجـارٍ لـيروني بعـد أنْ استمرّ توافُـد السّـامعين، وتسـلّق فريـقٌ منهـم الأشـجار المتناثـرةَ هنـا، وراحُـوا ينظُـرونَ إليّ بقلـوبٍ خاشِـعة، فقلـت: «إنّي موصيكـم: لاَ تَقْتُلـوا، ولا تغضبـوا عـلى إخوانِكـم، ولا تُسـمِعوهم كلامًـا قبيحًـا، واطلبـوا منهـم العفـوَ قبـل أن تطلبـوا مـن الله الأجـر. وَعِفُّـوا تَعِـفَّ نسـاؤُكم، فمَـنْ يَنْظُـرْ إِلَى امْـرَأَةٍ لِيَشْـتَهِيَهَا، فَقَـدْ زَنَـى بِهَـا فِي قَلْبِـهِ. وأوفُـوا بأيمانِكـم ونُذوركـم، ولا تُكثِـروا القَسَـم فإنّـما يدفعكـم إلى ذلـك الشّـيطان. وأَحِبُّـوا أَعْدَاءَكُـمْ. وبَارِكُـوا لاَعِنِيكُـمْ. وأَحْسِـنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُـمْ، وَصَلُّـوا لأَجْـلِ الَّذِيـنَ يُسِـيئُونَ إِلَيْكُـمْ وَيَطْرُدُونَكُـمْ».

ثُـمَّ نزلـتُ مِـنَ عـلى الصّخـرة الصّغـيرة الّتـي اعتليتُهـا لأقـولَ كلمتـي، وارتحـتُ مـع التّلاميـذ، قـال لي يُوحَنّـا: كيـفَ يتقبّـل القلـبُ أن يُصلّي مـن أجـلِ مَـنْ يَطعنُـه، هـل يُمكـن أن يبتسـمَ القلـبُ للقاتِـل؟! فقلـتُ لـه: أنـتَ نظـرتَ إلى الأمـر بعـينِ الوثنيّـين، يريـدون أن يأخـذوا كُلَّ شيءٍ في الدُّنيـا، ولا يُريـدون أن يُسـامِحوا، وإذا اسـتطاعوا أخـذوا نصيـبَ الآخريـن وسـلبوا حُقوقَهـم، يـا يوحنّـا انظـر إلى الأمـر بعـين المُؤمنـين، تَجِـد أنّـه يجـب أن تشـكرُ أولئـكَ الّذيـن يُسـيئون

إليـكَ لنّهـم يُقرّبونـك مـن ملكـوتِ الله، وإذا صـبرتَ فلربّـما تكـون جائزتُـك عنـد الله الأبديّـةَ في النّعيـم.

انفـضَّ عـددٌ كبـيرٌ مِـنَ النّـاس عـادوا إلى بيوتهـم وشـؤونهم الخاصّـة، وظـلّ معـي التّلاميـذ، قضينـا اللّيـل نحكـي ونَضحـك، أنـا ومَتّـى اسـترجعْنا كثيرًا مـن ذِكريـات الطّفولـة فَطَرِبْنـا لهـا، كانـتِ السّـماء صافِيـة، ونسـماتُ اللّيـل الأخـير بـارِدة، وعلّقْنـا أبصارنَـا بالسّـماء الفسـيحة، كانـتْ صفحتُهـا مُرصَّعـةً بالنُّجـوم، وكانـتْ أحلامُنـا تصـلُ إلى مـا هـو أبعـدَ مـن ذلـك، جمع (يُوحنّـا) حجـارةً وبنـى حوضًـا صغـيرًا وأوقـد داخِلـه نـارًا مِمّـا جمعـه مـن حطـبِ الأرض، بدونـا عـلى قِمّـة الجبـلِ في اللّيـلِ البهيـم رُهبانًـا حقيقيّـين، وحالِمـين ينتظـرون خـلاصَ هـذه البشريّـة الّتـي تغـوص في الظّـلام. سَرَحْنـا في الأفـق، السّـحبُ الهادِئـة تَمُـرُّ متهاديـة إلى قـرارٍ غامـض، والنّجـوم تتـلألأ كأنّهـا تُشـارِكَنا سَـمَرنا، تضحـك، تتحـدّث، ترقُـص، تَغمِـز، وربّـما تفعـل ذلـك كلّـه مـرّةً واحـدة لكـنْ بهـدوء. الهُـدوء كان يُغلّـفُ كُلّ شيءٍ حتّـى قلوبَنـا الّتـي قـرّتْ في صُدُورنـا وامتـلأتْ بالرّضـا، قولـوا لي أيّهـا الإخـوة: هـل هـذا العـالَمُ وطَنُنـا؟! لا ألبَتّـة. فأيـنَ هُـوَ إذًا؟! إنّـه هُنـاكَ وأشـاروا إلى السّـماء. أنشـدْنا بعـضَ الأناشـيد قبـل أن تنـذوي الشّـعلةُ الخافِتـةُ في أجسـامِنا، ونِمنـا ليلتنـا بعـدَ طـولِ سَـهَرٍ وتَعَـبٍ عـلى الجبـل. وفي الصّبـاح قصـدْتُ المعبـدَ الكبـير في أورشـليم، كانَ صباحَ الخميـس، وَغَذَذْنـا السّـير لكـي نصـل إليـه قبـل يـومِ السّـبت، إذْ يكـونُ النّـاسُ مجتمعـين مـن كلّ مـكان، فهـذا أوانُ عيـدِ الفِصـح.

(٣٧)

إذا خافَ الإنسانُ اللّٰهَ انتصرَ على كُلّ شيء

هَبَطْنا الجبل كما تهبطُ الطّيور، خِفافًا، ليس معنا إلاّ قُلوبُنا، قلوبُنا الّتي نُجاهِدُ ألاّ تتلوّثَ بالخطايا، وألاّ تتكدّر بالطّمع، وألاّ تموتَ بالتّلهّفُ إلى الدُّنيا. الطّريقُ بين الجليل والقُدس مثل الشّمس في السّماء المُغطّاةِ بالغيوم، تظهر وتختفي، وهكذا كانتِ القُرى والنّاس، تنبتُ قريةٌ هنا أو هناك ونحنُ ماضونَ إلى غايَتِنا، وتُقفِرُ الطّريق في أمكنةٍ أخرى فلا نكادُ نرى فيها بشرًا ولا شجرًا. لكنّ الكُورةَ كُلّها، فلسطين أجمعها صارتْ تدري بخبرنا، فكثيرًا ما كانَ يلقانا قرويٌّ يأتي إليّ يركعُ أمامي، فأرفعه على الفَور: «لا تركعْ إلاّ أمامَ الله في صلاتِك». فيتهدّل صوتُه: «يا مُعلّم ابنتي». يا أخي: «المُعجِزات لِكَي تُؤمِن بالّذي أجراها على يديّ لا لكي تُحقِّقَ غرضًا لكَ من أغراضِ الدُّنيا، إذا آمنتَ كُنتَ حيًّا ولم تحتجْ إلى مُعجِزة؛ الإيمانُ حياةٌ إلى يومِ الأبديّة». «أنا مُؤمنٌ يا سيّدي؛ أنا رئيسُ المَجمع الّذي هنا، وقد سمعتُ بما حدثَ معك في النّاصرة، أعرفُ هؤلاء اليَهود مُبطِلون، أعرفُ فأنا واحدٌ منهم، لكنّي أملكُ قلبَ أبٍ مُحِبّ، إنّها ابنتي يا مُعلّم، وإنّها على حافّة الموتِ يا سيّدي وأخشى أن تنزلقَ في الجُرفِ وهي غير مؤمنة». «اتبعني إذًا».

توجّهنا معه، تركْنا طريقنا الماضِية إلى أورشليم وانعطفنا إلى الطّريق المؤدّية إلى بيته، حيثُ ترقُد ابنته، في أولى الخُطُوات، سَمِعتُ (يوحنا) الّذي كان يتبعني كظلّي، ويحرص أنْ يكونَ أقربَ النّاس إليّ ونحن نمشي، يقول مُحدّثًا نفسَه: «هؤلاء المُراؤون الكَذّابون رمَوه بالحجارةِ في النّاصرة ويُريد أن يُهديَهم قلبَه هنا». التفتُّ إليه وأنا أسمع صوتَ أنفاسِه خلفي، وابتسمْت:

«تَعَلَّمْ يا يوحنّا؛ الإكثار من التّكلُّم إسفنجةٌ تلتقطُ الآثام». فصمتَ من فوره.

كانَ الأبُ يمشي أمامنا عَجِلاً، ويلفّ جذعه من حينٍ إلى آخر جهتَنا يستعجِلُنا، بدتِ عليه اللّهفة، والألم، والأسى، كان وجهه كئيبًا شاحِبًا كمن فقد ابنته على الحقيقة. حينَ دخلنا القرية، وعبرْنا بعضَ طُرُقاتِها الضّيّقة خرجَ من البيوتِ أُناسٌ كثيرون يتبعَوننا، ويهتفون باسم الرّبّ. عرفتُ أنّ الأسَى الّذي يجثُم على وجوههم هو صورةٌ لِما في قلوبهم، إنّهم فقدوا الإيمان، ففقدوا معنى الحياة، وإلاّ فما الّذي يجعلكَ تصبر على نَكَدِ الحياةِ وشَظَفها إلاّ إيمانُكَ بما يدّخره الله لكَ في الأعالي. وأدركتُ أيضًا أنّ المَهمّة الكُبرَى الّتي يجب أن أستثمرها في كلّ ما أقوم به هو أنْ أزرعَ شتلةَ الإيمان اليانِعة في قلوبهم القاحِلة، وأنْ أُعلّمهم كيفَ يَسقُونها بماء الصّبر حتّى تظلّ مُخضّرة.

وصلْنا إلى بيتِ الكاهِن، من بعيد بدا أنّ حولَه خَلْقًا كثيرًا، أغلبهم نِساء يَبكينَ ويَندُبْن، وابتدره أحدُ أقْرِبائه: أجِئتَ لها بِطَبيب!! فما فائدةُ ذلك لقد ماتت». وقال له يعقوب: «فَلِماذا أتعبْتَنا وجعلتْنا نأتي إلى بيتِك وهَدَرْتَ وَقتَنا». وهتفَ سِمْعان: «هَيّا بِنا يا مُعلِّم؛ اليوم الجمعة، ويجب أن نصل إلى أورشليم شروقَ يومِ السّبت». فنهرتُهما، وقلتُ لهما تعلّما الصّمتَ من يُوحنّا.

هتفتُ بالجمع: «إنّها نائمة، وليستْ مَيّتة». فضجّ بعضُ الّذين تَبِعونا بالضّحك، وشكَّ فِيَّ آخرون، وقالوا: «ساحِرٌ بَطَلَ سِحرُه». فَهَمّ بعضُ التّلاميذِ أنْ يشتبكوا معهم، فنهرتُهم. وهمسْتُ في أُذُنِ أبيها: أَخرِجْ كُلّ مَنْ في البيت، إلاّ أُمّها، واتْبعَني أنتَ، وتعالَ يا سِمعان ويا يعقوب ويا يوحنّا، لتتعلّموا كلمةَ الله. كانَ قلبُ الأبِ يتعلّقُ بقشّة تقوده إلى نجاةِ ابنته،

آمـنَ بالمُحاولـة في شِـفائها ولم يُؤمِـن بـالله، لأنّ غرضَـه كانَ شـخصيًّا، لكنّنـي أردتُ أنْ أعلّمـه أنّـه إذا خـافَ الإنسـانُ اللهَ انتـصرَ عـلى كُلّ شيء، وإذا خـافَ سـطوةَ البـشر انتـصرَ عليـه كُلُّ شيء.

ودخلْنـا الغرفـةَ المُسَـجّاةَ فيهـا ابنتُـه. وكانـتْ طِفلـةً قـد هَجَـمَ عليهـا الموتُ. مُستسلِمةً لقـدرة الله الّـذي يفعـل مـا يَشـاء، وقلـتُ لـلأب: لا نَجـاةَ لِمَنْ لا إيـمانَ لـه، إنّـما أنـا أفعـل مـا أفعـل بعظمـةِ الله فآمِـنْ بِـهِ يُعِـدْ إليـكَ ابنتـكَ الميّتـة، وقلبَـكَ الميّـت. وسَـكتَ. فأخـذتُ يَدَهـا، فسَرَى فيهـا أمـرُ الله، فالتَفَتَـتْ فـإذا هِـيَ حيّـة، وفتحـتْ عينَيهـا، واعتدلـتْ في فِراشِـها كأنّـما كانـتْ نائِمـةً بالفعـل، ونظَـرَ إليهـا أبواهـا غـيرَ مُصَدِّقَـين، وابتدرتْهـا أُمّهـا تُقبّلهـا وهِـيَ تبكـي. أمّـا أبوهـا فـأراد أن يُكافِئنـي، فقلـتُ لـه: يبـدو أنّـكَ لم تُؤمِـن بعـد، الله الّـذي فعـل، فمكافـأتي أن تعرفـه وتخافـه. وتُجـرِي ذلـك عَـلى مَـنْ هـو دونـكَ في المَعبـد، فـلا تتّبعـوا خُطُـواتِ الشّـيطان. وقلـتُ لأمّهـا: ائتيهـا بشيءٍ مـن الطّعـام فإنّهـا جائعة. وعبثًـا حاولْنـا الخُـروجَ مـن بـينِ أيـدي النّـاسِ الّتـي تُريـدُ أنْ تنـالَ بركتَنـا.

نِمْنـا في اللّيلـةِ التـي تسـبِقُ عيـدَ الفِصـح عـلى مشـارف أورشـليم؛ كُنّـا نريـدُ أن ندخلهـا ونحـن مرتاحُـون، ومُتهيّئـون للقيـام بالعبـادةِ الحَقّـة. مـن الجبـل الّـذي نِمنـا عليـه، كانـتْ تظهـر لنـا أضـواء المَعبـدِ الكَبـير، كانَ قـد أُنـيرَ بكاملـه استِعدادًا للاحتِفـالات؛ ففـي أيّـام الأعيـاد يبـدو قُبّـةً ملتهبـةً في وسـط الجبـال، وفي مقابلـه كانـتْ تظهـر لنـا أضـواء قـصر (هـيرودس) الأكـبر الّـذي ورثـه عنـه (بيلاطُـس). بنـاءان مُتقابِـلان، الأوّل ادّعَـى صِلتَـه بالسّـماء، والثّـاني أخلـدَ إلى الأرضِ لأنّـه لا يعـترفُ بالسّـماء أساسًـا. وكِلاهمـا لم يقبلْهـما الله؛ لأنّ الأوّل ادعـى القائِمـون عليـه أنّهـم أبنـاءُ الله وأحِبّـاؤه، ولأنّ الثّـاني استقبلَ الشّـيطانَ ضيفًـا دائِـمًا عنـده!!

لم أنـمْ؛ تذكّـرتُ مـا كانـتْ تفعلـه أُمّـي في اللّيـل فقُمـتُ. تركـتُ

التّلاميذَ نائِمينَ تحتَ الأشجار، واتّخذتُ ناحِيةً قَصِيَّةً عنهم، ورحتُ أرفعُ يديّ إلى الله. كانتْ هيأةُ أمّي في ليالي الفِرار من بطش (هيرودس) إلى مصر وهي قائمةٌ في محرابِ تبتُّلاتِها يُوقِدُ جذوةَ الإيمان في أعماقي. صنعتْ مِنّي أُمّي نَبِيًّا يعرفُ كيفَ تُوصِله الكلمةُ إلى الله، ويُدرِكُ أنّه ما مِنْ رِسالةٍ دونَ تَضحية، وما من وصولٍ دونَ عثراتٍ، وما من ارتقاءٍ دون صبر. أعتقدُ أنّ النّاس حينَ أغادِرُ هذه الفانية، سيُعلّمون في مدارسهم طريقةَ أمّي في الصّبر؛ إنّها القبضُ على الجُرحِ الأليم بصمتٍ عميق. أنا على يقينٍ أنّه ستأتي أجيال تتعلّم من هذه النّبيّةِ كُلّ شيءٍ دونَ أن تقولَ لهم كلمةً واحدةً لهم. طريقتُها في الاتّصال بالله ستُلهِمُ نهرًا من الأُدباء والفلاسفة والمُفكّرين والرّوحانيّين. وهي اليومَ تُلهِمني!!

انقَضَى أكثرُ اللّيل، وبدا أنّ خيوطَ الفجر البيضاءَ بدأتْ تأخذُ من الأفقِ المُظلِمَ لونَه، أيقظتُ التّلاميذ، صلّينا الفجر، ثُمَّ تناولْنا بعضَ الطّعام، واسترحْنا قليلاً، وشددْنا رِحالَ قلوبنا إلى البيتِ المُقَدَّس. كانَ الجبل الّذي نِمنا عليه ليلَتنا تلتفُّ أسفلَ بطنِه طريقان، أحدهما قادمٌ من مدن فلسطين الشّماليّة والآخر قادمٌ من مدن فلسطين الجنوبيّة. لم نكدْ نتخلّى عن القِمّة الّتي آوتْنا اللّيلةَ الفائتة حتى رأينا - على ضوءِ غَبشِ الفجر الّذي بدأ بياضُه يعمّ الأرجاءَ - أفواجًا ضخمةً مِنَ النّاس تملأ الطّريقَين من الجهتَين، لقد لبّوا نداء الله إلى المعبد. كُنّا نراهم من عليائنا وهم في الوادي مثل أسرابٍ من النّمل دائبة الحركة لا تكفّ عن الجَرَيانِ أبدًا، بعد فترةٍ صرنا بمساواتهم تقريبًا، ثُمّ حينَ أسفرتِ الشّمسُ تمامًا انْضَمَمْنا إلى تيّارهم اللاّهث، ودخلْنا في سِلكِهم. كُنّا قطراتٍ مُبعثرة، ثُمّ أصبحنا جزءًا مِنَ النّهر الجاري.

ولم يَطُلِ الأمر حتّى عُرِفتُ، فاجتمَعَ النّاسُ عليّ اجتِماع النّحلِ على الزّهر، كُلٌّ يريد أن أكونَ حُظوتَه. ورفعوا أصواتَهم بالتّسبيح، وانطلقتْ

هُتافـاتٌ تقـول: «المجـدُ لـكَ في الأعـالي أيّهـا المَلِـك». فعرفـتُ أنّهـم بـدؤوا يَفتَتِنـون بي، وإذا لمْ أعلمّهـم كلمـةَ الله فسـيهيمونَ في كُلِّ وادٍ؛ فصعـدتُ كومـةً مـن الحجـارةِ عـلى الطّريـق، وهتفـتُ بالنّـاسِ أَنِ اسـمعوني: «لسـتُ مَلِـكًا، ومـا بُعِثـتُ لأكـونَ مَلِـكًا، بـل أنـا عبـدٌ لله ورسـولُه، آكلُ كـما يـأكلُ العبـدُ وأشربُ كـما يشرب، فطوبى للفقـراء، طُوبَـى لِلْمَسَـاكِينِ، لأَنَّ لَهُـمْ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ. طُوبَـى لِلْجِيَـاعِ وَالْعِطَـاشِ إِلَى الْـبِرِّ، لأَنَّهُـمْ سـيجدونَ الـرِّيَّ عنـدَ الله. طُوبَـى لِلرُّحَمَـاءِ، لأَنَّهُـمْ يُرْحَمُـونَ. طُوبَـى لِأَنْقِيَـاءِ الْقَلْـبِ، لأَنَّهُـمْ يُعَايِنُـونَ اللهَ.

وسـكتَ النّـاسُ برهـةً ثُـمّ بـدؤوا يُسـبّحون بصـوتٍ عـالٍ، ويطلبـون مِنّـي أنْ أعلّمهـم مِمّـا عُلِّمْـتُ. ونزلـتُ مـن هنـاك مملـوءًا فرحًـا وحُبًّـا، وانسربـتُ في تيّـار الماضِـينَ إلى الله. ووجـدتُ في نفـسي راحـةً وأنـا بـينَ عامّـة النّـاس، وكانـتْ هُتافـات النّـاس تتصاعـدُ تلبيـةً لله، وشـعرتُ أنّ الحجـارةَ سـتفعل مثلهـم لـو أنّهـم صَمَتُـوا.

في المعبـد كان كُلُّ شيءٍ موجـودًا غـيرَ الخـوفِ مـن الله. كانَ كُلُّ شيءٍ يُعبَـدُ مـن دونِ الله مَـع الله. يتكـوّنُ المعبـدُ مـن سـاحةٍ فسـيحةٍ تتّسـع لـلآلاف مـن العابديـن أمـام هيـكلٍ مُقـامٍ في نهايـةِ هـذه السّـاحة الّتـي يُتوصّـل إليهـا عـبر بوّابـاتٍ مفتوحـةٍ في سُـورٍ يُحِيـطُ بالمعبـدِ كُلّـه، وكانـتِ هـذه البوّابـات عـلى الجهـاتِ الأربـع، وتُفتَـح ‖ في العـادة ‖ كُلُّهـا أيّـامَ الأعيـادُ لتُسـهِّلَ عـلى الحُجّـاجِ الدّخـول لأداءِ المناسِـك، السّـاحةُ نفسُـها مرتفعـةٌ قليـلاً مـن الجهـةِ الشّرقيـة بسـبب انحـدار الأرض مَـن تلـك الجهـة، وكانَ عـلى الذّاهـب إلى السّـاحة أن يصعـدَ بضـعَ درجـاتٍ ليسـتوي بـه الأمـر عـلى امتدادهـا. أمّـا جِسـمُ المعبـدِ فيتكـوّن مـن طابِقَـين، الأوّل ويَضُـمّ المَسـجِد الّـذي تُقـامُ فيـه الصّلـوات وهـو يُسـاوي في الحجـم نصـفَ السّـاحة الواسـعة، والثّـاني يُشـبه برجًـا مُربَّعًـا يسـتندُ عـلى نصـف سـطح الطّابـق الأوّل، إذْ إنّ النّصـف الآخـر المفتـوح هـو عبـارةٌ

عـن شرفـةٍ كبـيرةٍ أُقيـمَ عـلى طرفَيهـا أماكـنُ مَسـقوفة لعبـادة الكهنـةِ الكبـار أو منامـات خاصّـة بهـم، أو مجالـس للرّاحـة والطّعـام. أمّـا الطـرف الثّالـث الّـذي يواجـه السّـاحة الفسيحة فكان شرفـةً مُعـدَّةً لإلقـاء الخُطَـبِ مـن قِبَـلِ (قَيافـا) أو الّـذي يتسـلّم رئاسـة الكَهَنـةِ في ذلـك الوقـت.

حينَ دخلْنـا مـن البوّابـة الغربيّـة، كُنّـا توّاقيـنَ إلى الدّخـول في ملكـوتِ الله عـلى الأرض. لكنّني قبـل أن أدلُـفَ إلى السّـاحة الفسيحة تَناهَـى إلى سـمعي خُـوارُ أبقـارٍ في المـكان. فلـم أُصـدِّقْ سـمعي، فلّـما صرتُ في السّـاحة وجـدتُ عجبًـا، كانـتْ هُنـاكَ بالفِعـل أبقـارٌ عـلى حَـوافّ المعبـد قـد لجـأتْ إلى ظِلّـه مـن الشّـمس، وأصحابُهـا يضعـون أمامهـا المَعالِـف، وهِـيَ تـأكُلُ وتمضـغُ، وصاحِبُهـا يُنـادِي عـلى بَيْعِهـا لتُـؤدَّى قُربانًـا في المذبـح وكأنّ الأمـر طبيعـيّ. اقتربـتُ مـن البوّابـةِ الرّئيسيّة الّتي تُفضي إلى أماكـن الصّلـوات فوجدتُ بقـرةً كبـيرةً تجترّ ثُـمّ تُخرِجُ فَضَلاتهـا وتسكُبُهـا عـلى الأرضِ فتُدَنِّـسُ المـكان، فاغتظـتُ كثـيرًا، فنهـرتُ صاحِبَهـا: «هـذا بيـتُ الله وليـسَ إسـطبلاً». فَحَدَجَنـي بنظـرةِ احتقـارٍ، وحَـوّلَ وجهـه عنّـي إلى الجِهَـةِ الأخـرى. فقـال لـه بعـضُ التّلاميـذ: «أتعـرفُ مَـنْ تُكلِّـمُ يـا هـذا؟!». فـردّ: «وَلْيَكُـنْ مَـنْ يكـون؛ مـا دُمـتُ أدفـعُ لرئيـس الكهنـةِ عُشرَ ثَمَنِ البقـرةِ فـلا تستطيـعُ قـوّةٌ أنْ تُزحْزِحَنـي عـن مكـاني». وفي غمـرةِ الحِـوار، كانـتْ أصـواتُ الشّـياه وهـي تَثغُـو تمـلأُ أُذُنيَّ قيحًـا. مـرّ مـن جانِبنـا رجـلٌ يجـرُّ كَبْشَـين وهُمـا يُعانِدانـه وهـو يشـدّ عـلى قَرونَيهـا، حتّـى بَـرَكَ أحدهمـا ولم يقبـلْ أن يسـيرَ معـه، فطلـبَ مِنّـي أن أُسـاعده عـلى دَفْـعِ الكبـشِ البـارِك، فنظـرتُ إليـه مُتعجِّبًـا: «أفي هـذا المـكان الطّاهـر تجرّ كِباشَـك، ألا تستحـي من الله يـا رَجُل». فـردّ: «ليسَ لـديّ وقـتٌ لأسـمعَ موعظتـك الآن، حُبًّـا بـالله سـاعِدْني، فأنـا ذاهِـبٌ لأُسـلِّمَ هذيـن الكَبْشَـين وأقبِـضَ الثّمـن». وحيـنَ نهـضَ الكبـشُ وحـده بعـد ذلـك، كان قـد صنـع بِرْكـةٍ مـن بَوْلـهِ في المـكان، فـازدادَ غَضَبـي، ولّمـا سِرْنـا مسـافةً أخـرى إلى الحائـط الغـربيّ القريـب مـن جهـةِ تجمُّـعِ الحُجّـاج، رأيـتُ مـا هـو أعجـب،

كان باعةُ الحَمامِ والطّيور يضعون مئاتِ الحماماتِ الّتي اصطادُوها في أقفاصٍ خشبيّة ويُنادُون على بَيْعها، وكانَ الحمام يُدنِّسُ المكانَ بِفَضَلاتِه، ثُمّ تداخلتْ مع أصواتهم أصواتُ الصّيارفة وهُمْ جُلوسٌ إلى موائدهم يصيحون على مَنْ يُريدُ أن يُبدّل عملته إلى العُملةِ اليهوديّة، فقد كانَ المكانُ يضمّ أقوامًا وأعراقًا وأجناسًا شَتّى. كانَ صوتُهم صوتُ الشّيطانِ نفسه، ملكَ عليهِمْ حُبُّ المالِ كُلّ قلوبهم، فأخلدوا إلى الأرضِ لا يُبارِحونها لصلاةٍ أو عِبادة، ولا هَمّ لهم إلاّ أن يقبضوا أموالاً ويُحصّلوا أرباحًا من جرّاء تبديل العُملة. ورأيتُ أنّ الّذين لوّثوا طهارةَ المكان بِرَوْثِ الدّوابّ أخفُّ من هؤلاء الّذين يلوّثون طهارته بروثِ الأصوات، فلم يَعُدْ لديّ صبرٌ على ما أرى، فهجمتُ على أقفاصِ الحمام ففتحتُها وأطلقتُ ما فيها، فخَفَقَتِ الحماماتُ بأجنحتها وحلّقتْ بعيدًا وسطَ دهشةِ أصحابِها واستِغرابهم، ثُمّ بدأ صياحهم واستِنكارهم وهجموا يريدون الإيقاع بي، فعدوتُ على الصّيارفة فقلبتُ موائِدهم بِكُلِّ ما أوتيتُ من قوّة فتطايرت العُملاتُ الذّهبيّة والفضّية في الهواء، حلّقَتْ فترةً بسيطة ثُمّ ارتطمتْ بالأرضِ فأحدثتْ رنينًا انخلعَ له قلوبُ الصّيارفة فصرخوا واستَعدَى بعضُهم بعضًا، فوقفتُ في وجوههم، وهتفتُ بقوّة: أفي بيتِ الله تَبيعون وتشترون؟! الله أرادَه لنفسه مكانًا طاهِرًا وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ. أوّاهُ من العالَمِ الفاجِر الّذي لا يعرفُ الله!! تَبًّا لعبادةٍ تتحوّل إلى تِجارة. فَخَنَسوا. وهَمْهَموا. وتراجع بعضُهم من وَقْعِ كلماتي. ثُمّ انكفؤوا على أنفسهم، فتناولتُ حَبلاً من جِلدٍ فلحقتُهم به على ظهورهم وطردتُهم من المكان، فهرَبوا من السَّوطِ مَرعوبين. وذرعتُ الأرض حتّى صِرتُ عند البوّابةِ الرّئيسيّة للمعبد، وكان الحبلُ لا يَزالُ في يدي، فوقفتُ أمامه حارِسًا فلم أدعْ أحدًا يجتازُ البوّابة ومعه متاعٌ من دابّة أو طيرٍ أو عُملةٍ أو قمحٍ أو غيره. فكانَ ذلك حَدَثًا مشهودًا أمام النّاس، وتهامَسَ النّاسُ فيما بينهم: «مَنْ هذا... مَنْ هذا؟!» وفَرِحَ بي كثيرون، أمّا الكَهَنةُ فدبَّ الخوفُ

في قلوبهم، واضطربوا؛ فإنّ تجارتهم بعدَ ما صنعتُ ستتهاوَى، وخافوا على أموالهم ولم يغضبوا إلاّ لها.

وأدّيْنا صلَوَاتِنا، وقضيتُ عصرَ اليومِ في الجموع أعِظُها، وكنتُ قد اتّخذتُ ناحيةً لي، والنّاسُ يحيطونَ بي إحاطةَ السِّوارِ بالمِعصَم. وكان النّهار يَتَقضّى، وأكلتُ مع التّلاميذ مِمّا أُهدِيَ إلينا من الحُجّاج. وتَلوتُ بعدَ أنْ فرغنا من الطّعامِ صلاةَ شُكرٍ. وبدأ المعبد يفرَغُ من زُوّارِه، وخرجْنا إلى بعضِ الخِيَم الّتي تُقامِ لعابري السّبيل. ونِمْنا ليلتنا تلكَ فيها.

(٣٨)

اللّه رَبُّ كُلِّ يومٍ

في اللّيـل، غصّـتْ خيمتُنـا بالنّـاس. صـارَ ثقيـلاً عـلى تلاميـذي أنْ يصـبروا عـلى مُلاحقـة النّـاسِ لنـا، ولكنّنـي قلـتُ لهـم أحثّهـم عـلى التّحمُّـل: وَسّعوا قلوبكـم؛ فمحبّـة الله عظيمـة؛ إنّ جرّة صغيرةً لا تقـدرُ أن تَعي البحـر؛ كُونـوا البَحـرَ لا الجَـرّة!

جـاءني فتـىً في الثّامنـة عـشرةَ مـن عُمُـره، كان الـبَرَصُ قـد أحـدثَ في جِسـمِهِ بُقعًـا مثـلَ الدّراهـم فـرأى النّـاسُ فيـه دمامـةً فكانـوا يُعرِضـون عنـه، فوجد ذلـك في نَفسِه فلـم يُطِق الحياة. قـال لي: «يـا سيّد إنّني آتي مـن النّقبِ في كُلِّ عيدٍ وأُقـدّمَ قربانًـا لكـي أُشـفَى مـن مرضي، لكـنْ هـذه هـي السّـنة الرّابعـة الّتي أفعـل ذلـك ولا أُشـفَى». فقلـتُ لـه: لأنّـكَ تـأتي لكـي تتخلّـص مِمّـا تسـمعه مـن النّـاس، لا لكـي تكـونَ قريبًـا مـن الله، بذلـتَ نفسَـك لِنفسِـكَ وليـس لـه هُـو؛ فكيـفَ يُعطيـك!!». «ومـاذا يفعـل الخاطِـئ؟!». «لـو لَمْ يُخطِـئ الإنسـانُ لَمـا عَلِمْـتُ أنـا ولا أنـتَ رحمـةَ الله وبِـرَّه». «فكيـفَ يشـملني الله برحمتـه؟!». «آمِـنْ بقلبِـكَ لا بلسانِك». ثُـمّ مـددتُ يـدي إلى صـدري، فارتـجّ، ثُـمّ تلـوتُ عليـه نـورًا مـن الله، وقلـتُ لـه: قـد شـفَاكَ الله، فـأدِّ حـقّ الله في نِعمتـه؟! فنظـر إلى جسـده، فـرأى أنّ البُقـع قـد اختفـتْ، وتحسّـس يديـه وصـدرَه ووجهَـه غـيرَ مُصـدّق. فذكّرتُـه بحـقّ الله في نِعمتـه، فسـألني: «وكيـفَ أشـكره يـا مُعلّـم؟!». «أنْ تُراقبَـه في صنيعـكَ مـن اليـوم فـلا تعصيـه مـا اسـتطعت». وولّى وسـحابةُ الشّـكّ مـا زالـتْ تغلّـفُ هَواجِسَـه!!

وحُمِلَ إليّ مشـلولٌ، فأقمتُـه مـن رَقدَتِـه الّتي طالـتْ عـشرَ سنينَ بكلمةٍ

الله، وجيءَ بأعمى، كان قد وُلِدَ كذلك. فَقُدِّمَ إليّ، فسألني التّلاميذ: «أتُورِثُ الخطيئةُ العَمى؟!». فأجبتُهم: «بلى». «فَمَا كانَ سببُ عَماه، أخطيئةٌ منه أم من أبوَيه؟!». «لم تفهموا ما قصدت، لا خطيئتُه ولا خطيئةُ أبويه كانتْ سبب عَماه؛ بل خطيئةُ القلبِ تُورِثُ عمى القلب، إنّه لا يسوؤُكَ أنْ تعيشَ أعمى العينِ في الدُّنيا فإنّ ذلك من الله، بل كُلُّ السّوء والويل لِمَنْ يُحشَر إلى الله أعمَى!!».

وخرجتُ خارجَ الخيمة، فدنوتُ من أرضٍ ناعِمةِ التّراب، فسكبتُ عليها بعضَ الماء، ثُمّ جَبَلْتُه، وصنعتُ منه طينتَين بقدر العينَين، ثُمّ تلوتُ عليهما من نور الله، ثُمّ عدتُ إلى الأعمَى، فوضعتُ كُلَ طينةٍ منهما على كُلّ عين، ثُمّ قلتُ: «اللهمّ رُدّ هذا الأعمى بصيرًا بقُدرتِك». واقتربتُ منه، فهمستُ في أذنيه: «إنّ الله ليعرفُ الصّادِقَ من الكاذِب؛ فإنْ أنتَ صدقتَ الله في الإقلاع عن معاصيكَ فإنّ الله سيقبَلُ منك. اذهبْ إلى البِركة فاغتسلْ فيها، فإذا كانتْ نِيّتكَ في العودة إلى الله صادقةً فستخرج منها بصيرًا، وإلاّ فإنّ عماكَ لا يقدر أحدٌ على شِفائه، والله أدرى بالنّوايا». فذهبَ فَعَلِمَ اللهُ فيه خيرًا فاغتسل فخرج بصيرًا، فخرّ على رُكبَتيه، ثُمّ صُعِق، فلمّا أفاق لهجَ لسانُه بالذِّكر. وشاعَ خبرهُ في الحجيج، فقضيتُ ليلة السّبتِ كُلّها وأنا أستتيبُ الخاطِئين، وأشفي المرضى بإذن الله حتّى كادَ يطلعُ الصُّبح.

عُدْنا إلى المَعبِد، في ثاني الأيّام، نُؤدّي صَلَواتِنا، وتقصّدْتُ مجامِعَ النّاسِ أدعوهم إلى رِسالة الله. كانَ الوقتُ قد قاربَ الظُّهر، وكنتُ أُسنِدُ ظهري إلى أحدِ جُدْرانِ المعبد، فسمعتُ جَلَبةً عالِية، فنظرتُ باتّجاه الصّوت، فرأيتُ جمهرةً من النّاس مُتجِهةً نحوي من بعيد يُشايِعهم جَمعٌ غفير، فلمّا صاروا على مقربةٍ رأيتُ (قَيافا) يتقدّمهم مع مجموعةٍ مِنَ الكَهَنِة الكِبار وعامّة النّاس، وصلَ إليّ وهو يُمسِكُ بعصا كَهَنوتِه ويزفُرُ غَضَبًا، وتهيّأتُ

للأسـوأ. قـال:

- أتطُردَ ضُيُوفَ الله، وترمي أوانِيَهم؟!
- بيتُ الله ليسَ سوقًا.
- فَمَنْ خَوّلكَ أن تفعل هذا؟!
- الله.
- وهل تعرفُ الله أكثرَ مِنّا؟!
- الله يُعرَف بالقلب لا بالدّرهمِ والدّينار.
- وما شِفاؤكَ النّاسَ هذا يومَ السّبت؟!
- بقُدرةِ الله.
- بـل بالشّـياطين. فإنّـه لا يعمـلُ أحـدٌ يـومَ السّـبتِ إلاّ كانَ الشّـيطانُ في روحـه.
- الله رَبُّ كُلِّ يوم، فما يضير إنْ فعلَ الإنسانُ أمرًا لله في السّبت.
- إنّـه يـومُ راحـةٍ، ولَئِنْ بَقِيتَ على صَنيعِكَ هـذا لَنُحَكِّمَـنَّ فيـكَ شريعـةَ موسـى.
- مُوسَـى أخي، ويحيى أخـي، أسـلمْتُمْ مُوسَـى مـن قبلُ وهـا أنتـم تُسـلِمون يحيى؛ قُلْ لي: لِماذا لم تستخدمْ نُفوذَكَ عنـد (أنتيبـاس) لِتُخرِجَ يحيى مِنَ السّـجن؛ أمْ أنّ نُفـوذَكَ هـذا تسـتخدمه لِتُخرِجَ المجرمين الّذيـن يُمالِئنوك ويَسـكُتون عـلى أفعالِك؟!

فخـارَ (قَيافـا)، ولَمْ يَـدْرِ بـما يُجيـب، ثُـمّ إنّـه أرادَ أن يَقـول فلَـمْ تخـرجِ الكلـماتِ مـن فمـه، فـازداد غيظًـا، ثُـمّ أرادَ أنْ يُحرِجَني، فقـال سـاخِرًا مَغِيظًـا:

- يَقولـون إنّـكَ تُحيـي المَوتـى، اُنظـروا لم يبـقَ أن يتحـدّثَ عـن المُعجِـزات غـيرُ اللُّقطـاء. ابـنُ النّجـار الّـذي لم يسـتطعْ أن يجـدَ عمـلاً صـار رَبًّـا.

- نعم أُحييهم، ولكنْ بكلمةٍ من الله.

فتدخّلَ (يوحَنّا)، وغاظَه ما سَمِعَ من مُجادلة (قَيافا)، فقال له:

- ألمْ تَسمَع؟! ألم تسأل من أحدٍ كهنتكِ كيفَ أحيا ابنتَه!!
- إنّها لم تَكُنْ ميّتة، وإنّما كانتْ نائمة، وهو قال ذلك للنّاسِ قبلَ أن يدخل إلى غرفتها، وكُلُّ الّذينَ ادّعى أنّه أحياهُم من الموتِ إنّما كانوا لم يُدفَنوا، وقد يكونُ أصابَتْهم سَكتةٌ، لا أنّهم فارَقوا الحياة.
- فما تُريدُ دليلاً على أنّ الله أعطاني هذه المُعجِزة؟!
- أنْ تُحيي مَنْ صارَ عَظمُه ترابًا في الغابِرين.
- فمن تريدُ منهم؟!
- أن تُحييَ (سامَ بن نوح). (قال ذلك بطرف فمه، وقد ازورّ عنقُه، ورفعَ رأسه تحدّيًا).

وخافَ تلاميذي مِن طَلَبِ (قيافا)، واحتّجوا على ما قال، وأشفقوا عليّ، وعلا صوتُ آخرين مُؤيّدين لقَيافا، واصطخبَ المكانُ بصراخهم، وصاحوا بصوتٍ فوضويّ: «هل تستطيع... نعم هل تستطيع؟!». فنظرتُ في وجه (قَيافا)، وهتفتُ فيه:

- وإنْ أَحْيَيْتُهُ أتؤمِنُ بي وتدعو أتباعَكَ إلى ذلك، وتُخلّي بين تلاميذي والنّاس؟!
- نعم.
- فدُلّني على قَبره.

ولم يَكُنْ في المعبدِ كُلّهِ أحدٌ يعرفُ قبره غير (قَيافا) وبعضُ الكَهَنَةِ، فساروا أمامي، فتبِعتُهم مع أنصاري، وتَبِعَه أنصارُه، وسارَ حشدٌ كبيرٌ معنا

مـن النّـاس، يترقّـبُ أن يـرى مُعجِـزَةً كبـيرة، فسـام بـن نـوح الّـذي قـضى منـذُ آلاف السّـنين، سيقفُ أمامهـم ويُخاطِبهـم بعـدَ قليـل. وكانَ قـبرُه في سَـهْلٍ مـن الأرضِ خـارجَ السّـور، عـلى شـكلِ حجـارةٍ دارِسـة، لم يتبـقَّ منهـا فـوقَ الأرضِ إلاّ رُؤوسُـها. فوقفْنـا هُنـاك، ثُـمّ التفـتُّ إلى النّـاس فوجـدتُ أبصارَهـم مُعلّقـةً بي، وعيونهـم شـاخِصةً نحـوي، فدخـل في قلبـي الرُّعـبَ مـن أن يظنّـوا أنّني أنـا الّـذي أفعلـه؛ ووقـف الشّـيطانُ بينـي وبينهـم فسـوّل لهـم أنّـه لا يُحيـي مَيّتًـا إلا الله، فَمَـنْ يَكـونُ هـذا الّـذي يقـفُ أمامَكـم؟! فطردتُـه مِـنَ الجمـع، وقلـتُ لهـم: قبـل أنْ آمُـرَ هـذا الميّـتَ بقـدرة الله أنْ يقـوم مـن قَـبْرِه؛ ثِقُـوا أنّنـي لا أسـتطيعُ أن أدفـعَ أَرَضَـةً تعلـقُ بِرجـلي الآن، ولا أملِـكُ لكـم ولا لي، ولا أحـدٌ يَمْلِـكُ لأحـدٍ شيئًـا، إنّـما هـو الله الأحـد. ثُـمّ قلـتُ: بأمـر الله يـا سـامَ بْـنَ نـوحٍ قُـمْ مـن قَـبْرِك. فتقرقعـتِ الحجـارةُ في البدايـة، ثُـمّ صعـدتْ كأنّ أحـدًا دَفَعَهـا مـن الأسـفل، ثُـمّ تباعَـدَ الـتُّراب، فانشـقّ عـن كَفـنٍ، ثُـمّ تشـقّق الكفَـنُ والنّـاسُ ينظـرون وقـد عراهُـمْ ذهُـولٌ مُهلِـك، ثُـمّ نَشَـزَتِ العِظـام، فوقَـف عَظْـمُ السّـاقِ فقـزَ فوقَـه عَظْـمُ الفَخِـذ ثُـمّ رَكِـبَ فوقـه عَظْـمُ الحَـوضِ ثُـمّ عـلاهُ عَظـمُ الصّـدر، ثُـمّ الجُمجمـة، ثُـمّ هُرِعـتْ عِظـامُ السّـاعِدَين فالتصقَـتْ بأخواتِهـا، فصـار عظـمًا كامِـلاً، والنّـاسُ تَـرى، وبعضُهـم غـابَ عـن الوعـي لِهَـولِ مـا يَـرى، ثُـمّ كُسِـيَتِ العِظـامُ لحـمًا، فصـارَ رجُـلاً سَـوِيًّا، ثُـمّ التفـتَ الرّجـلُ حولـه فَزِعًـا، وَنظَـرَ في وُجوهِنـا مُسـتغرِبًا مُسـتطلِعًا وقـد شـابَ رأسُـهُ، فسـألتُه، والنّـاسُ تسـمع:

- أأنْتَ سامُ بْنُ نُوحٍ؟!
- بلى. وأنتَ روحُ الله عيسى.
- فَمَنْ أشابَ رأسَكَ ولم تكنْ ذا شيبٍ؟!
- يـا روحَ الله إنّـكَ لمّـا دَعوتَنـي سـمعتُ صوتًـا يقـول: أَجِـبْ روحَ الله؛ فظَنَنْـتُ أنّ القِيامـةَ قـد قامـتْ؛ فَمِـنْ هَـولِ ذلـك شـابَ رأسي.

- أعانَيْتَ عندَ الموتِ النّزعَ؟!
- يا روحَ الله إنّ مرارةَ النَّزْع لم تَذهبْ عن حَنجرتي!! (وقد مَضى على ذلك أكثرُ من أربعةِ آلافِ سنة).

فنظرتُ إلى وجه قَيافا فإذا هُوَ أسودُ من الخوف والهَلع، وإذا هُوَ لم يُغيّر وقفته مُنذُ جِئنا، فقلتُ لسام:

- إنّه قد أحياكَ الله لتكونَ مُعجِزةً للجاحِدين.
- آمِنوا به فإنّه رسولُ الله. (قال ذلك ناظِرًا في وجه قَيافا الّذي ازداد رُعبه وهو يرى عينَيه تَنفُذان إلى وجهه).

ثُمَّ إنّي أمرتُه أن يعودَ إلى قَبره، فما حقّتِ الحاقّة بعدُ، وإنّ لكلّ أجلٍ كتاب، فسقطَ لحمه، ثُمّ تداعت عِظامه، فولجتْ في القبر، ثمّ انهال عليها التّراب، ورُكِزَتِ الحَجارةُ فعادتْ كما كانتْ. وقفلْنا راجِعين إلى المعبد، فلمّا ذهبَ الرَّوْعُ عن (قَيافا)، واستعادَ دمَه ولونَه، وكفّتْ عيناه عن الجُحُوظ، قلتُ له: «قدْ رأيتَ». فأجابني وهو يبلع ريقَه، ويُنغِضُ رأسه: «إنّك لساحِرٌ عَليم؛ آمنتُ بِسحرك ولا أؤمن بنبوّتك». «يا جاحد، أما كَفاكَ ما رأيتَه بأمّ عينَيك، ولكنّي أعرفُ أنّ مَنْ تربّع الشّيطانُ في قلبه أنّى له أنْ يُؤمن. لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا». «السّيفُ لكَ لا لنا».

(٣٩)

أأتركَكَ تجوعُ وأنتَ حبيبي؟!

ليسَ الجِدارُ الحجريُّ حاجِزًا، ولم يَكُنْ كذلك يومًا، ما بيني وبينَ الله لا تحجزه السّماوات فكيفَ بهذه الحجارة الصّمّاء. ما يجب أن تخشاه هو جدار القلب، وحده القادِر على أن يحجزَ بينكَ وبينَ الله إذا استتر خلفه الشّيطان، نَظّفْ قلبكَ من وساوس الشّيطان يتجلّى لكَ الله فتجدُ عنده من كلّ وحشةٍ أُنسًا، ومن كلّ ضيقٍ مخرجًا.

كانَ يحيى يرسُفُ في الأغلال في زنزانةٍ منفردة، في قلعة (مَكاور). القلعة الّتي أقيمتْ في أنحاءِ مُؤاب لكي يُودَع فيها السّجناء الخَطِرون، في حِراسةٍ شديدةٍ بعيدةٍ عن حدود الدّولة، وكانتْ تقع في جبلٍ أجرد، لا بيوتَ حوله، ولا مزارع، وحدها القلعة تقفُ جبلاً آخرَ على رأسِ هذا الجبل، وتشرفُ على وديانٍ سحيقةٍ، من جهة الزّنازين، حتّى إذا ما فكّر السّجينُ بالهرب لم يجد أمامه منفذًا إلاّ الوقوع في وديانٍ سحيقةٍ موحشةٍ تعجّ بالزّواحفِ من الأفاعي، وبالوحوشِ من الذّئاب والضّباع، فلا يكون فِرارٌ مِنَ السّجن إلاّ إلى الموت!!

أمّا إذا تعاونَ السُّجناءُ فيما بينهم ليتمرّدوا، واستطاعوا فتح البوّابة الحصينة؛ فإنّ حدود الدّولة البعيدة لا تتأثّر بتمرّد كهذا، وبُعد المسافة يُمكّن قُوّاتها من القضاء على هذا التّمرّد قبلَ أنْ يَصِلَ إلى المُدنِ الآهِلة. إضافةً إلى أنّ عدد نُزلاء السّجنِ ليسَ كبيرًا، إنّما يُخشَى مُؤيّدوهم في الخارج.

بعدَ شهرٍ من الاعتِقال في زنزانةٍ فرديّة، استطاع (أندراوس) أن

يـزورَ أسـتاذه الأوّل (يحـي)، كان عـلى علاقـةٍ طيّبـة مـع المسـؤول عـن معتقـل القلعـة، فقـد كانَ رومانيًّـا مـن حامِيـات الشّـمال، وكثـيرًا مـا كانَ يبيعـه السّـمك بأسـعارٍ خاصّـة.

- كيفَ هي أخبارُكَ سيّدي؟! (قال أندراوس ليحيى).
- أنا في أحسنِ نعمةٍ مرّتْ عليّ.
- نِعمة؟!
- بـلى؛ جمعـتُ إلى النّبّـوةِ الخَلـوة؛ وفي الخلـوة يكـونُ التّأمّـل، وفي التّأمّـل تكمـنُ الحِكمـة.
- إنّني أخافُ أن يطول حبسُك.
- ليسَ بقـدرِ مـا يطـول حِسـابي يـومَ نلقـاه. أريـدُ منِـكَ شـيئًا يـا (أَنْـدراوُس).
- أنا طَوْعُ يديكَ يا نبيّ الله.
- هـل يُمكـن أنْ تأتينـي بـدواةٍ وصُحُـف. أريـدُ أنْ أكتـبَ صـوتَ روحـي هُنـا.
- سـأحاول يـا سيّدي، تعرف كـم هـي الأمـور صعبـة، لكنّنـي سأسـتغلّ معرفتـي وعلاقتـي بالقائـم عـلى القلعـةِ هُنـا. لا تقلـقْ يـا سـيّدي، سـأهتدي إلى طريقـة.
- سـتكون وريشـي ووريـث عيسـى. هُنـاك أمـرٌ آخـر يـا أنـدراوس؛ هـل يُمكننـي أن أطلبـةَ منـك؟!
- نعم يا سيّدي بكلّ تأكيد.
- أريـدُكَ أن تَسْـأل يسـوع هـل هـو المَسِـيّا المُنتظَـر؟! قُـلْ لـه: هـل أنـتَ المُخلّـص الّـذي سيسـود دينُـه؟! أم أنّنـا ننتظـرُ مَسِيًّا آخـر؟! لا تنسَ أن تقـول لـه ذلـك. عـلى لسـاني... عـلى لِسـاني... أسـمعتَ يـا أنـدراوس عـلى لِسـاني!!
- نعم، يا معلّمي.. نعم يا سيّدي.

قَرَع الحارسُ الرّومانيّ برمحه على الدّرع الّتي تغطّي صدره ثلاثَ قَرَعاتٍ مُتتابِعاتٍ وصاحَ بأندراوس ليتركَ قُضبان الطّاقةِ الّتي يُحادِثُ منها يحيى. ودَّعه دامِعًا. وحينَ تركَ له قلبَه هناك، كان يَحيى يبدو على ضوء النّهار القادم من النّفاذة العُلويّة مثل شَبَحٍ يركنُ إلى زاويةٍ في الزنزانة، مُثقَل الرّأس، شاحِبًا، ونحيلاً إلى حَدٍّ مُقلِق.

غادر (أَنْدراوُس) الزّنزانةَ من فَورِه إلى مكتبِ مدير سجن القلعة، أذِنَ له بالدّخول عندما عَرَفه، وقف بينَ يديه، قال له الرّومانيّ: «لم تبْعَثْ لنا بِسَمَكٍ مُنذُ فترةٍ طويلة». «نعم أيّها القائد، شُغِلْتُ بأمورٍ أخرى عن صيدِ السّمكِ فَاعْذُرني». «دَعْنا نَرَ بَرَكاتِ شَبَكَتِك». «سأفعل يا سيّدي؛ لكنّ لي طلبًا عندك». «تعرف أنّني لا أستَطيعُ أن أتجاوز القانون الرّوماني، فيما عَدا ذلك فاطلبْ». «عندكَ سجين». «مَنْ هُو؟! لا تَقُلْ لي أن أخرجه، فأنا لا أستطيعُ، ولا قائدالمئة، ولا حتّى قائدُ الألف؛ لا أحدَ يستطيع ذلك إلاّ (أنتيباس) نفسه، وحتّى هُو الآن لو بعثتَ له بِرُسُلِكَ فلنْ يستطيعوا مُقابلَتَه لأنّه مشغولٌ بالحرب». «لا أيّها القائد، الأمرُ أبسطُ من ذلك». «قُلْ بَحِقِّ الآلهة ماذا تُريدُ إذًا، وَمنْ هُو السّجينَ الّذي تتحدّث بشأنه؟!». «إنّه يَحيى؛ يحيى بن زكريّا، وأطلبُ من فخامتك أن تسمح لي بإدخال صُحُفٍ ودواةٍ إليه في زنزانته». وقفَ القائد تارِكًا كُرسيّه، وأحدَّ نظرتَه، وحكّ ذَقنه بأصابعه: «اممم، ولكنّ هذا مُخالِفٌ أيضًا للقانون الرّوماني». «وَمَنْ يدري أيّها القائد؟». «إذا عرفَ قائدُ المئة بالأمر عَزَلني، ولربّما سَجَنَني مكانه». «لكنْ لِماذا يعرف، وكيف؟! أدخِلْها خُفيةً بنفسِكَ إلى الزّنزانة وينتهي الأمر». «الأمرُ ليسَ سهَلاً». «يُصبِحُ سهلاً إذا أردتَ». «وأُدخِلُها دون مقابل؟!!». «بالطّبع لا يا سيّدي؛ سأبعثُ إلى زوجَتِكَ وأولادِكَ في كفر ناحوم صُندوقًا كامِلاً من السّمكِ الطّازج مقابل اثنتَي عشرةَ صحيفةً ودواةً واحدة؛ انظر صندوقًا كامِلاً مقابل بضعَ أوراق؛ أليستْ مُقايَضَة مُربِحة؟!

هـه مـا رأيـك؟!». حَـكّ مدير السّجن ذقنـه مـن جديـد، ونظـر إلى الأرض، ودون أن يَقـول كلمـةً واحِـدةً هَـزّ رأسـه مُوافِقًـا!!

لم يُفـوّتْ يحيى ليلـةً واحـدةً مـن اللّيـالي الّتـي أودعَ فيهـا هُنـا دون أن يُناجـي الله. كانَ يعـرفُ الله أكثـرَ مـن أيّ بـشريّ عـلى وجـه الأرضِ في تلـك الأيّـام. قـال الله كلامًـا كثيرًا. حَفِظَـه. وعـاه. وستتعلّم منه الأجيال مـن بعـدُ. ليسـتْ هـذه اوّل مـرّة يقـول لـه الله ذلـك، ويُعلّمـه الحِكمـة، ابتـدأ عهـدُ الله معـه في الحِكمـة منـذُ أن كانَ في السّادِسـة. مـا قالـه الله لـه في القلـب لا يُنسَـى. يبقَـى زمنًـا طويـلاً حتّى بعد أنْ يُدفَـنَ الجسـد. القلـبَ يبقَـى كـما هُـو والحِكمـةُ موضعـه، وعـلى النّـاس فقـط أنْ تُقـدّسَ تلـكَ الحِكمـةَ لتُؤتاهـا.

صـامَ يحيى كُلَّ أيّامـه الّتي قضاهـا هُنا في السّـجن. لم يترك يومًا دون أن يقطعـه بالصّـوم والصّـبر والصّـلاة. ومـا يتأتّـى ذلـك إلاّ لنبـيّ، ولا يكـون ذلـك إلاّ لِقدّيـس، ولا ينبغـي ذلـك إلاّ لحكيـم خاشِـع. وقـد كان نبيًّـا قِدّيسًـا حَكيـمًا. ومَـنْ يسـتطيع أن يُـدرِكَ الحِكمـةَ إلاّ مَـنْ مَشَـى في الطّريـقِ الّتـي مَشـاها هـو!!

في اللّيـل عـلى الجبـل العـالي، والزنزانـة الحصينـة في القلعـة المنيعـة، مـن النّافـذة الضّيّقـة سَـمِعَ صوتًـا قادِمًـا مـن هُنـاك، كأنّـه نَسَـماتُ الدُّجى الهامِـس:

- أأتـركَكَ تجـوعُ وأنـتَ حبيبـي، وتعطـشُ وأنـتَ رسـولي، أأتـرُكَكَ في الرّهَـقِ والتّعـب يُؤذيانِـك وأنـتَ عَبْـدِي!!
- جُعـتُ ليـومِ الشّبع في دَوْحتِـك، وعطِشـتُ ليـوم الـرّيّ في ظِلّـك، وتعِبـت ليـوم الرّاحـة في مَلَكُوتِـك.
- أآتيكَ بالطّعام، كما كُنتُ آتي به مريم!!
- لا يـا ربّ؛ فإنّنـي أدّخـر ذلـك إلى لقائـك. فـما أقـصرَ العُمـرَ هُنـا، ومـا أطولـه هُنـاك!!

ثُـمّ يغيـمُ في سـكينةِ الله، فيمـرّ بـه اللّيـلَ حفيفًـا، فينـام، حتّـى إذا نقـرَ الفجـر كتفـه، قـام.

****

جـاءني (أَنْـدِراوُس) فيَ بعـضِ نواحـي كفـر ناحـوم، كنـتُ قـد اتّخـذتُ مـن بعـضِ أنحائهـا الرّائعـة مقامًـا لي. هُنـا عـلى شـاطِئِ البحـيرة عشـتُ زمنًـا لا بـأسَ بـه مـن أجـل أنْ أُعلّـم أهـل هـذه القـرى المُتناثـرة في الجليـل الأعـلى ومـا حولـه، وقـد وجـدتُ عـلى الإقامـةِ هنـا قلوبًـا صافِـة، ونفوسًـا طيّبـة لا تُشـبه تلـك الّتـي واجهتُهـا في النّـاصر في أوّل الدّعـوة!!

كُنّـا نجلسُ في بيـتٍ ليوحنّـا، وكان كلّ الّذيـن اخترتُهـم مـن تلاميـذي يجلسُ معنـا إلاّ التّلميـض الأخـير. وكان ذلـك في إحـدى الأمسـياتِ اللّطيفـة الرّائعـة، في جَـوٍّ مـن الألفـةِ عميـق. قـال لي (أنـدراوس): «أيّهـا المُعلّـم، إنّ لـديّ رسـالةً مـن يحيـى إليـك». «أزتَـه؟!». «بـلى». «أخـبرني عـن أحوالـه». «قَـضى الله لـه الحِكمـة بالتّعـب». «ومـا رسـالته الّتـي منـه إليّ؟!». «إنّـه طلـبَ مِنّـي أن أسـألكَ هـل أنـتَ المَسِـيًّا المُنتَظـر؟!». كانَ سـؤالاً لا يسـأله إلاّ نبـيّ، ولا يـأتي إلاّ ليكـون الهـدفُ مـن ورائِـه تعليمًا لا مجـرّد الحصـول عـلى المعلومـة؛ فـلا بُـدّ أنّ يحيى يعـرف، لكنّـه أرادَ منّـي أن أجهـرَ بالإجابـةِ أمـام تلاميـذي، حتّـى يُبشّـروا بـه بعـد أنْ أُفارِقهـم. فاعتدلـتُ في جلسـتي، وصمـتّ صمتًـا تامًّـا، فعـرفَ التّلاميـذ أنّنـي سـأقول شـيئًا مُهـمًّا، وأنّ عليهـم أن يُهيِّئـوا كُلّ حواسّـهم ليُدرِكـوا مـا أقـول: «انظـروا إليّ أيّهـا الأحبـاب، اسـمعوني جيّـدًا أيّهـا الرُّسُـل، مـا سـأقوله يجـب أن تَعُـوه جيّـدًا، لأنّنـي لا أريـد أن يتصـرّف فيـه بالتغيـير مَـن سـيأتون بَعـدي، إنـه أمـرٌ يَنبنـي عليـه عهـدُ الرُّسـل الّـذي أَخَـذَه اللهُ علينـا، ويتعلّـق بأمـر سـلالتنا نحـن مَعـاشِرَ الأنبيـاء: «إنّي قـد أتيـتُ لأُهيِّـئَ الطّريـقَ لرسـول الله الّـذي سـيأتي بِخَـلاصٍ للعـالَم، ولكـنِ احـذروا أَنْ تُغَشُّـوا لأنّـه سـيأتي أنبيـاء كَذَبَـةٌ كثـيرون

يأخـذون كلامـي ويُنجِّسـون إنجيـلي». فسـألني (أَنْـدراوُس): «يـا مُعلّـم اذكُـرْ لنـا علامـةً لِنَعرفـه». فقلـتُ لـه: «إنّـه لا يـأتي في زمانكـم بـل يـأتي بعدكـم بعـدّة سـنين حينَـما يَبطُـلُ إنجيـلي ولا يَـكادُ يوجَـدُ ثلاثـونَ مُؤمِنًـا». «وهـل سـتعيشُ أنـتَ إلى ذلـك الزّمـن» سـألني برنابـا. «أنـا سـأعيشُ طويـلاً أكثـرَ ممّـا عاشَـه أيُّ نبـيٍّ أو بـشريّ، ولكـنّ بقائـي عـلى الأرض قصـيرٌ أقـلّ ممّـا عاشـه إخـوتي مـن الأنبيـاء، ولـو كنـتُ معـه يومئـذٍ لاتّبعتـُه، ولحَلَلْـتُ لـه سُـيُورَ حِذائـه، ولَغَسَـلْتُ لـه قَدَمَيـه». فقـال لي سِـمعانُ بُطـرس: «يـا ليَتنـا نعيـشُ إلى ذلـك اليـوم». فنهرتُـه قائـلاً: «إنّـكَ لا تـدري إنْ عشـتَ في زمنـه؛ هـل تُؤمـن بـه أم تكفُـر. ادعُ الله أنْ لا يدخـل الشّـيطانُ في قلبـك؛ فإنّـه إنْ دخـل فـلا يُفيـدُكَ أن تعيشَ في زمـنِ نبـيّ أو أن تـراه، أو تـدركَ مُعجِزاتـه مـن أجـل أن تنجـو». فسـكتَ التّلاميـذ، وكانَ بعـضُ الحُـزنِ قـد ارتسـمَ عـلى وجوههـم.

استيقظَ (أنـدراوُس) قُبَيـل الفجـر، غـادر باتّجاه بحـيرة طبريّـة، حيثُ التقَـى يسـوع أوّل مـرّة، كان يحمـلُ عـلى ظهـره شـبكته الّتـي اسـتراحتْ كلّ هـذه الفـترة مـن عنـاء العمـل بعـد أن تبـع المُعلّـم، وهـا هـي تعـودُ إلى الصّيـدِ مـن جديـد. ألقاهـا في البحـر، وراح يتأمّلهـا، وهـي تغـوصُ في المـاء كأنّهـا عُشـبةٌ تـذوب، ثُـمّ راحَ يفكّـر في (يحيـى) وسَـجْنِه، وتمنّـى لـو كان هـو مكانـه، فكيـفَ سـتنجو هـذه الأمّـة إذا كانـتْ تسـجِنُ أنبياءَهـا وعُلَماءَهـا!! راح يتذكّـر وجهـه، ونظَـراتِ عينَيـه، هـمّ أن يَبكـي حـينَ يُخيّـل إليـه أنّ وجـه يحيـى في صفحـةِ المـاء يبتسـمُ لـه، أشـاحَ بوجهـه عـن المـاءِ حتّـى يقطَـعَ سـيلَ خيالاتـه، فـرآه في الجهـةِ الّتـي أدار وجهـه إليهـا يبتسـمُ كذلـك. ثُـمّ سـمعه يقـول: «لا خـوفَ عـلى نبـيّ يـا أنـدراوُس». فصمـتَ، ثُـمّ سَـمِعه مـن جديـد يقـول لـه: «ألا تُريـدُ أن تتحـدّث معـي يـا أنـدراوُس؟!». فلانـتْ نفسُـه لحديـث فـردّ عليـه: «إنّ قلبـي موجـوعٌ لِمـا حـلّ بـك يـا نبـيّ الله». «لا يُوجِـعُ القلـبَ مثـلُ الخطيئـة؛ مَـنْ نجـا منهـا نجـا مـن الوجـع كُلّـه». «ألا تـرى نفسـكَ يـا نبـيّ الله، كُلَّ هـذا النّحـول في جسـدك، وكُلَّ

هـذا الشّـحوب في وجهـك». «إنّ رؤيـةَ الله لا تتحقّـق إلاّ بالتّخلّي عـن الجسـد. لكـنْ قُـلْ لي هـل ستأتيني بالصّحـف؟! أريـدُ أنْ أكتـبَ مـا علمّـه الله لي؟!». «بلى يـا نبـيّ الله، هـا أنـذا هنـا مـن أجـلِ ذلـك». ثقلـتِ الشّـبكةُ في يـديّ. سـحبتُها. كانـتْ مـلأى بسـمكٍ كبـير، يرقـصُ عـلى إيقـاع روحـه تالهاربـة مـن جسـده، سـحبتُها إلى الشّـاطئ. مـلأتُ صندوقًـا كبيرًا منـه، وحملتُـه على ظهـري العـاري، وتوجّهـتُ بـه إلى بيـتِ مديـر السّـجن. طرقـتُ البـاب. بـرزَتْ لي زوجُـه عـلى البـاب. قلـتُ لهـا: هـذا لكـم.

وفى مسـؤول سـجنِ القلعـةِ بـما اتّفقـتُ عليـه معـه. عـرفَ بأمـر الصّنـدوق حـينَ عـادَ في إجازتـه الأسـبوعيّة إلى بلدتـه. حدّثتْـهُ زوجـه عـن الصّيّـاد الّـذي جاءهـم بسـمكٍ يكفيهـم شـهرًا. في المسـاء غـادر القائـدُ بيتَـه إلى الحاميـة الرّومانيّـة، أخـذ منهـا اثنتّـي عـشرةَ صحيفـةً مـن ورقٍ فاخـرٍ مـن الجلـد الرّقيـق، ودواةَ حـبرٍ وريشـةً مـن ممتلـكاتِ الحامِيـة، ووضعهـا في صنـدوقٍ خشـبيٍّ يُسـتَخدمَ لجمـع أمـوال العُشُـور، ثُـمّ أمسـكَ بيـدِ أحـدِ الجُنـودِ الصّغـار، وانتحَـى بـه ناحيـةً بعيـدةً عـن الأعـين، وهمـسَ في أذنـه: عليـكَ أن توصِـلَ هـذا الصّنـدوق اللّيلـة إلى قلعـة (مـكاور) عـلى الضّفّـة الأخـرى مـن نهـر الأردنّ، أعطِهـا لِمُسـاعدي، وهـو سـيتصرّف.

(٤٠)

يا مُعلّم أيطولُ الهَمّ؟!

«ضَعْ يَدَكَ الصّادِقةَ عليّ، واذْكُرْ غرْسَكَ الّذي غرستَ.. فباسْمِكَ ثَبتَ الأوّلون، وباسْمِكَ الآخرون سَيَثْبُتون». لم تدعْني في حيرتي يومًا، فلا تجعلْ بيني وبينكَ موعدًا؛ فإنّما الموعدُ حاجِزٌ. خُذني إليكَ فحسب، سأتْرُكُ جسدي على نهر الأردنّ من أجلِك، سأخلعُ قِشرتَه الرّديئة تهَيُّؤًا للقائك، وأتخفّفُ منّي لآتيكَ خالِصًا نقيًّا.

كانَ يحيى قد وصلتْ إليه الأوراق، فنقشَ عليها من حبر دواتِهِ حِكَمَه الخالِدة. في اليومِ الثّالث لم يَجِدْ ورقًا ليكتب، لقد سطّر ما أُلقِيَ في رُوعه على كلّ الأوراق الموجودةِ عِندَه، ودسّها في شِقٍّ في جدار الزّنزانة، وعاشَ يتيمًا من الحِكمةِ يومَين ناجَى فيهما الله، ثُمّ في اليومِ الخامس، جاءتْه رُزَمٌ من الأوراق يزيدُ عددها عن ستّين ورقة، لا بُدّ أن (أندراوُس) قد بعثَ بمزيدٍ من الصّناديق إلى بيتِ مدير السّجن.

«لقدْ رأيتُكَ في كُلّ شيء؛ في قُضبانِ الزّنزانة، في نَسْمةِ الهواء، في رغيفِ الخُبز، في نَملةِ الأرض، في بَردِ الحجارة، في ضعفي وافتِقاري إليك، في قُوّتِكَ واستِغنائكَ عنّي، في جُوعي، في عطشي إليك... رأيتُكَ ملءَ العينِ في كُلّ أثَر، ووجدتُ عندَكَ النّعيمَ كُلّه؛ فأيّ رغبةٍ لي بعدها في الحياة؟ رأيتُكَ وتَبِعتُكَ، وكلّمْتُكَ وسَمِعتُكَ... وها أنا أطلبُ جِوارَكَ فلا تحرِمْني منك؛ من البهاءِ الّذي منه أتيتُ. خُذني إلى المكانِ العظيمِ الّذي أنتَ ذاهِبٌ إليه؛ فما عادَ لي في هذه الأرض مَطمَع، وما عادَتْ لي رغبةٌ بالبقاء فيها ولو يومًا

واحِدًا. فلا تَحرِمْني من يدك الّتي لا يضلّ المُعتصِمُ بها، وَلْيُرافِقني حنانُك، ونورُكَ وإتقانُك، ساعِدْني على أنْ أعرفَ أسرار الملائكة الّذين سأعيشُ بينهم، وثمرَ النُّور العظيم، وسنادينَ الجنّة وأثْمارها... والمياهَ الجاريةَ وما يدفعُ تيّارَها.. والحرارةَ الحيّةَ وانتِشارَها... والحياةَ وأسرارَها. مِمّنْ هِيَ أقدم.. ومِمّنْ هِيَ أعظم.

دخلَ عليه السّجّان، كان يحملُ في يده صَحنًا صغيرًا فيه بعضُ اللّحم والطّعام. فلمّا رأى يحيى والنّورَ الّذي يُشِعّ من حوله، أصابتْه رِعدةٌ، فوقع منه الصّحنُ وانسكبَ ما فيه، فقال له يحيَى بهدوء: «لا عليكَ، إنّما وَقعَ فانٍ على فانٍ». فلمْ يفهمْ، وراحَ مُرتبِكًا يلمّ ما تناثرَ من الطّعام على الأرض، فاقتربَ منه يحيى، فَجَفِل، فلّما وضع يده على كَتِفه اطمأنّ، فقال له السّجان: «ما هذا النّور الّذي حولك؟!». «أَوَرأيتَه؟!». «بلى». «هذا نورُ الله». «وهل أنتَ مِنَ الجِنّ أم من الآلهة؟!». «أنا بَشَرٌ مثلك». «فما هذا الّذي أراه فيكَ ولا أراهُ في غيرِك؟!». «إنه الإيمان، وإنّها السّكينة». «ألكَ ربّ؟!». «إنّي أريدُ أنْ أُعلّمك؛ إنّ ربًّا واحِدًا - وهو الّذي خلق هذا الخلقَ كُلَّه - لَخليقٌ بأنْ يسمع حِورانا هذا، فلو كان (أَنْتِيباس) مَنْ يسمع فكيفَ تكون؟!». «أكونُ مُستعدًّا لكلّ ما يقولُ لأنفّذَه». «فإنّ الله قديمٌ عالِمٌ مُكافِئٌ؛ فإذا أيقنتَ أنّه معك وفيك وحولك فهل تَعصيه؟!». «كَلاّ». «فما بالُكَ تفعل في كلّ حين؟!». رجفَتْ يدُ السّجّانِ الرّومانيّ من جديد. تركَ الطّعامَ المنثورَ على الأرض، تراجَع إلى الوراء وهو ينظر ببلاهةٍ في وجه يحيى، أدار ظهره لباب الزّنزانة، ثُمّ ولّى هارِبًا.

زارَ (أندراوُس) يحيى بعد شهرٍ من زيارته الأولى، كان يحيى قد ازداد نُحوله، وقفَ دامِعًا. يبدو أنّ الّذين يختارهم الله يتجرّدون من كلّ شيءٍ إلاّ مِمّا يُوصلهم إليه. قبضَ (أندراوُس) على قُضبان باب الزّنزانة الفاصلةِ

بينهما، ونظرَ في وجهه، ثُمّ بكى. «لا تَبْكِ... سَفَري قريبٌ فلا تُضيّع عليّ لذّة الاستِعداد له بدموعك». «إنّها حُرقةُ الفؤادِ عليك». «ماذا قال لك عيسى؟!». «قال إنّه ليسَ هو، وإنّهم ينتظرون نَبِيًّا آخرَ، سيكون خاتَمَ النّبيّين». «لن يطولَ هو الآخَرُ لَحَاقُه بنا، إنّما العُمر عندَ الأنبياء بتقارُب الأرواح لصفاءِ الأعمال، فكلّما أحبّ النّبيّ أخاه رآه». «وقال إنّه يتمنّى أن يغسِلَ قدمَيه». «أمّا أنا فأتمنّى أنْ يُجاوِرني في بلدِ النّور، لأنّ مُجاورتَه تعني مُجاورةَ مَقامِه، ومَقامُه في عِلّيّين». «يا يحيى». «لبّيكَ يا أندراوُس». «ألا تُعلّمني؟!». إنّي أعلّمكَ كَلِماتٍ، فَاسمعْ بقلبك». «ما أسعدَني اللّحظةَ يا مُعلّم». «لا تَنمْ في الوقتِ الّذي يُحبّ الله فيه أن تكونَ مُستيقظًا؛ فإنّ النّوم خُسرانٌ مُبين. وكُنْ مِنْ نفسِكَ على حَذَرٍ فإنّها تنزعُ إلى الشّيطان كُلّما تراخيتَ في مُراقبَتِها. رأسُ التّذكّر ألاّ تنسى الموت. والعدلُ ميزان. والعارِفُ بناءٌ مُنظّم. والثّابتُ جبلٌ. والمُتصدّقُ مائدةٌ مبسوطةٌ للجياع والمُحتاجِين. والرّأفةُ ريحٌ طيّبة تَهُبُّ على جميع الأبواب. والغِشُّ حُفرةٌ مُغطّاةٌ بالقشّ. والإثمُ رُمّانةٌ عَفِنة». «يا مُعلّم أيطولُ الهَمّ؟!». «كُنْ مع رَبِّ الهَمّ يَقصُر». «أَلِلْموتِ رَهبة؟!». «مَنْ أحبَّ لِقاءَ الله أحبّ الله لِقاءَه». «أَلِلذّنبِ علامة؟!». «قَسوةٌ في موطنِ الرّحمة، وشِدّةٌ في موضِع اللين». «ألكَ حاجة؟!». «لو كُنتَ تملِكُها لسألتُك». «أعندَكَ بُشرَى لي؟!». «لو كنتُ أملكُها لأعطيتُك». «ألي خطيئة؟!» «لو لمْ تكُنْ لَمَا كَلّمْتُك». «فكيفَ أنجو؟!». «الفِرار». «فَمِمَّنْ وإلى مَنْ؟!». «مِنَ الله إلى الله».

ثُمّ طَرَقَ الجُنديّ الرّومانيّ بِرُمحه على دِرعه الّتي يعتمرها فوقَ صدره، ليُعلِنَ انتهاءَ الزّيارة. وحده (أندراوُس) شعرَ أنّه فقد روحه بعد هذه الطّرَقات. عادَ وقد أحسَّ بأنّ إرثًا منَ الحِكمةِ يحمله عن يحيى، وأنّ هذا القلبَ الّذي تُهمِله، لا يُمكن أن يبقى خاليًا. إمّا أن تُعرّضه لنَفَحاتِ الشّيطان فيملأه بالشّر، وإمّا أن تُعرّضَه لنفحاتِ الرّحمن فيملأه بالخير.

في الطّريق الهابِطة إلى الوادي من القمّة الّتي تجثُمُ فوقَها القلعة وسِجنها، خطرتْ ببال (أندراوُس) فكرةٌ قامَ بتطبيقها على الفور. تنحَّى إلى أكمةٍ قريبةٍ، وركنَ إليها ليرتاح فيها. مِنْ هُناك بدا له النّهر الأردنّ الخالِد يشقّ الوادي سائِرًا على مَهَل. تذكّر أوّل يومٍ رأى فيه يسوع عليه، حينَ كانَ من تلاميذ يحيى. خُيّل إليه أنّ هذين النّبيَّين لا ينتميان إلى عالَم البشر. اشتطّ خيالُهُ أكثر فرآهُما طيرَيْنِ قادِمَيْن من السّماء. أرسَلَهما الله إلى الأرضِ ليُوقِظا القلوب الغافِلة ويَعودا مِن حيثُ أَتَيَا. أدركَ أنّ بقاءَهما على هذه الأرض لن يَطول. وأنّهما على سَفَر. تذكّر أيضًا ما قاله يحيى عن اقترابِ انهيارِ مملكةِ الأرض. وما قاله عيسَى عن انقِضاض المَعبد. عَزَمَ على ألاّ يُضيّع لحظةً واحدةً في صُحبتهما حتّى يقضيَ الله في أمره وأمرهما. أسندَ ظهره إلى جِذع شجرةٍ هَرِمةٍ، وأراحَ ساقَيه على الأرض، ثُمّ أخذتْهُ سِنَةٌ من النّوم، فانتظَمَ نَفَسُه. في المنام رأى مطرًا شديدًا يسقطُ من السّماء، كانتْ حَبّاتُه حجارةً صخريّةً مُحمّاة، رأى هذه الحجارة تهوي على رؤوس النّاس فتُهَشِّمها، وتسيلُ دماؤهم على وجوههم، فيصرخون مُستغيثين فلا يُغيثهم أحدٌ، ومَنْ يُغيثُ من حجارةٍ ساقِطةٍ من السّماء لا يستطيعُ أحدٌ لها رَدًّا!! ورآهم يهربون فَزِعين ويدخلون إلى البيوت لِيَقُوا أنفسهم من العذابِ الهابِط من السّماء، ولكنّ الحجارة لا ترحمهم، تهوي على البيوت فتنقبُها، وتُهدّم أسطُحَها، ثُمّ تأتي دُفعةٌ جديدةٌ من الحجارة فتقضي على الهارِبين. ثُمّ رأى من بعيدٍ عمودًا من النّور صاعِدًا إلى السّماء، لا يفصله عنها شيءٌ، ورأى عددًا قليلاً من الهارِبينَ يلجأ إليه، وكانوا في مأمن إذ إنّ الحجارة كانتْ تسقط من السّماء وتمرّ بِجوارِ هذه البقعة النّورانيّة دونَ أن تختلطَ بها، ثُمّ جالَ ببصره فرأى جُثثَ الموتى يتراكم بعضُها فوقَ بعضٍ، وصُراخ الهاربين المَرعوبين يَصُمّ الآذان، ثُمّ رأى في الجهة الأخرى من عمود النّور نخلةً عاليةً، أعذاقُها

تمتدّ مثلَ مِظلّة، وكانَ تحتها رجلٌ يصيحُ بالنّاس الفارّين أن يأووا إليه فإنّ الحجارة لا تُصيبُ النّخلة ولا الظّلّ المتشكّل من جذوعها، لكنّ أحدًا لم يَكُنْ يسمعُ كلامَه، ومن بين آلافِ المُستصرخين الهاربين لجأ إليه شخصٌ أو اثنان، فتعجّبَ أندراوُس أيّما تعجّب، وأصابه فَزَعٌ فرجفتْ ساقاه، وهمَّ أنْ يهربُ إلى النّور أو إلى النّخلة، فوجد قَدَمَيْهِ مُقيّدَتين، ثُمّ أحسَّ أنّ حجرًا سيسقط على رأسِه، وسقطَ بالفعل.. كانَ ثمرةً من ثِمار الشّجرةِ الهَرِمة الّتي أوى إليها، استيقظ من نومه، نظر حوله وهو يرجف، لم يرَ حجارةً ولا نخلةً ولا عمودًا من النّار، كانَ الظّلامُ دامِسًا، لم يَرَ شيئًا باستثناء القُبّة السّماويّة الّتي تراءَتْ له على ضُوءِ نُجومِها المُتراقِصة هادِئةً ساجِية. تلمّسَ جسدَه، فلم يَجِدْ فيه أثرًا لدمٍ، وحده صوتُ خرير النّهر في العتمةِ وصلَ إليه صافِيًا حَنونًا. كانَ اللّيلُ قد انتصفَ وهو نائمٌ يحلُم. تذكّرَ أنّه توقّفَ هنا من أجلِ أن يعودَ إلى القلعة. عاد. تسلّلَ عبرَ طرقٍ خلفيّة خَفِيّة بحيثُ لا يراه فيها الحُرّاس، وزحفَ على بطنه حتّى وصلَ إلى النّافِذة المُطلّة على الوادي السّحيق، إنّها نافذةُ الزّنزانة الّتي يقبعُ فيها يحيى. كانَ عليه أنْ يكتُمَ أنفاسه من أجل أنْ يُراقبَ ما يحدث. كانتْ هذه الفكرة قد خطرتْ بباله ظُهرَ هذا اليوم من أجلِ أنْ يتعلّم من هذا النّبيّ الحكيم، قبل أن يرحلَ طَيرُه المُهاجِر.

حَزّتْ برودةُ الجوّ الجارِحةُ في هذا الوقتِ المتأخّر من اللّيلِ جَسَدَه. التصقَ بالقَدْرِ الّذي يستطيع بالجدار السّميك الخلفيّ للزّنزانة، وضعَ بعضَ الحجارة المتوافرة في المكان، وارتقى فوقَها، صارتِ النّافذةُ تبعدُ أقلّ من ذراعٍ عن رأسه. لم يشأ أن يرتقي أكثرَ من ذلك حتّى لا يراه المُعلّم، كان يُريد أنْ يسمعه دون أن يراه. وكَمَنَ هناك. مرّتْ لحظاتٌ ثقيلةٌ عليه قبلَ أنْ يُحِسَّ أنّ تيّارًا خفيفًا من هواءٍ دافِئ يمرّ قريبًا من رأسه،

استمرّ للحظات، سمعَ حفيفَه، صعدَ باتّجاه النّافذة، وقدّرَ أنّه عَبَرَها إلى الدّاخل، تسرّبَ إليه شيءٌ من الخوف والهلع. غيرّ أنّ حُبّه لِسماع الحِكمة تغلّب على خوفه، فشّجعَ نفسه وتَسَمّرَ مكانه. مرّتْ لَحَظَاتٌ أخرى قبل أنْ يَسمعَ حِوارًا بينَ اثنَين، كانَ صوتُهما في سُكونِ اللّيلِ جَلِيًّا، مَيّزَ أحدَ الصّوتَين؛ صوتُ مُعلّمه لا يخفَى عليه أبدًا، أمّا الصّوتُ الآخر فبالتّأكيد لم يكنْ صوتَ رومانيّ من سُكّان القلعة؛ كلاّ!! إنّه صوتٌ إيمانيٌّ حَميم، لا بُدّ أنّه دخلَ مع تيّار الهَواء قبل قليل. قال الصّوت: «السّفينةُ تغرَق، وسآتيكَ بقاربٍ لآخُذَكَ إلى بيتِ الأمان». «وهؤلاء الّذين في السّفينة أَنَتْرُكهم يَغرَقون؟!». «لقد نَقَبُوا السّفينةَ بأيديهم». «أما مِنْ أملٍ لنجاتهم؟!». «لو كانوا سينجون لكانوا مُطهّرين مثلك؛ لكنّهم دَنَس». «وما هذا الّذي بينَ يدَيك؟!». «إنّه لِباسُكَ الجديد». «ما أجملَه!!». «سأخلعُ لِباسَكَ القديم الفاني، وأُعطيكَ هذا اللّباسَ الجديدَ الخالِد». «إنّه أحمرُ قانٍ!!». «به سيرفعُ الله منزلتَكَ عنده». «هل سأتألّم وأنتَ تنزعُ عنّي لِباسي القديم؟!». «بلى؛ فاصبِرْ». ثُمّ سكتَ الصّوتان. ومرّتْ لَحَظاتٌ قبل أنْ يَشعُرَ أنّ تيّار الهواء الدّافِئ قد غادر الزّنزانة. رجفَ من البردِ بعدَها، كانتْ برودةُ اللّيل تُمعِنُ في تعذيبه، وجوعه يُشتِّتُ تفكيره، هَمّ أنْ يُغادر موقعه، لولا أنّ صوتَ يحيى جاءه مثلَ يدٍ امتدّتْ إلى كَتِفه لتنتشله مِنَ الغرق، هل طلبتْ منه هذه اليد أنْ يبقَى لِيَسمعَ؟! رُبّما. كانَ شيءٌ ما في الدّاخل يَئِنّ، بالطّبع لم يكنْ يحيى، هل هي حجارةُ هذا الجدار السّميك؟! ربّما. هل هي قُضبان الزّنزانة؟! ربّما. هل هي الأوراق الّتي يُسطّر فوقها يحيى حِكمته؟! ربّما. هل هو قلبُه الرّاجفِ في أضلاعه؟! ربّما.

قامَ يحيى، فقامَ لقِيامه كُلُّ مَنْ في النّهر وما حوله: «يا ربّ اخترْتَني فَبَصِّرْني، واختبرْتَني فَصَبِّرْني. وطالَ يومُ اللّقاء بِكَ فلا تُعذّبْني بالشّوقِ إليك. ورأيتُ ما عِندكَ فهانَ عليّ ما عندي. ما أوحشَ اللّيلَ إلاّ بِأُنسِك!! وما أطولَ الطّريقَ إلاّ بِرفقتك!! وما أبعدَ الفوزَ إلاّ بِوَعدك!! فإنْ نَزَعت شُعلةَ الحياةِ من جسدي فلا تُعِشْني في الظّلام إلى يومِ ألقاك». ثُمّ خرّ على الأرضِ ساجِدًا.

يتبع...

الفهرس


الإبـداع الفكري
رواية
ثلاثية المسيح
الجزء الأول
عيسى
ابن مريم
د.أيمن العتوم